دراسات منهجية هادفة في البناء

مسح: شهاب الدمشقي

هذه تجربتي..

وهذه شهادتي

سعيد حوّى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠ - فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

دراسات منهجية هادفة
في البناء

هذه تجربتي .. وهذه شهادتي

سعيد حوّى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: هذه تجربتي وهذه شهادتي

سعيد حوى

الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة.

١٧٦ صفحة: ١٧ × ٢٤سم

رقم الإيداع: ٨٧/٥٠٠٩

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-307-112

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله وآله..

ليس هناك من شيء أهمني في حياتي كحال الأمة الإسلامية، بل مرت على أطوار غلب على التفكير في شأن الأمة في قيامي وقعودي حتى خشيت أن تصبح الأمة الإسلامية شاغلاً لي عن الله عز وجل.

وشاركت في أنواع من العمل الإسلامي المتاح، وانخرطت في أكثر من بيئة إسلامية، واندفعت حيث ظننت أن الحق ثمة، وكتبت حيث وجدت حاجة للكتابة في موضوع، وحيثما وصلت إلى نهاية مرحلة كنت أراجع نفسي كثيرًا، وأعيش أثناء المراجعة فترات من القلق والحيرة والاضطراب أتكتم عليها لكني أبقى أبدًا في عملية مراجعة حتى أطمئن لما أنا عليه: هل هو محل رضوان الله عز وجل؟ وهل ما أنا فيه هو الطريق الصحيح لخدمة هذه الأمة؟

وكنت على استعداد دائم إذا تبين لي الخطأ أن أعترف به مهما كلفني ذلك بل أنني أعتبر من الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أن أكتم عن المسلمين خطئي إذا كان في ذلك تغرير بالمسلمين.

أبدأ كتابة هذه المذكرات وقد قاربت الخمسين، وقد انتهى القرن الرابع عشر الهجري وبدأ القرن الخامس عشر، ونرجو أن نكون على أبواب مرحلة جديدة قد خدمها ما سبقها.

ولقد فكرت كثيرًا في أن ألتزم الصمت بقية حياتي، وأن ألزم نفسي بالعزلة التي أجبرني عليها المرض تاركًا لتجربة القرن الرابع عشر أن تأخذ مداها، ولكن غلب عليَّ أنني وجدت مصلحة في كتابة هذه المذكرات فآثرت الكتابة.

ولئن أصبح أدب المذكرات جزءاً رئيسيًا من آداب عصرنا، فقليلة هي المذكرات التي تستأهل النشر أو القراءة، ولولا أنني أعتبر هذه المذكرات مفيدة ولو لبعض الناس ما نشرتها، أسأل الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم وألا يكون فيها حظ لنفسي، وأسأله أن يجعلها نفعًا خالصًا لا ضرر فيها لأحد. والله الموفق.. وهو المستعان.

سعيد حوى

***

الباب الأول

من السنة الأولى حتى الثالثة عشرة

(١٩٣٥-١٩٤٨م)

ولدت في حماة سنة ١٩٣٥ في حي فيها يسمى العليليات يقع على يمين الداخل إلى حماة من جهة دمشق، اسم الوالد محمد ديب حوا واسم الوالدة عربية الطيش، يشتق اسم أسرتي من الفعل حوى يحوى فهو حوا وللإشعار بهذا الاشتقاق، فقد تعمدت أن أختم اسم الأسرة بالألف المقصورة وقد نبهني بعضهم إلى أن هذا غلط إملائي فلا يصلح ههنا إلا الألف الممدودة، وبعض شيوخنا أجاز الوجهين، وهو الذي أخذت به.

تصل أسرتى بنسب إلى أسرة أخرى في الحي هي أسرة بري ورواية الأسرتين تتضافر على أن ثلاثة إخوة أصولهم عربية وفدوا إلى حماة وقطنوا فيها ومنهم تفرعت الأسرتان.

تتضافر روايتا كبار الأسرتين على أننا من آل بيت رسول الله ﷺ وقد حدثني حاج محمود بري -ولا زال حيا أثناء كتابة هذه السطور- أنه ورث في أوراق أسرته شجرة النسب وأن نسب الأسرة ينتهي إلى رسول الله ﷺ وتلك رواية أسرتنا والجميع مجمعون على أن نسبنا واحد.

وقد حدثني الوالد أننا ننتسب إلى قبيلة النعيم المشهورة وهي قبيلة ينتهي نسبها إلى رسول الله ﷺ كما هو مشهور، ولم تتح لي فرص التحقق من هذه الروايات والناس مصدقون بأنسابهم، وأما أسرة والدتي فتنتسب إلى عشيرة الموالي، وهي عشيرة مشهورة تسكن بادية الشام، كما حدثني بذلك ابن خالة لي نقلاً عن والده.

توفيت والدتي وأنا في السنة الثانية من عمري، ثم تزوج والدي من أسرتنا ثم اضطر لمغادرة البلد وأنا صغير بسبب شجار حدث في الحي توفى أحدهم رحمه

الله، وقد اتهم به والدي الذي يضع دم القـتيل في عنق طبيب متـآمر، وقد لوحق الوالد ففـر إلى الجزيرة السورية وبقي هـناك حوالي أربع سنوات، تقمص خـلالها شخصية تاجـر، وعاش في أجواء قبيلة عنزة، ثم سلم نفسه للسلطـة بعد مصالحة مع أسرة القتيل، بقي بعد ذلك في السـجن حوالي سنة ثم أطلق سراحه، وعشت خلال هذه الفترة في كنف عمي وجدتي رحمهما الله.

كانت جدتي حازمة صارمة لم تكن تسـمح أن أغيب عنها وكانت حريصة على تعليمي فأدخلتني مـدرسة ابتدائية، ولكن الفقر لم يكن يسـمح بلباس مناسب فلا أعرف أنه كـان أرث من ثيابي في المدرسـة، حتى احـتج المدير على رثاثتي وهدد بطردي فاستطاع أحد أقربائنا أن يأتيني بثـوب عتيق ولكن لا بأس به فأنقذني ذلك من الطرد، كـانت الأيام وقتـذاك أيام حرب، فـالحرب العـالمية الثـانية كـانت في أوجها.

خرج الوالد من السـجن وأنا في الـثامنة تقريبًا، فـأخرجـني من المـدرسـة لأنـه لا يستطيع الإنفاق علي ثم أنه كـان بحاجة أن أساعده على صـغري في عمله في سوق الخضار كبائع بالجملة.

ذكرياتي عما قبل الثامنة قليلة، حـينا حي منعزل وجدتي كانت تفرض على عزلة كاملة فلا خلطة مع أحـد، كنت أفر كثيرًا من المدرسة وأرفض الذهاب إليـها أحيانًا وكم شاهد الناس جدتي وهي تجـرني إلى المدرسة غصبًا عني، كنا فقـراء نأكل خبز الشعـير في الغـالب، ولا نذوق الرز إلا في الأعياد، وكـانت فقيـرات الحي ومنهم زوجة والدي يعملن أثناء موسم الحـصـاد إمـا بالحصـاد ليكسـبن أجرًا أو يلتقطن ما يهمله الحصادون وكانت سنة معتادة أن ما يتركه الحاصد يكون مباحًا لمن يلتقطه.

لا أتذكر أنني زرت والدي في السجن إلا مرة واحـدة فجدتي كانت تجنبني هذه المواقف.

أتذكر زيـارة واحدة زرنا فيـها والدي أثناء هروبـه في الجزيرة، أخذنـي عمي، ويبدو أن ترتيبه مع الوالد أن أبقي عند الوالد لكني أحـسـست بالأمر وكنت متعلقا

بعمي وجـدتي فبكيت ولحـقت بعمي فـأرجعني عـمي معه، لا زلـت أتذكر اسم القرية، كـان اسمهـا «عين عيـسى» ولا زلت أتذكر منظر السـمك وهو يسبح في عينها.

رجعنا من قرية عين عيسى في الجزيرة في سيارة شحن تحمل حبوبا وكنا نائمين على ظهرها، وعبـرنا الفرات على زورق خشبي، ولقـد أضعت حذائي أثناء النوم فغدوت بلا حذاء.

مررنا في عودتنا بحلب ودخلنا بعض أسواقها وعـرفت وقتذاك وأنا صغير كيف يحاول بعض التجار أن يغرروا بالمشترين فيدفعوا ناسا للتظاهر بالشراء ولا يريدونه.

كنت أرى كل شيء عجيبًا.

عدنا إلى الجـدة التي كانت تصبـر عليّ كثيرًا وتحـبني كثيـرًا، ومع ذلك كانت تضـربني كثـيرًا وخـاصة من أجل المـدرسة، ومن أجل إسكات صـوت بكائي إذا رفضت أن تعطيني ما أريد.

كنت كثير الطمع بها، كثير الحب لها، -رحمها الله-.

عندما خرج الوالـد من السجن وأخرجني من المدرسة بدأت أسـاعده في عمله كـاتبًا ومـحاسـبًا ووزانًا وحـمالاً، ومن قـبل كنت أساعـد عمي وكـان خضـريًا وفاكهانيًا.

كان والدي يبـيع بالجملة ينزل عنده أصحاب البـساتين والحقول إنتـاج بساتينهم وحقولهم فـيبيعه لهم، كان دوره دور الوسـيط بين المزارع وبائع المفرق وبسبب من ذلك تقوم دوائر من الأعمـال والمحاسبات، ودفعني الوالد على صـغر سني لإتقان ذلك كله محاسبة وجباية وتصرف في المال مع رقابة شديدة وأتقنت ذلك، لقد ركز على تعليمي الخط والحساب حتى صرت مضرب المثل في سرعة الحساب.

وعودني الوالد علـى المطالعة حتى ولعت بهـا وكانت بداية ذلك عندمـا جاءني بقصة عنتـرة ثم بقصة سيف بن ذي يزن وبقيـة القصص الشعبيـة فولعت بالمطالعة

ولعًا شديدًا، وكـان استيعابي رفـيعًا حتى أنني في يوم من الأيام قـرأت في كتاب المستطرف فحدثت عـمي الأكبر عن بعض ما فيه فعجب من اسـتيعابي ورغب إلى أن أقص أمام بعض الناس فقصصت، فعلق أحدهم:

أن هذا الغلام سيأكل الفالوذج على موائد الملوك، ولم ترقني هذه الكلمة فلقد كـانت همتي وقـتذاك أكـبر مـن ذلك، فلقد نما عندي بسـبب مطالعـاتي نوع من الإحساسات الطموحـة ندر أن توجد في بيئة كبيئتنا وبقـيت هذه الإحساسات تنمو وتستفحل حتى دخلت جماعة الإخوان المسلمين بعد سنين، وعندئذ تحول طموحي إلى رغبة أن أنجز الكثير دون أن يعرف أحد عني شيئًا.

لقد كنت أسـتشعـر أنني أستطيع أن أفـعل كل شيء وأن أتغلب على كل شيء وأن أحقق كل شيء، شهدت في السنة العاشرة ما حدث في حماة من صراعها مع الفرنسيين وما ترتب على ذلك من جلاء، شـهدت الآلام وشهدت الأفراح وأتذكر ذلك جيـدًا. وأتذكر كيف نهب الناس بيـوت الفرنسيين بـعد هزيمتهم في حـماة وكيف أن بعض أقاربي نهب صناديق ثقيلة وبعـد جهد فتحها فوجـد فيها سردينا، فكانت نكتة ضحك الناس منها لأنه لم يكن مألوفًا في بيئتنا أكل السردين.

وأتذكر كيف انتهب الناس سلاح الحملات التي وجهها الفرنسيون إلى حماة بعد انكسار هذه الحملات.

وأتذكر الاستعـراضات التي سبقت ولحقت الحملات، وكيف أن الناس جـميعًا نسوا خلافاتهم وأتذكر أن والدي شارك في المعركة مشاركة فعّالة.

كانت بيئتنا بـيئة جاهلة لكنها تهتم كثـيرًا بقضايا الشرف، وكانت فـقيرة لكنها عفيفة، وكان أكثر حينا يعـمل إما في البساتين وإما في بيع الخضار وكان يقع على هؤلاء وهؤلاء ظلامات من المـلاكين وحواشـيهم والمتعـاملين معـهم وكان والدي وعمي يمثلان فتـوة جيلهما، ولذلك وجدا أنفسهمـا في حلبة صراع كان من آثاره ما ذكرته من استشهاد أحد أبناء الحي على أثر ضربة من والدي وتواطيء طبيب مع الخصوم غـفر الله للجمـيع، وكان من آثار ذلك الوضع سقوط الكثـيرين من أبناء

الحي قتلى وكانت بعض الظلامات سببًا في استجابة أهل حينا للحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني وكان والدي وعمي ممن شاركوا ابتداءً في التمكين لهذا الحزب في حيِّنا.

كانت أوضاع حينا تستدعي المنازعات والخصومات، ولقد سجن والدي ثلاث مرات بسبب هذه الأوضاع، سجن والدي سجنه الأول وأنا في السنة الثانية من عمري وتوفيت والدتي وهو سجين، وعمري سنة وأربعة أشهر، وسجن سجنه الثاني وأنا في السابعة من عمري، وسجن سجنه الثالث وأنا في العاشرة من عمري، وكان ذلك كله بسبب مواقف يعتبرها الناس عندنا شريفة وبطولية، والله يغفر لنا وله وللناس.

خرج الوالد من سجنه الثاني وأنا في أواخر الثامنة وقد خرج من السجن وهو فقير، وأتذكر بعض الحديث الذي دار أمامي حول عمله، ثم حدث أن توجه نحو بيع الجملة «سوق الهال»، وبدأ عدد من أصحاب البساتين ينزلون عنده خضارهم وفاكهتهم، وبيع الجملة يحتاج إلى حاسبة قوية وكتابة واضحة وإلى حركة صباحية نشطة وإلى جمع ثمن الخضار مساءً، ولذلك ركز عليَّ والدي أن يعلمني جدول الضرب وأن يحسن خطي، فمهرت بالضرب مهارة عجيبة مذهلة بحيث كنت أستطيع بسرعة دون الاستعانة بالكتابة أن أجمع أو أضرب أي رقم يحتاجه عملنا، ومع أن أهل مهنتنا كانوا مهرة في ذلك لكن لا أعرف أن أحدًا كان يفوقني في سرعة استخراج أي نتيجة، وتحسن خطي فأصبح واضحًا مقروءًا حتى أن أبي صار يفاخر بي، وكنا نستيقظ مبكرين فنصلي ونقبل على استقبال الخضار والفواكه فنبيعها ونزينها ونسلمها لأهلها، وقد نساعدهم على تحميلها وينتهي عملنا هذا كله مبكرًا حتى أنه نادرًا ما يتجاوز عملنا الثامنة صباحًا، وكان إفطارنا في الصيف الخبز والفليفلة والطماطم والبقدونس، وكانت كمية الخبز التي آكلها كبيرة بعد ساعتين من العمل المجهد، وبعد الظهر كان والدي يرسلني لجمع الديون ولا أعرف أنني كنت أتأخر عن البيت إلى ما بعد المغرب، فذلك شيء محظور عليَّ، وعندما تأخرت يومًا إلى ما بعد المغرب فلم يحاسبني شعرت أنني أصبحت رجلاً.

أعتبر والدي مربيًا ناجحًا فهو يمتلك قدرة عجيبة على غرس المعاني التي يريدها في نفوس أبنائه، كما أنه قادر على أن يحملهم على ما يريد.

وحرص في هذه الفترة على أمور.

أولاً: أن ينمي عندي الحمية على العرض حتى إذا وجدت وأنا ابن العاشرة واحدة من أخواتي الصغيرات تلعب خارج البيت وكلهن أصغر مني كنت أضربهن تنفيذًا لوصايا الوالد، وكان يقص عليَّ من حوادث السجناء فهذا قتل أخته بسبب فضيحة، وهذا قتل أمه، لقد رباني على أن أهم شيء في الوجود هو المحافظة على العرض والشرف.

ثانيًا: نمى عندي عدم التفكير في المظاهر (الهندام لا قيمة له -اللباس الفاخر لا يساوي شيئًا- العبرة في المخبر) وقد أثر هذا في حياتي ولا يزال يؤثر رغم قناعاتي بعد ذلك أن هذا يخضع للظروف.

ثالثًا: نمى عندي العفة عن أموال الناس، وهذا مهم لما **أنا** فيه فعندما ينزل أهل البساتين فواكههم يزوقونها فإذا ما أكل أحد الناس منها ساءهم ذلك فعودني ألا أمد يدي على شيء، كما غرس في نفسي حفظ الأمانة والعفة عن المال العام وأطلق لي أن أنفق ما أشاء على أي شيء أشاء لكن لابد أن يكون ذلك وفق حساب دقيق، فلابد أن أقدم كشف حساب وأن تكون حساباتي دقيقة، ولقد ضربني أكثر من مرة ضربا مبرحا لأنه وجد الخارج والداخل غير متطابقين على قلة الفوارق، لقد سلمني على صغر سني محاسبة أصحاب البساتين وأن أجمع الديون وأن أنفق على البيت وكان ذلك كبيرًا على صغير في السن مثلي، ومع حرصي اليومي والأسبوعي على مطابقة الوارد للصادر كان يحدث عندي خلل بسبب بعض المصروفات التي لا أسجلها، ومع أن الأموال كثيرة والمعاملات كبيرة، فالفوارق تبقى دائمًا قليلة، ولكن مهما كانت قليلة فذلك يكلفني ضربًا مبرحًا.

مما أتذكره في هذه المرحلة دخول الاشتراكية إلى حينا، وكان رائدها عندنا في حماة أكرم الحوراني.

وحماة بلد متدين وهي على صلة في البادية السورية فهي محتكة بالقبائل العربية ثم هي عريقة في حضارتها فقد تكون من أقدم بلدان العالم ولذلك نجد هذا الاسم يذكر كثيرًا في كتب العهد القديم، وحفريات حماة أوصلت إلى أزمنة سحيقة في القدم.

ليس في حماة يهودي واحد مع أن في حماة قبرا يزعم أنه لداوود عليه السلام، وعندما حدث الفتح الإسلامي لم تقاوم حماة الفتح، وعلى مدى التاريخ الإسلامي كان لحماة وقفات صامدة سواء في الحروب الصليبية أو في مرحلة الاستعمار.

توطنت حماة، عند الفتح الإسلامي القبائل القيسية حتى أصبحت كلمة قيسي ترادف كلمة الحموي، وأشار إلى ذلك الحريري في مقاماته.

الهجرة إلى حماة من القبائل والقرى والبلدان مستمرة لذلك تجد فيها أصولاً عربية وأصولاً أخرى وخاصة الأكراد فبعض أسر حماة الشهيرة أصولها كردية.

استمرت النصرانية في حماة بعد الفتح الإسلامي وفيها أكثر من مذهب مسيحي والصلات بين نصارى حماة ومسلميها قوية، وقد تأصلت في المدينة آداب في التعامل الإسلامي المسيحي، ويضرب نصارى حماة مثلاً رفيعًا على مراعاة مشاعر جيرانهم المسلمين، ويقابل المسلمون الأريحية بمثلها.

ومن هذا كله وجدت لهذه المدينة خصائص وغلب على أهلها طابع وأصبحت هناك أخلاقية واحدة ينصهر فيها كل فرد في المدينة.

فالتدين في البلد ظاهرة لا تتجاهل على تساهل في بعض السلوكيات، والمحافظة على العرض والشرف، والشجاعة والأنفة والنخوة، والتعلق بالأخلاق العربية.

هذه الخصائص العامة جعلت حماة تستعصي على كثير من الأفكار السياسية ولذلك كان تأثر الحمويين بالفكر الشيوعي وبفكر الحزب القومي السوري الاجتماعي ضعيفًا لبعد الأول عن الدين، ولبعد الثاني عن الدين والعروبة.

قبلت حماة فكرة الكتلة الوطنية والتفت حولها لأنها أصبحت رمز الصراع مع الفرنسيين ولكن بعد انتهاء الصراع لم يبق لحماة تعلق بالحزبين الرئيسيين اللذين تمخضت عنهما الكتلة الوطنية: حزب الشعب والحزب الوطني، وإن كان قد بقي لبعض الحمويين تعلق بالشخص الذي ورث الكتلة الوطنية وهو رئيف الملقي نائب حماة وهو ممن كان له تأثيره في بعض المراحل في السياسة السورية من خلال بعض الوزارات التي استلمها.

تأثر أكرم الحوراني في ابتداء حياته بفكر الحزب القومي السوري ثم رفضه وخرج عليه، وتبنى بعد ذلك الفكر القومي المطالب بالعدالة الاجتماعية وانبثق عن ذلك حزب الشباب الذي نادى بمحاربة الظلم المتمثل عندهم بسيطرة الأسر الغنية التي أطلقوا عليها اسم الإقطاعيين، وتمخض ذلك كله عن قيام الحزب العربي الاشتراكي الذي تميز بحركية قوية وبدهاء عريض، فرفع في الأوساط الفقيرة شعارات محببة واستعمل عدداً من الأساليب الناجعة فسيطر على حماة وريفها وامتد نفوذه خارج حماة بقوة كبيرة، وأصبح لزعيمه من الشعبية ما لم يعرف في سورية إلا لعبد الناصر في مرحلة لاحقة.

كان الشعار الذي طرحه هذا الحزب في حينا هو إحياء العدالة العمرية ورفع الظلم ومحاربة الظالمين المعتدين فدخلت الاشتراكية إلى حينا باسم الدين حتى أن صلاة الجماعة كانت تقام في مركز جمعيتهم وكان هناك ظلم يقع على أصناف من الناس في حينا من قبل بعض الأسر ومن قبل بعض ملاك البساتين.

فرفع الحزب شعار الدفاع عن المظلومين وتبنى قضية المزارعين بألا يخرج المزارع من أرضه، وألا يؤخذ منه ما يزيد عن الأجر العادل وجمع أهل الفتوة في الحي لدفع أي اعتداء.

وبعدد من التصرفات الجريئة، وبسبب من قوة الحركة والخدمة سيطر الحزب على حينا -وهو أكبر حي في حماة- سيطرة تامة، وكان لذلك دوره المؤثر على نجاحات الحزب السياسية.

وكان والدي وعمي ممن تحـمسوا لهذا الحزب، وأصبح والدي مع مـجموعة من فتـوة الحي يشكلون قوة ضـاربة ضاغطة للـحزب في الحي كان لهـا دورها في حماية المستضعفين، وفي الوقت نفسه دخلت في مشكلات متعددة.

وفي هذا الجو دخل الصراع مع فرنسا مرحلته الأخيرة وكانت معارك حماة سنة ١٩٤٥ بمثابة جولة الختام التي انتهت بجلاء الفرنسيين عن حماة.

لا زلت أتذكر بقوة تلك الأحـداث ودور والدي الفعال فيهـا وحماية الله له - كمـا ذكرت من قبل- فـقد ألقت طائرة فرنسـية قنبلة أصابت الجـانب الأسفل من جلابية الوالد ولم تجرحـه، وفي آخر معركة بين الحمويـين والفرنسيين رجع الوالد والجزء بين الثـدي والكتف أصفر نتيـجة لدفع البندقية عندمـا تطلق النار وقد ظنه جيرانه في المعركة أنه قد استشهد لانصباب عدد من قنابل المدفعية على المكان الذي يقاتل فيه.

ولا زلت أتذكر دعوات جدتي الحارة وأمرها إياي أن أكرر قراءة آية الكرسي من المصحف وقد حفظتها يومذاك من كثرة تكرارها مع أنني لم أتكلف حفظها.

ولا زلت أتذكر أن المدينة سيطر على أهلها تلاحم عجيب وحب غريب فلم تبق عداوة بين اثنين وضاعت نـغمة أنا اشتراكي وأنت إقطاعي، وهكذا يوحـد الجهاد الناس ضد المحتل إلا عميلاً أو خائنًا.

وأذكر أن الناس يومذاك قـتلوا من تيقنوا أنه جاسوس للعـدو، جلت فرنسا عن سورية وعاد الصراع السياسي إلى حماة، وعاد إلى حينا.

وحدثت حادثة قـتل بها أحد شجعان الحي على يد آخـر من الحي نفسه ولكن ممن يعادون الحـزب العربي الاشتراكي، ودخل على أثر ذلك والدي سـجنه الثالث وإذا بي فجأة مسئول مع عامل عند الوالد عن إدارة أعمال الوالد، وأنا وقتذاك في سن الحادية عشرة.

وبسبب من غيـاب رقابة الوالد قصرت في جمع الـديون وتوسعت في الإنفاق على نفسي وأسرتي وبعض رفاقي فخفت السيولة المالية ظهر ذلك من تقصيري في

الدفع إلى الزبائن، فتدارك الأمر عامل الوالد وهو قريب لنا وأصبح بعد ذلك شريكًا للوالد، وتولى هو بنفسه جمع الديون ومحاسبة أصحاب العلاقة فأنقذ الوضع بسرعة، وبقي العمل قائمًا وجيدًا ولم يؤثر سجن الوالد عليه، ودام سجن الوالد تسعة أشهر ثم خرج من السجن.

نصح بعض الناس والدي وأقنعوه أن يدخلني في مدرسة ليلية لمتابعة دراستي فلعلي أخذ الشهادة الابتدائية، وكما عندنا في حماة مدرسة ليلية تقيمها جمعية سلفية تسمى دار الأنصار فألحقني الوالد بها، ولم يؤثر ذلك على خدمتي إياه واستمراري في متابعة أعماله.

كنت أنا الصغير الوحيد بين الدارسين فالجميع كانوا كبارًا، وكان يغلب عليّ الخجل والخوف فلم أكن أشارك أي مشاركة أثناء الدرس. فكان الزملاء الكبار وبعضهم من أصدقاء الوالد وإن كانوا دونه في السن يعطون الوالد صورة قاتمة عن إمكانياتي، وجاء الامتحان فأديته وإذا بي من الناجحين والزملاء الكبار كانوا في الغالب من الراسبين.

عشقت المطالعة عشقا منطقع النظير على صغر سني -كما ذكرت من قبل- وكان الفضل في ذلك للوالد، فقد دفعني إلى المطالعة بأسلوب غير مباشر، وضع بين يدي وريقات من سيرة عنترة فقرأتها بشغف، أتاني بقصة سيف بن ذي يزن الشعبية فقرأتها بشغف، وكانت هذه البداية التي جعلتني أعشق المطالعة حتى لا أستطيع الصبر عنها فكنت أقرأ وأنا جالس وأنا سائر تعلقت ابتداءً بالروايات البوليسية وبالروايات عامة، فأعطاني هذا قوة في الفهم وقوة في الإنشاء، وكان لذلك دوره في نجاحي في الشهادة الابتدائية رغم انقطاعي عن الدراسة ثلاث سنين.

لكن المطالعة من ناحية وتعب الوالد عليّ في الخط والحساب وتلاوة القرآن الكريم على ذلك ساعدني.

ولتلاوتي للقرآن قصة.

فقد كان عندنا في الحي «شيخة» من قريباتنا كفيفة لكنها تحفظ القرآن وكان بعض أهل الحي يرسلون لها أبناءهم لتعلمهم القرآن، وقد أرسلتني جدتي لذلك، وبسرعة

كبيرة تلوت عليها القرآن من أوله إلى آخره، ويوم ختمت القرآن كان ذلك يوم فرحة وسرور وابتهاج وكانت هناك آداب وعادات تقام عند الشيخة بهذه المناسبة.

وذلك كله قبل أن أدرس الدراسة الابتدائية، لكني بعد ذلك أهملت قراءة القرآن فلما خرج والدي من السجن بعد تغربه أقرأني القرآن فتلعثمت فشدد عليَّ حتى قويت قراءتي، وكان ذلك عاملاً مساعداً.

● في دروس سياسية من المرحلة

كان العامل الحاسم في الصراع ضد الاستعمار هو الروح الدينية، ووحدة الكلمة في المواقف الحاسمة، ولم يكن القائمون على أمر الدين يفطنون بسرعة إلى ما يجب أن تعالج به المشكلات الاجتماعية والاقتصادية.

وكان أكرم الحوراني ومن حوله سباقًا إلى إدراك المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وطرح حلول لها، وتعبئة الناس حولها، وحسن مخاطبة الناس من خلال ما يعرفون ويفهمون.

والعمل السياسي يتطلب البحث عن مصلحة الإنسان والعمل من أجلها، فإذا تخلف القائمون على أمر الدين عن التعرف على مشكلات الناس محاولين حلها وتقدم السياسيون، لذلك تراجع الدين وتقدم العمل السياسي، فإذا كان العمل السياسي غير مترابط في الدين أدى ذلك إلى نشوء صراع مستقبلي بين السياسة والدين، وهذا الذي حصل في سورية، وكانت بدايات ذلك في مرحلة مبكرة، فهذه السنوات التي ذكرتها كان العامل في أحداثها هو ما ذكرته.

وقد نبت الحزب العربي الاشتراكي على أنغام مصالح بعض الناس.

ومن ههنا تأصل عندي أهمية الخدمة العامة، ومراعاة المصلحة العامة، وأن لذلك شرطان لنجاح العمل السياسي الإسلامي.

ومن خلال صلة الوالد بالحزب العربي الاشتراكي في هذه المرحلة رأيت الحركية والتخطيط، فقد كان أعضاء الحزب متحركين حركة هائلة على كل مستوى، وهذا أعطاهم تفوقا سيطروا فيه على حماة من خلال سهرهم على بعضهم وسهرهم على أمنهم، فكان من أفكاري الثابتة فيما بعد أن القيادة يجب أن تكون من خلال الحركة.

ولقد شهدت من مظاهر التخطيط الحزبي في تلك المرحلة كيف أن أعضاء الحزب يقولون للوالد: أن ابنك سعيد هذا يجب أن يدخل في الكلية الحربية على صغر سني.

ولقد رأيت من مظاهر التخطيط الحزبي المدارسات المستمرة التي كانت تعقد عندنا في البيت لدراسة أمر الأصدقاء والخصوم.

كما شهدت طرق التخطيط للسيطرة على الشارع وهي مقولة تقول: (من سيطر على الشارع سيطر على الحكم)، وهذا صادق، ولكن عندما يقتل الشارع كله فكيف تتم السيطرة على الشارع.

ونتيجة لمشاهداتي القليلة في وقت مبكر في حياتى عن أهمية رسم الخطط في الشئون الصغيرة والكبيرة، كان لذلك تأثيره في مستقبل حياتي، إذ أصبحت فيما بعد لا أؤمن بعمل عام لا ينبثق عن خطة محكمة وليس لتنفيذه تخطيط سليم.

إن الإدراك المبكر لعمل حزبي يحقق تطلعات ومصالح ويمتلك فاعلية كبيرة، وخدمات كثيرة، وحسن خطاب، وحسن تخطيط سبقت فيه بعض الأحزاب العلمانية، فلما أراد الإسلاميون أن يفعلوا شيئًا وجدوا قوى داخلية تعاكس، ووجدوا قوى خارجية تخطط ضدهم، وقد تتفق بعض مخططات الداخل مع بعض مخططات الخارج.

والحقيقة أن العمل الحزبي الإسلامي المكاني الإيجابي قد تأخر في ظهوره في سورية ولم تستطيع الأصوات المفردة أو المجموعات القليلة أو الجمعيات المحلية أن يفعل شيئًا كثيرًا ولم تستطع الأحزاب الوطنية الديمقراطية أن تشكل الطموح لدي الشباب ولا الفاعلية ولم تمتلك التخطيط المناسب مع أنها كانت تمتلك أكثرية برعايته فاندحرت أخيرًا.

● في أول دستور لسورية بعد الاستقلال

لم أزل أتذكر خطبة نارية لأحد خطباء الجمعة يتحدث فيها عن الدستور وماذا يريد الإسلاميون فيه، وقد هيج الناس لدرجة أنني وأنا الصغير حدثت نفسي أن عليَّ أن أحقق ذلك.

فقد كان قد تمت انتخابات لهيئة تأسيسية في سورية مهمتها وضع الدستور، وقامت داخل الهيئة التأسيسية معركة هائلة كان لها انعكاساتها على الشعب كله بين تيارين: تيار يقوده الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله وهو التيار الإسلامى الذى كان يطالب بأن يكون دين الدولة الإسلام وأن يكون الإسلام المصدر الأساسى في التشريع، وكان التيار الآخر هو التيار الذى تدعمه قوى خارجية لا يريد ذلك، ولقد أدار الدكتور السباعى وإخوانه المعركة بكل كفاءة.

وأخيرًا تدخل شكرى القوتلى وكان رئيسًا للجمهورية للوصول إلى حل وسط، فجعل التشريع الإسلامى مصدرًا من مصادر التشريع في الدستور وجعل دين رئيس الدولة الإسلام، وجعل هدف التعليم إخراج جيل مؤمن بالله، ووجد الدكتور السباعى نفسه عاجزًا عن تحقيق أكثر من ذلك فقبل به فغضب لذلك علماء البلاد.

ولم يزل الإسلاميون في سورية يصارعون من أجل تعديل دستورى يتضمن تلكما المادتين، ولم يصلوا إلى ذلك بعد حتى كتابة هذه السطور.

ويعتقد الإسلاميون في سورية أن الدستور الأول لسورية لو أضيفت إليه هاتان المادتان لكان دستورًا صالحًا للبقاء، ولكنه بحجة أن في سورية أقليات تستبعد هاتان المادتان مع أنه في زمن فرنسا نفسها سجلت الجريدة الرسمية موقف كل نصارى سورية في البرلمان، وكانوا جميعًا موافقين على أن يكون دين الدولة الإسلام، والإسلاسيون يعلقون أهمية كبيرة على إدخال هاتين المادتين، لأن إدخالهما في الدستور إذا لم يوجد ناقض لهما بمثابة إعلان الإنسان الشهادتين، فهما ينفعانه ولو كان فاسقًا.

وإدخال هاتين المادتين في الدستور ينقل الحكم من دائرة الكفر البواح إلى غيره، ولكن الكتابات الكثيرة التي ظهرت عن الفكر الغربى وعن رجالاته المرتبطين به في سورية تدل على أن هناك اتفاقا بين كثير من الدوائر على أن تبقى سورية دولة علمانية، وأن يساعد العلمانيون ضد الإسلاميين ولا زال الإسلاميون مغلوبين على أمرهم، مع أن أى تصويت حر في سورية سيكون لصالح تلك المادتين.

وأن كثيرًا من الشواهد لتدل على ذلك، ويكفي أن نعرف أنه في أشد الظروف قسوة عندما صوت على ما سمى بالدستور الدائم سنة ١٩٧٣ صوت أكثر من خمسين بالمئة من بعض القطاعات العسكرية ضد الدستور الحالي لأنه لا توجد فيه هاتان المادتان.

إنه لابد أن يأتي يوم تقتنع به القوى الكبرى أن عليها ألا تحارب الإسلام في بلاده.

صحيح أن هذه الحرب مستمرة وهي تعلل للكثير مما يجري، ولكن سيستطيع المسلمون إيقافه بإذن الله.

● في حرب فلسطين

شهدت في أخريات هذه المرحلة الحماس الشديد الذي استقبل به الشعب السوري فكرة الاستيلاء على فلسطين وطرد اليهود منها، فقد شهدت بعض الخطب والهياج الشعبي وتطوع الناس في جيش إنقاذ فلسطين، وكنت أتابع الأخبار عن كثب، وأسمع نشرات الأخبار التي تتحدث عن سير المعارك على أرض فلسطين، كنت أعرف بعض من تطوع للجهاد في فلسطين وكان بعضهم أصدقاء للوالد، فكانوا إذا رجعوا في إجازة أسمع منهم ما يجري هناك، وأسمع منهم عن البطولات الهائلة لبعض المتطوعين، وعرفت عن قرب قصص جيش الإنقاذ والعثرات التي كانت تعترض سبيله، وكان ممن تطوع في جيش الإنقاذ عدد من زعماء الأحزاب والعسكريين، وكان مصطفى السباعي رحمه الله، وأكرم الحوراني، وأديب الشيشكلي، وعبد الحميد السراج بعض من تطوع في جيش الإنقاذ، وكان على رأس هذا الجيش مجاهد قديم معروف هو فوزي القاوقجي، وانتهت هذه الحرب بالهدنة، وعاد الناس إلى أوطانهم وكانت هذه الحرب علامة على أن إرادة الشعوب الصغيرة محكومة بإرادة الشعوب الأقوى.

فقد دخلت الجيوش العربية حرب فلسطين وأكثر البلدان العربية لا زال مستعمرًا، والبلاد التي تحررت حديثًا كسورية لم تكن قد وقفت على رجليها بعد،

لقد كان التفوق العسكري والسياسي لصالح اليهود بنسبة هي أكبر بكثير مما حاولت الشعوب أن تصوره، ومع ذلك فقد ظهرت بطولات هائلة سجلها المتدينون فاستطاع الإسلاميون بقيادة الدكتور السباعي -رحمه الله- أن يحافظوا على القدس القديمة، واستطاع الإسلاميون أن يقهروا اليهود في معارك عديدة، ونحن نعتقد أن حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ كان لها أثران كبيران في السياسات الصهيونية والصليبية والعالمية، وقد استخلص هؤلاء منها العبر وكان من أعظم آثارها السياسية على المنطقة:

١- الحرب العنيفة ضد الحركة الإسلامية وإعطاء ذلك أولوية، وقد خدم هذا الاتجاهات السياسية الأخرى وقد ظهر بجلاء أن الروح المعنوية الهائلة التي يمكن أن يفجرها الإسلام تحول دون تحقيق المخططات.

٢- ظهور فكرة الانقلاب كوسيلة يفرض بها على الشعوب ما لا يمكن فرضه بالوسائل الأخرى، ومن ثم لم تكن كارثة المسلمين في فلسطين كارثة محلية، بل تعدت فلسطين لتؤثر على وضع الأمة الإسلامية كلها، ومن ههنا كان حل المشكلة الفلسطينية منوطا إلى حد كبير بوضع الإسلام والمسلمين في العالم.

● في الانقلاب

شهدت في أواخر هذه المرحلة انقلاب حسني الزعيم والانقلاب عليه، وكانت أول مرة نسمع بها بفكرة الانقلاب، وقد يكون هذا الانقلاب الأول في العالم الإسلامي، وقد أصبحت أسرار انقلاب حسني الزعيم معروفة إلى حد كبير فقد أعلنت المخابرات الأمريكية -في أكثر من كتاب- أنها كانت وراء الانقلاب.

وهكذا اغتيلت أول تجربة ديمقراطية في سورية بعد الاستقلال.

ومن العجيب أن كثيراً من الغوغاء استقبلوا إعدام الديمقراطية في سورية واستقبلوا فكرة الانقلاب بحماس زائد، وكان قليلون من الناس يعرفون ماذا وراء ذلك من أخطار.

كان الانقلاب هو الحل لقضايا سريعة، فقد سلمت مستعمرة مشمار هايردن لليهود ووقع اتفاق مد خطوط أنابيب التابلاين كما أرادتها الشركة الأمريكية. وألغيت مجلة الأحكام العدلية وهي القانون المدني الإسلامي لسورية ليحل محلها القانون المدني الفرنسي المترجم وهو شيء لم تفعله فرنسا نفسها، ولكن التدميس الذي طرأ على سورية نتيجة لفكرة الانقلاب كان أخطر في ذلك كله. فلقد كانت سورية تمتلك روحا وطنية عارمة.

وكانت تؤمن بالوحدة العربية حتى أن كثيرين كانوا يعتبرونها بروسيا العرب، وكانت سورية تمتلك اقتصادًا قويًا وعقولاً اقتصادية تستطيع أن تنهض بسورية وبالعالمين العربي والإسلامي.

وكانت سورية تمتلك جيشًا ذا شعور قوي بالكرامة وكان جيشها مؤهلا لأن يطور قوته، وأهم من ذلك كله أن الروح الإسلامية في سورية كانت تتنامى بقوة هائلة، فأريد تحطيم ذلك كله ولم يكن ذلك متاحًا من خلال التجربة الديمقراطية، فكانت الانقلابات هي الوسيلة لذلك كله وكان أول هذه الانقلابات انقلاب حسني الزعيم.

صحيح أن الديمقراطية الناشئة في سورية كان لها عيوبها، وكان للقائمين عليها عيوب، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن إمكانية تطوير الديمقراطية في سورية كانت موجودة، ولكن من كان عليه أن يحمي الديمقراطية كان أول الخائنين لها.

وتوالت الانقلابات على سورية فنقلها هذا من ضعف إلى ضعف.

وقد صارعنا ولازلنا نصارع من أجل إيجاد وضع نموذجي في سورية يرتاح به جميع المواطنين.

***

الباب الثاني

من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة

(١٩٤٨-١٩٥٢م)

كانت هذه المرحلة على قصرها وعلى صغري فيها أغنى مراحل حياتي في المطالعة على كثرة مطالعاتي فيما بعد، فقد طالعت في هذه المرحلة كتبًا عالمية كثيرة وقرأت عن شخصيات عالمية كثيرة.

لقد لخصت كتاب أرسطو «الأخلاق إلى نيقوماخاس» وهو كتاب ضخم وأنا في الثالث الإعدادي وقرأت عن شوبنهور وأفلاطون ونيتشة، وهي سلسلة كان يصدرها عبد الرحمن بدوي، وعن الثورة الفرنسية ونابليون، وفي التصوف، وفي الأخلاق، وسلسلة جرجي زيدان القصصية التأريخية. كانت هناك مكتبة كبيرة عامة في مسجد يسمى مسجد المدفن في حماة وكانت تفتح أبوابها يوميًا بعد العصر ما عدا يوم الجمعة.

وكان منظر الصغير الذي يلبس جلابية سوداء ويحلق رأسه ويجلس يوميًا فيها يلفت النظر، كما أن نوع الكتب التي يطلبها تلفت النظر فهو كثير النظر في الإحياء، ويطلب كل كتاب غريب لينظر فيه بما في ذلك كتاب «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلي، كنت أقرأ ولو لم أفهم، وأقرأ بسرعة كبيرة كان معدل قراءتي في الساعة ستين صفحة، وقد أعطتني هذه المطالعة قوة على الكتابة الإنشائية تتجاوز سني كما أعطتني القدرة على الاستيعاب السريع وعلى استيعاب الفكرة الكلية بسرعة، وكان لهذا تأثيره على كل ما كتبت فيما بعد.

انتسبت في هذه المرحلة للمدارس الإعدادية، فانتسبت ابتداءً لثانوية ابن رشد ثم انتقلت لفرع إعدادية أبي الفداء في السنة الأولى ثم عدت إلى ثانوية ابن رشد لأقضي فيها السنتين الثانية والثالثة إعدادي.

نجحت في السنوات الثلاث، لم أكن ألفت نظر أساتذتي إلا بقدرتي الكتابية، كان بعض المدرسين يقرأ لزملائه ما أكتب فيعجبون.

كان الصراع الحزبي على أشده في الحياة الطلابية، كانت هناك أحزاب ثلاثة يحس بها الطالب: الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري والحزب العربي الاشتراكي وكان الحزب الاشتراكي هو المسيطر على ثانوية ابن رشد وكان الاشتراكيون يعتبرونني منهم بحكم النشأة، لكنني كنت حريصًا أن أعرف كل شيء.

دعاني أحد طلاب صفنا -وهو مسيحي- أن أحضر لقاءً مع بعض الشيوعيين فحضرت، أعطوني نشرات، تكلموا في أسلوب الدعوة إلى الشيوعية، تحدثوا عن الشعور واللاشعور وكيف أن الشعور ابتداءً يرفض الجديد الغريب لكن الكلام عنه يستقر في اللاشعور، وشيئًا فشيئًا يتحول اللاشعور إلى شعور فيقبل الناس الفكرة الجديدة الغريبة، لا أتذكر أنني حضرت أكثر من جلستين ثم لم أتابع.

دعاني الشيوعيون مرة للمشاركة في مظاهرة ضد أديب الشيشكلي لكن المظاهرة لم تتم.

كنت أسمع باسم الإخوان المسلمين، سألت مرة أحد المتدينين عن الإخوان المسلمين فتظاهر أنه لا يعرفهم (لكني بعد أن دخلت في الإخوان عرفت أنه منهم).

كنت أصلي وأصوم بحكم النشأة.

وكانت قراءاتي في الإحياء تدعوني إلى نوع من التقشف الشديد لكن كان أهم المؤثرات في تديني أن الشيخ محمد الحامد كان هو مدرس التربية في ثانوية ابن رشد، وهذا أوصلني إلى حلقته العلمية في جامع السلطان وكانت ابتداءً حلقة صغيرة يحضرها كبار السن وبعض الشباب وكنت واحدًا منهم وكان لهذه التلمذة أكبر الأثر في حياتي.

كان الشاب الناشيء يتعجب كيف يعيش الناس دون هدف كبير يسعون لتحقيقه، وكيف ينصرفون عما يورث الأمجاد، وكان يعجب كيف يعجز الناس عن التغلب على أي مشكلة تعترض سبيلهم.

كانت هذه بعض أحاديث النفس في تلك المرحلة المبكرة.

لم أنقطع عن العمل مع والدي في سوق الخضار في مهنته كبائع جملة.

أصبح لي عدد من الإخوة والإخوات.

لازلت أتذكر أنه أصبح على الوالد ديون في تلك الفترة فقررت ألا نطبخ في بيتنا أي طعام مشتري حتي نفي ديوننا ووافقني الوالد والأهل وفعلاً لم ندخل بيتنا شيئًا يذكر حتي تم سداد الدين، وكان الدين شديد الوطأة عليَّ منذ صغري، ولقد كبرت ولا زلت أستصعب الدين وندر إلا لضرورات قاهرة أن استدنت.

***

الباب الثالث

من الثامنة عشرة حتى العشرين

(١٩٥٢-١٩٥٥م)

المرحلة الثانوية

في هذه الفترة دخل في عملي الحياتي مهنة أخرى وهي الزراعة وهكذا أصبحت أشارك في عملين حياتيين مع الوالد: حرفته في سوق.الهال أى في سوق البيع بالجملة، وحرفته في الزراعة، فقد ارتفع سعر القطن في سورية ارتفاعًا أغري الكثيرين بالزراعة عامة وبزراعة القطن خاصة، وقد علل الناس بعد هبوط أسعار القطن فيما بعد لارتفاع الأسعار تعليلات اقتصادية سياسية، المهم أن الوالد اندفع في هذا الموضوع واستأجر أرضًا قريبة من حماة تصل إليها ماء ساقية الري الممتدة بين حماة وحمص، وشاركت في العمل على مدى سنتين وكان لذلك فائدته الكبيرة.

بقيت مطالعتي في هذه المرحلة كثيرة، ولكن المعلم الضخم في حياتي هو دخولي في الإخوان المسلمين أواخر العام الدراسي وأنا في الصف الأول الثانوي.

كان ذلك انقلابًا هائلاً في حياتي فمع أنني من بيئة متدينة وكنت أحضر دروس الشيخ محمد الحامد لكن دخولي في الإخوان المسلمين كان في الحقيقة نوعًا من العثور على «الأنا الجماعي» لنفسي ولذلك فقد دخلت مباشرة في اضطراب قلبي هو الأول من نوعه في حياتي فقد انصبت على قلبي وساوس كثيرة بعد أن حددت وجهتي نحو الله جل جلاله ثم نحو العمل من أجله ومن خلال ربط المصير بالعاملين للإسلام ومن أجل أمة إسلامية تؤدي دورًا راشدًا في العالم، هذه المعاني جعلت قلبي يفكر في أصل الإيمان، أصبحت أثناءها كثير التأمل مستغرق الهم

والتفكير في ليلي ونهاري وذهابي وإيابي وممشاي وجلوسي، وكنت كثيرًا ما أفتح القرآن وأتأمله، وأتطلع إلى السماء وأفكر فيها، وأدعو الله وأتضرع إليه أن يكشف عني هذه الحالة، ولم ألبث كثيرًا إلا وانقشعت عني هذه الحالة، لكنها تكررت مرة ثانية عندما استغرقت في التصوف كما سأذكر فيما بعد، وقد عرفت فيما بعد معنى هذه الحالة ومحلها في الارتقاء والنقصان.

جرت عادة الإخوان المسلمين أن يدخلوا العضو الجديد في أسرة يتلقى فيها التعليم والتوجيه، وكان موجهي الرئيسي في تلك الفترة هو الأستاذ مصطفى الصيرفي أبرز شخصيات الإخوان المسلمين وقتذاك في حماة، وهو أحد ثلاثة كانوا يعتبرون وقتذاك أقوى الإخوان المسلمين ثقافيًا ودعويًا، وكان شباب الإخوان ينظرون إليهم على أنهم زعماء الحركة بصرف النظر عن محلهم في سلم الإداريات، هؤلاء الثلاثة هم الأستاذ مصطفى الصيرفي والدكتور عبد الكريم عثمان وعدنان سعد الدين، كان الثلاثة محدثين ومحاضرين وخطباء من الدرجة الأولى مع نضج في الفكر السياسي والحركي.

وتأكدت تلمذتي على الشيخ محمد الحامد في هذه المرحلة وأصبحت أشعر أكثر من ذي قبل أنني تربطني به رابطة روحية قوية لدرجة أنه كان عندي استعداد لأن أفتديه بحياتي وقلما أحسست مثل هذا الإحساس مع أحد غيره، وكان لتلمذتي على الشيخ آثار كبيرة في نفسي، فقد نما حبي للفقهاء وللعلماء، وزاد تمسكي بالحكم الشرعي وبالنصوص لدرجة أني انقطعت عن زيارة شخصية محببة لنفسي من كبار الإخوان وقتذاك لأنه يتبنى آراء شاذة في شأن المسيح -عليه السلام- وفي شأن الدجال.

اندفعت أنا ومجموعة من الإخوان نحو الثقافة الإسلامية المتوارثة فأخذنا علم ترتيل القرآن عن الشيخ سعيد العبد الله وتعاقدت مع أكثر من مقريء في البلد من أجل حفظ القرآن ومدارسته أخص بالذكر الشيخ محمد القواس والشيخ قدور الموسي والشيخ إبراهيم الشراباتي والشيخ أحمد الحامد رحمهم الله وعندما أنهيت الدراسة الثانوية كنت أحفظ أكثر القرآن الكريم.

وفي هذه المرحلة وقع في قلبي أصل النظرية التي بنيت عليها تفسيري فيما بعد والمتعلقة بالوحدة القرآنية.

ومن ابتداء دخولي في الإخوان ظهرت عندي ملامح ملكة خطابية في أكثر من مناسبة أما في خطبي في المظاهرات الطلابية أو في خطب دعوية في المساجد في الريف أو في المدينة.

تدرجت في العمل الإخواني من عضو أسرة إلى نقيب أسرة ونائب عن مسئول في ثانوية ابن رشد وهي أكبر ثانوية في البلد إلى أن أصبحت مسئولاً عن الطلاب في مدينة حماة.

كانت فكرة الجهاد والسلاح تستهوينا، وكانت قيادة الجماعة في حماة تخشى من هذا التوجه، ومع ذلك فقد اعتمدنا على إذن ضعيف وأوجدنا تشكيلاً مسلحًا، ولقد قام هذا التشكيل بتعطيل أكثر من حفلة غنائية راقصة وكان لذلك أثره في بقاء حماة معافاة من المراقص والملاهي إلى فترة طويلة.

ولقد أخذنا في أجواء هذا التشكيل شيئًا من التدريب لا بأس به.

وفجأة حاول بعض أفراد التشكيل أن يرجح كفة بعض القياديين على بعض مما لم ينشأ التشكيل من أجله فأحبطت الفكرة وانتهى التشكيل، كان عقلي الإخواني يرفض مثل هذه التوجيهات داخل الجماعة، كان لي دور رئيسي -في تلك المرحلة- في ثلاث مظاهرات طلابية: مظاهرة بمناسبة دعوة الإخوان المسلمين إلى إدخال نظام الفتوة في المدارس الثانوية وقد نجحت الفكرة، ومظاهرة بمناسبة إعدام قادة الإخوان المسلمين في مصر، ومظاهرة احتجاجية على وعد بلفور وكنت المتحدث الرسمي في هذه المظاهرات عن الإخوان المسلمين.

كان حينا حي العليليات في حماة هو أكبر أحيائها، وكان قلعة حصينة للاشتراكيين من أتباع أكرم الحوراني وقد قتل أكثر من إنسان في حينا حتى تمت السيطرة على الحي لهذا الحزب، لذلك كانت غضبة الحزبيين كبيرة لدخول الإخوان المسلمين إلى حينا عن طريقي، وقد عرض عليَّ أكثر من عرض لترك الإخوان

المسلمين والمساهمة في تشكيل جناح متدين في الحزب، وعقدوا مرة اجتماعًا دعوني إليه مع والدي من أجل ترك الإخوان فكان كلامي شديدًا: إنني ما دمت على الحق فلن يثنيني عن موقفي شيء، ثم خرجت مغضبًا ولولا مراعاتهم لوالدي وأسرتي لكان وضعي في غاية الخطورة ولكن الله سلم..

كان الصراع الحزبي داخل المدارس على أشده وكانت سيطرة الاشتراكيين على المدارس والطبقة المثقفة كاملة، وكانت مفاجأة لهم أن ظهرت قوة أخرى هي قوة الإخوان المسلمين التي اكتشفوها لأول مرة يوم سقوط أديب الشيشكلي فقد ظهرنا يومها كأقوى قوة طلابية واستطعنا أن نحتفظ بهذا التفوق فيما بعد.

كان ذلك شيئًا كبيرًا وعجيبًا فقد انتهى التدين من صفوف الطلاب حتى أن الجيل الذي سبقنا في ثانوية ابن رشد حدثنا أنه لم يكن في ثانوية ابن رشد من بين ألف طالب إلا طالبان يصليان مستخفيين، لكن الوضع قد تغير فمن صف الرياضيات من طلاب الشهادة الثانوية كان هناك سبعة وعشرون ينتسبون للإخوان من أصل واحد وثلاثين طالبًا في ثانوية أبي الفداء، لذلك حاول الاشتراكيون أكثر من مرة أن يصادمونا لعلهم يوقفون هذا المد عن طريق الإرهاب محتمين بالسلطة التي كانوا أصحاب نفوذ فيها لكن ذلك كله لم يفد.

كان شيخنا الشيخ محمد الحامد يبين لنا خطورة المستقبل ويذكران حزب البعث بقيادة ميشيل عفلق تغلغل في وزارة التربية وسيطر على الحياة الثقافية، وإن أكرم الحوراني وحزبه تغلغل في الجيش وسيطر على الحياة العسكرية، وكان يطالبنا بالتوجه نحو الجيش لكنا لم نكن على مستوى العمل السياسي وقتذاك. كان الحماس هو زادنا الوحيد، بينما كان أكرم الحوراني يعمل بحس سياسي مرهف ندر من امتلكه في سورية، وكانت بقية الأحزاب تتضاءل أمامه لفقدانها الحس التنظيمي والقدرة على مخاطبة الجماهير واستقطاب الأجيال الجديدة، ومع أن الأجيال الانتخابية كانت يسيطر عليها حزبا الشعب والوطن ولكن هذه الأحزاب كانت تمتلك الحاضر فقط، ومن يومها فقدت المستقبل.

لم نستطع أن ندخل الجيش لأن الاشتراكيين أمسكوا بمفاتيح الدخول إلى الكليات العسكرية وكانوا يستبعدون أصنافًا من الناس وخاصة أبناء الأسر المتدينة أو المتدينين أو أبناء الأسر الغنية ولا يخلو أن تمر بعض الأسماء إما ذرا للرماد في العيون وإما لنوع من التقييم خاص، أو لتدخل جهات ما أو مراعاة للحياة الديمقراطية أو تطمينًا لبعض الجهات، المهم أننا لم ندخل الجيش مع أنه كان حلمًا لنا في يوم من الأيام، ولقد رأيت رؤيا يومها وجهتني لدراسة الشريعة. وكانت تلك هي رغبتي.

كان حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي قبل اندماجهما يراهنان على الأقليات الدينية والطائفية، وكان المفروض أن نقابل ذلك بالعمل في الأقليات العرقية المسلمة كالأكراد والشركس. وقد غلطنا إذ لم نفعل وغلط الحزبان إذ فعلا لأنهما ضربا من حيث أرادا النصرة.

استهوتني بعد أن دخلت الإخوان فكرة التفرغ للدراسة الإسلامية البحتة ووجدت مسابقة لانتقاء المعلمين للتعليم الابتدائي فشاركت بها حالمًا بما ذكرت، وقد نجحت في المسابقة وعينت في مدينة الحسكة فأخذت مجموعة من الكتب وتوجهت إلى هناك، عينت في قرية تابعة لتل كوجل في أراضي قبيلة شمر ووصلت إلى تل كوجك وسألت عن الطريق إلى القرية فوجدت واحدًا من أبناء دهام الهادي شيخ شمر فأخذني معه حتى أوصلني إلى القرية وعلى الطريق اصطاد أرنبًا وقف جامدًا أمام أنوار السيارة فأطلق عليه النار، وفي هذه الفترة التي قضيتها مع هذا الأمير لحظت أنه يصدر أوامره إلى أصحابه ويكتفي بذلك، ورأيتهم يختلفون مع بعضهم في تنفيذ الأمر ولكنه لا يتدخل ما دامت أوامره نافذة فشعرت باحترام له بسبب ذلك.

وصلت إلى القرية ليلاً، نمت في بيت المختار، دللت صباحًا على المدرسة، جاء الطلاب ودرستهم وبعد الظهر فكرت في شأني، ووجدت أن ما أنا فيه ليس هو وظيفتي في الحياة، وحزمت أغراضي مباشرة ورجعت إلى حماة، كانت مفاجأة للوالد لكنه لم يعلق عليها، عدت إلى ثانويتي للدراسة وللعمل الإسلامي في صفوف الطلاب.

كان قلمي سيالا في هذه المرحلة وكانت قدرتي على نظم الشعر جيدة حتى أنني نظمت قصيدة حوالي خمسين بيتًا في يوم أو يومين.

أثناء اختبار الشهادة الثانوية كتبت في موضوع الإنشاء صفحات كثيرة لفتت أنظار المراقبين.

حصلت على الشهادة الثانوية من غير تفوق فقد كان عملي الإخواني ومطالعاتى الخاصة وانشغالي مع والدي في سوق المال وفي المزرعة لا يعطى فرصًا لنجاح متفوق، توجهت بعد نجاحي في الثانوية نحو الجيش ثم انسحبت من المسابقة بسبب أن أنواعًا من الكشف لم ترق لي، توجهت بعد ذلك لكلية الشريعة في دمشق وكان ذلك بعد تأسيسها وافتتاحها بعام واحد، حضرت خلال ذلك محاضرة للدكتور السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية ألقاها في مدرج جامعة دمشق كانت رائعة شعرت أثناءها وكأني منوم مغناطيسيا.

زرت الشيخ محمد الهاشمي -الجزائري الأصل- وهو شيخ الطريقة الدرقاوية في دمشق، وأحد أقدر المتكلمين في العقائد، أسرني علمه وحاله، أخذت منه ورد الطريقة الدرقاوية وهو ورد مأثور قد ذكره الأستاذ البنا في آخر رسالة المأثورات تحت عنوان «ورد الدعاء» وهو استغفار وصلاة على رسول الله ﷺ ولا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

ذكرت للشيخ أن شيخنا الشيخ محمد الحامد يوصينا بالذكر على الطريقة النقشبندية ويحضنا على التلمذة على شيخ إبراهيم الغلاييني فشجعني الشيخ على ذلك، وهكذا خرجت إلى «قطنا» من أجل مفتيها ومرشدها فلم أجده، قيل لنا أنه في قرية أخرى، توجهنا إلى هذه القرية مع من معي سيرًا على الأقدام فعثرنا عليه، أخذنا منه الطريق وأوصاني بالعزلة، وكان هذا خلاف رأي الشيخ محمد الحامد الذي كان يشجعني على العمل مع الإخوان المسلمين، كان ذلك في الصيف الذى أخذت فيه شهادة الثانوية.

غلب على قلبي حب الشيخ الهاشمي وتعلق قلبي به فكان هو والشيخ محمد الحامد أكثر اثنين تأثيرًا في حياتي.

كنت طالب حق حريصًا عليه تواقًا إلى المعرفة أبحث عما هو الأكثر رضا لله لا يهمني ما سوى ذلك.

لقد حدث انقلاب هائل في حياتي فبعد أن كان زملائي الطلاب يرونني عاكفًا على كتب الفلسفة أحفظ أشعار المعري وأماحك المتدينين أصبحت وليس لي هم سوى الله عز وجل.

كان مجموع ما أخذته في أسر الإخوان المسلمين بعض آيات قرآنية حفظًا وتفسيرًا وقد كلفنا مرة بدراسة إحدى الرسائل الثلاث وكلفنا مرة بحفظ رسالة الوظيفة الكبرى ولم يتابع ذلك.

وكان شيخنا محمد الحامد يؤكد علينا: أيها الإخوان عليكم بالعلم، ولم يكن واضحًا لدينا ماذا تعني كلمة العلم إلا أننا كنا نحضر دروسه وطالبناه بأن يقيم لنا درسًا في مركز الإخوان المسلمين فأقام درسًا للتفقه، وطالبناه مرة أن يكون الشيخ هو رئيس الإخوان فاهتمت قيادة مركز حماة لهذا الطلب ثم لم يكن شيء.

وتحت تأثيرات فكرة الجهاد فكرنا كشباب في السلاح واشترينا بعض أنواعه وفكرنا في التدريب والمعسكرات وكان هناك أحد الإخوة المصريين من الجهاز الخاص قد استقر في حماة فحصلنا على شيء بسيط من التدريب وأقمنا أكثر من معسكر تدريبي، كنا نفكر فيما ينبغي فعله ولكن في إطار ضيق وكانت الصراعات الحزبية في سورية على أشدها.

كانت الثورة المصرية في هذه المرحلة قائمة وكنا نتابع أنباء الصراع في مصر وسقط أديب الشيشكلي في سورية، وكانت عواطفنا السياسية تخضع للعفوية لكني بينت أهمية التركيب النفسي الذي يحدثه الانتماء لحزب أو جماعة فمجرد الانتماء الصادق يجعل عواطف الإنسان محددة مع حزبه.

كان التنافس الإداري داخل الإخوان شديدا وكان هذا التنافس يقذف إلى مدة رئاسة الجماعة بمرشحي الوسط ولقد وصل إلى رئاسة الإخوان في حماة في تلك المرحلة من لا يعتبر هو الأنضج إسلاميا وإخوانيا بسبب ذلك وقد أصبح فيما بعد من كبار الناصريين.

كان الإخوان المسلمون أقوى الفئات طلابيا بسبب تحرك الإخوة وأصبحت لهم قوة شعبية لا بأس بها بسبب دروس الأستاذ مصطفى الصيرفي في جامع المسعود في حماة.

اصطدمنا أكثر من مرة مع جماعة أكرم الحوراني واستعملت أحيانا الأسواط والعصى وأطلقت النار أحيانا.

أنهينا كل محاولة لإدخال المراقص والتياترات إلى حماة عبر عدد من العمليات الجريئة.

كان لهذه المرحلة آثارها الكبيرة على تفكيري فيما بعد..

ففكرة الربط بين الثقافة والخصائص والالتزام وبين العضوية كانت محصلة لرؤيتنا القصور في هذه المرحلة.

وفكرة أن التقدم في الجماعة منوط بذلك وأن نوعا من الأعضاء المنصهرين في الجماعة هم الذين ينبغي أن يمتلكوا حق الانتخاب كانت أثرا من هذه التجربة، وفكرة أنه لا قيمة لأي تجمع إذا لم تكن على رأسه قيادة بصيرة تستوعب ساحة العمل وتعرف كيف تسير نحو الهدف هي أثر البداية التي بدأت فيها انتسابي إلى الإخوان.

وفكرة ملء الفراغ الروحي لدي الأخ كانت أثرًا عن هذه المرحلة.

وفكرة العودة إلى المسجد والانطلاق منه كانت أثرا عن هذه المرحلة.

وكان من آثار ذلك كله أنني تطلعت للتلمذة على شيوخ الصوفية والتلمذة على العلماء والفقهاء والانتساب لكلية الشريعة.

ومع أن شيخنا الشيخ محمد الحامد كان ممن اجتمع له الذكر والعلم والورع والدعوة وكان أرقى الناس -فيما علمنا- روحيا وعلميا ومع ذلك فلقد كان يدفعنا نحو التلقي من العلماء والأولياء، ولذلك ما أن نجحنا في الثانوية العامة وذهبنا إلى دمشق إلا وبحثنا عن أهل الذكر والعلم لنأخذ منهم وقد أدخلنا ذلك في دائرة القلق والحيرة والاضطراب والتأمل العميق في موضوع العمل الإسلامي.

لقد كان إنجازنا مع زملائنا في العمل الإسلامي لهذه المرحلة ضخما ولقد دخلنا في صراع مع الأحزاب الأخرى على كل طالب تقريبا، فما من طالب إلا أدخلناه في دائرة دراستنا ومحاولتنا كسبه، وربحنا معركة الطلاب، وتحركنا مع بعض الإخوة نحو ريف حماة وكان لذلك آثاره الضعيفة، وتحركنا نحو العامة نوع حركة وكان لذلك آثاره، لكن هذا كله لم يكن يستند إلى نظرية ثقافية أو تربوية أو تنظيمية أو سياسية تكافيء المطلوب لأوضاع سورية وقتذاك، لذلك -و كما سنرى فيما بعد- تلقي الإخوان المسلمون في الغالب في حماة قرار الجماعة بحل نفسها في سورية بمناسبة الوحدة بارتياح.

وإذا سجلنا على الجماعة فقدانها النظرية الكلية الشاملة ومحاولتها البناء على ضوء ذلك، فإننا نسجل للجماعة أنها ما كانت تجد طريقا متاحا تخدم فيه إلا وحاولته فقد أنشأت الجماعة في حماة وكذلك في سورية نوادي رياضية وكشفية وأقامت الاحتفالات بالمناسبات وأقامت الدروس والمحاضرات، واعتمدت مبدأ الأسر للتربية على ضعف في ذلك، وأنشأت مدارس ومعاهد للطلاب وحاولت إيجاد مستوصفات والقيام بالخدمات ولكنها لم تكن تمتلك وسائل كثيرة.

وكان الدكتور السباعي رحمه الله تحترق أعصابه ويحاول أن يرتقي في الجماعة ولكن الأعوان الأكفياء كانوا قلة، وكانت الجماعة خارجة من انقسام خطير وانشقاق كبير، ولا غرابة فإن أصوات النقد كانت تلقي آذانا صاغية لكثرة الثغر والمناخ مساعد والأجواء الخارجية ضاغطة، والتركيب التنظيمي للجماعة هش والمنتسبون للجماعة أخلاط، والجماعة ليست قادرة على صهرهم، وككل انشقاق

حدث في الإخـوان في سورية فـإن الانشقاق يبـدأ بالاعتراض علـى المراقب العام وكان وقتذاك هو الدكتور مصـطفى السباعي الذي اضطرته ظروف سورية في عهد أديب الشيشكلي للخـروج من سورية فبدأت الحركة المعاكـسة بالدعوة إلى التطوير ثم في الدعوة إلى التغيير ثم كان الانقسام الذي نجا مِنه مركز حماة.

ومن ذكريات هذه المرحلة: مشاركتي في المخيمات الإخوانية..

فلقد كان الإخوان المسلمون في الأحـوال العادية وحيثما يتيسر يقيـمون مخيما سنويا عاما في سورية يضم كل الراغبين في المشاركة من إخوان سورية وكانت مثل هذه المخيمات تؤدي أدوارًا متعـددة فهي تساعد على إيجاد أجواء من المودة والحب بين أبناء المحافظات كما أنها تفتح آفـاق المشاركين وتعودهم على النظام والانضباط والالتزام الإسـلامي ولقد شـاركت في مخـيم من هذه المخيـمات أقـيم في حلب اجتـمع فيه تدريب كـشفي ومحـاضرات ودروس وتفتـيش على التدريب وزيارات لكبار الإخوان وصلوات جـماعة ومسابقات شـعرية وأمسيات طيبـة، وقد حرمت سورية والكثيـر من البلدان العربية من مثل هذه النشاطـات، لكن هذا التقليد بقي قائما في بلاد الغرب حيث يوجد قدر من الحرية فلا زال أبناء الحركة الإسلامية في أوروبا وأمريكا يقيمون المؤتمرات السنوية أو الموسمية ويترتب على ذلك خير كثير.

ومع المخيـمات العامـة لسورية كلها كـانت هناك المخيـمات المحلية وقـد أقمنا مخيمين لبـعض الإخوة في ضواحي حماة أشرف عليهمـا أحد الإخوة المصريين، اجتـمع فيهمـا العلم والتدريب الشاق والاخـشيشان والتـقشف وكنا نستشـعر لذة وبهجة ومتعة لا حدود لها في أجواء المحبة والإخوة.

ولقد خيمنا مرة في مكان جبلي صخري مـتشابه البقاع فضاع أحد الإخوة وكم بحثنا عنه فلم نفلح حتى جاءنا في اليوم الثاني فكانت فرحتنا لا تحد بعد أن خشينا عليه فأخذنا من ذلك درسا تعلمنا منه كيف نفعل إذا صادفنا مثل ذلك.

ومن ذكرياتى لهذه المرحلة، أن الإخوان المسلمين في رمضان كانوا يطوفون على مساجد المدينة مسـجـدا بعد مسجد فيلقون فيه المحاضـرات فكان يجتمع لهم تذكير لإخوانهم ودعوة للناس.

ومن ذكرياتي لهذه المرحلة، أننا نخرج خارج المدينة بمسيرات يجتمع فيها النزهة مع الرياضة مع التدريب على الحياة الأخوية المشتركة وأذكر أنه في رحلة من هذه الرحلات أصاب ركبتي خلع بقيت بسببه حوالي خمسين يوما في الفراش ولازلت أعاني منه، وكان ذلك بسبب انزلاق قدمي على الحشيش الرطب ووقوع أحد الإخوة عليها.

ومن ذكرياتي لهذه المرحلة، أن الأستاذ الهضيبي قام بزيارة إلى سورية زار فيها أمهات المدن السورية ومن ذلك حماة واستقبل في سورية استقبال الفاتحين، وكان الصدام بين الإخوان المسلمين وبين عبد الناصر قد اشتد وقد طلب منه إخوة سورية البقاء عندهم فرفض إلا العودة لمصر وقد دخل على أثر ذلك السجن، لقد كان رحمه الله يأخذ بالعزائم، وأني لاتذكر كيف كان استقبال حماة له رائعا وكيف غلبت البهجة على حماة، وأتذكر الاحتفال الكبير الذي أقيم مساء وصوله في جامع السلطان والجموع الكثيرة التي حضرته وقد تكلم يومها الدكتور السباعي وسعيد رمضان وغيرهما وتكلم الأستاذ الهضيبي باختصار وكان من كلامه أنه يحب أن يعمل للدعوة وهو صامت، وبمناسبة زيارته لسورية ألقى الإخوان خطبا في مناطق كثيرة، وحدثت حادثة مؤسفة في المعرة فقد كان يخطب فيها سعيد رمضان خطبة الجمعة وإذا بهجوم يقوم به الاشتراكيون في المعرة على المسجد ولقد حدثني فيما بعد أحد المسئولين الحكوميين كيف أنهم دخلوا على المسجد وبيدهم زجاجات الخمر التي ألقوها على جدران المسجد وكانت فتنة كبيرة، وعندما بلغنا ذلك ونحن في حماة خرجنا أربعة ومعنا سلاحنا وتوجهنا إلى المعرة ولكن كان كل شيء منتهيا فتابعنا مسيرنا إلى حلب وحضرنا أواخر الاحتفال الكبير في جامع سيدنا زكريا وقد أصيب الدكتور السباعي يومها بنوبة وهو يتكلم بحضور الأستاذ الهضيبي.

ومن ذكرياتي لهذه المرحلة، أنه عقد مؤتمر إسلامي في سورية حضره كبار قادة العالم الإسلامي ومنهم الأستاذ المودودي رحمه الله وقد زارنا هو وآخرون في حماة وألقى بنا كلمة في مركز الإخوان المسلمين أوصانا فيها بمكارم الأخلاق وكان لهذه الزيارات دور كبير في إنعاشنا وتفهمنا لقضايا الأمة الإسلامية.

ومن ذكرياتي لهذه المرحلة، أن بعض الإخوة اتهموني أنني أطمع أن أكون المرشد العام للإخوان المسلمين وكان ذلك مؤلما لي لأن مثل هذا ما كان ليخطر لي على بال.

وقد تعودت منذ البداية أن توجه لي الاتهامات الظالمة حتى ألفتها لأنها ضريبة العمل الجماعي، فعمل جماعي في عصرنا في الغالب لابد معه من الأقذاء كما ورد في بعض روايات حديث حذيفة عند أبي داوود «وجماعة على أقذاء»، ولعله من المناسب أن أختم هذه الفقرة بكليمات قليلة عن الإخوان عامة وعن نشأتهم في سورية لأن ذلك مؤثر على مجريات الأمور فيما بعد.

«نشأت حركة الإخوان المسلمين بعد أربع سنين من سقوط الخلافة العثمانية أي بعد سقوط اللواء السياسي لآخر دولة إسلامية عالمية، وقد نشأت الجماعة في ظروف انحسر فيها الإسلام انحسارا كبيرا وتسلطت القوى المعادية على كل أجزاء العالم الإسلامي تقريبا، وانطلقت الجماعة تجدد الإسلام وتقدم الدواء وتتحمل الصدمات وتكتوى بنيران الأعداء والأصدقاء، وكما أن الإسلام عالمي فقد نشأت الجماعة عالمية فامتدت في هذا العالم طولا وعرضا ولقد أصبح تنظيمها الحالي بفضل الله تعالى يغطي القارات الخمس وهي سائرة ومتنامية وفي كل يوم تزداد مواقعها رسوخا.

انطلقت الجماعة في مصر على يد مجدد هذا القرن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله وقد ألهم الله الأستاذ البنا كل ما يلزم لحركة إسلامية معاصرة، ولذلك استطاعت الجماعة أن تنطلق وأن تتوسع على كثرة النزوات والاندفاعات وعلى كثرة الضربات والعوائق.

وقد تألق اسم الجماعة واسم مرشدها في انطلاقتها الأولى حتى أصبح حمل اسمها شرفا لكل من يحمله وكانت هناك في سورية تجمعات إسلامية كدار الأرقم في حلب وشباب محمد ﷺ في دمشق ودار الأنصار في دير الزور إلى غير ذلك، وقد ارتأت هذه التجمعات أن تلتقي على اسم الإخوان المسلمين وتحت قيادة

الدكتور الشيخ مصطفى السباعي -رحمه الله- الذي شرب وعب من معين الأستاذ البنا وكان استعداده العلمي والسياسي والبياني راقيا فقامت دعوة الإخوان المسلمين في سورية ولكنها قامت والجو من حولها إعصار التيارات المتناقضة المتضاربة شديدة عاتية والجماعة كانت في بعض جوانبها امتدادا لمرحلة ما قبل التأسيس ولذلك فإن قسما كبيرا من أبنائها حملوا اسمها دون مضمونها، على أن المضمون بدأ يتسرب شيئا فشيئا عبر كتب الجماعة وعبر السوريين الذين درسوا في مصر مثل الشيخ محمد الحامد والدكتور السباعي وعبد الكريم عثمان وعدنان سعد الدين ولكن منذ البداية كانت هناك مدرستان وحتى كتابة هذه السطور لازالت هناك مدرستان في الإخوان المسلمين السوريين.

ومن أبرز ذكريات هذه المرحلة سفري مع بعض الإخوان إلى دمشق بمناسبة ترشيح الأستاذ محمد المبارك نفسه للمجلس النيابي. وكانت المعركة الانتخابية حامية إلى حد كبير.

لقد قرر الإخوان المسلمون بعد سقوط أديب الشيشكلي ألا يدخلوا المعركة الانتخابية وكان ذلك على خلاف توجهات الدكتور السباعي واجتهاداته لكن الأستاذ المبارك قرر أن يدخل هذه المعركة وانفصل عن الإخوان المسلمين، وقد أصدر الإخوان المسلمون بيانا أعلنوا فيهم موقفهم من الانتخاب وأعلنوا أن الأستاذ المبارك لا يمثلهم مما أدى إلى عدم نجاح الأستاذ المبارك في الاقتراع الأول، فاستنفر الإخوان لمساعدته في الاقتراع الثاني وقد نجح، لم يكن للجماعة استراتيجية سياسية واضحة وكان هذا مظهرا من مظاهر عدم الوضوح في العمل السياسي.

واستطرادًا- وأن استبقنا أحداث المرحلة اللاحقة- نقول:

لما شغر أحد مقاعد البرلمان في دمشق تنافس عليه الدكتور السباعي ورياض المالكي وذهبنا مرة ثانية إلى دمشق، وكانت معركة هائلة رمى بها اليسار المحلي والعالمي بثقله مع رياض المالكي وضد الدكتور السباعي -رحمه الله- ورمى بها الإسلاميون وأعداء اليسار بثقلهم ولكن الجيش وأجهزة المخابرات واجتهادات بعض

شيوخ دمشق أسقطت الدكتور السباعي، وكان ذلك مؤلما أن تسقط دمشق عاصمة الإسلام المتدينين وتلقي بثقلها بجانب غير المتدينين -وقد بلغني أن رياض المالكي آل أمره إلى التدين فيما بعد- فأصيب الدكتور السباعي على أثرها بمرضه العضال.

ومن أبرز أحداث هذه المرحلة أننا شاركنا في نصرة الجزائر فقد اتفقت كل الجهات في سورية على إقامة أسبوع لنصرة الجزائر وجمع التبرعات لها وبدأ الأسبوع بحفلة كبيرة في دمشق نقلت في الراديو تكلم بها الأستاذ علي الطنطاوي وكان الإقبال على التبرعات عظيما، وشكلت لجان في كل المحافظات وضمت الأحزاب والمؤسسات والنوادي، وكنت أنا وعدد من الإخوان مشاركين فيها وقد تعرفت أثناء ذلك على الأخ أحمد جواد وكان ذلك فاتحة خير كبير، حاول القائمون على العمل أن يصلوا إلى كل قرية وحي وكانت حصتنا كبيرة فكنا نعمل ليل نهار، طفنا قرى مسيحية وأخرى مسلمة، زرنا بعض البدو، شاركنا في الاحتفالات العامة، كان اندفاعنا في هذا الشأن كبيرا وكان أثره طيبا.

● في الأشياخ العلماء

لم تزل سورية مليئة بالعلماء العاملين على مدى العصور، كانت السياسات الاستعمارية تقتضي تفقيرهم وتحجيمهم والإزراء بهم، ومع ذلك فإن قسما كبيرا منهم شاركوا في الحركة الوطنية، وقسم كبير منهم لم يكونوا يتركون العلم والتعليم والوعظ أن في المساجد أو في إقامة المدارس الدينية، ولقد استطاعت المدارس الدينية في مرحلة الاستعمار أو في مرحلة الاستقلال أن تجتذب عدداً كبيراً من الطلاب، واستطاع العلماء الأقوياء الذين يدرسون في المساجد ويعظون أن يؤثروا كثيراً فى قطاع كبير من الشعب، وكان كثير من العامة يرتبطون بحلقة شيخ من المشايخ، وكان شيخنا الحامد له حلقته العامة التي يدرس فيها بين المغرب والعشاء إلا في رمضان فقد كان درسه بعد العصر، وكانت حلقته العلمية ثقيلة علميا، فهو يقرأ فيها في أمهات الكتب، وقد خصص يومين للفقه ويوما للسنة ويوما للسيرة ويومين للتفسير، وكانت تلمذتي على هذه الحلقة وتلمذتي الخاصة

على الشيخ لهما الأثر الأكبر في حياتي، وكان من عادته -عليه الرحمة- أن يدفع تلامذته نحو الاستفادة من العلماء، ولذلك تخلقت بخلق البحث عمن أستفيد منه، وكانت سورية مليئة بالعلماء وقد حاولت أن أستفيد من كل شيخ تعرفت عليه، ومع إنكاري على بعض الشيوخ فقد حاولت أن أستفيد من بعض علومهم، وهكذا أصبح البحث عن الشيخ المعلم للاستفادة منه هدفا لي لم أتخل عنه إلا مضطرا وحتى هذه اللحظة فإنني إذا اجتمعت بالعلماء أحرص على أن أستفيد، وإذا تكلمت فأفتح الطريق أمامهم للكلام.

واستطرادا أقول: إنه فيما بعد هذه المرحلة حاولت أن أستفيد بقدر الإمكان من بعض شيوخ حماة، وكان أبرزهم في ذلك مفتي حماة الذي توفي وهو يمتلك كامل عقله وعلمه بعد المئة الشيخ سعيد النعسان، وقد قرأت عليه شيئا في القرآن وشيئا من كتاب قواعد التصوف، وكانت لي على الأخص صلات بقراء حماة، وكنت أدارسهم القرآن وأتلقاه عنهم وخاصة الشيخ سعيد العبد الله، والشيخ قدور الموسى، والشيخ أحمد الحامد، والشيخ إبراهيم الشرباتي، والشيخ محمد القواس رحمهم الله، فلما خرجت إلى دمشق للدراسة في كلية الشريعة فإنه عدا عن تلمذتي على أساتذتها العظام كالدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى الزرقا، والدكتور معروف الدواليبي، والشيخ المنتصر الكتاني، والدكتور أحمد شعبان المصري الفقيه، والدكتور فوزي فيض الله الفقيه الأديب، فقد تتلمذت خارج كلية الشريعة على الشيخ محمد الهاشمي في التصوف وعلم الكلام، وتتلمذت على الشيخ إبراهيم الغلاييني مفتي «قطنا» في التصوف، وتتلمذت في القرآن على شيخ قراء دمشق وعمره حوالي تسعين عاما الشيخ العلواني في جامع النقشبندي، وتتلمذت على الشيخ عبد الوهاب الحافظ (دبس وزيت) أفقه فقهاء الحنفية في بلاد الشام.

وكان العلماء الصوفية الذين مررت بحلقاتهم لا أعدهم كثرة، وبقي هذا دأبي في التعرف على أهل العلم وحلقاتهم والاستفادة منهم، بل وأخذ الإجازات منهم طول حياتي، فقد أخذت إجازة شفوية من ولي العلماء وعالم الأولياء في دمشق ملا رمضان البوطي والد الدكتور سعيد، فقد إجازني في الدعوة إلى الله ودخلت

ثلاث خلوات صوفية عـند خلفاء الشيخ الهاشمي رحمـه الله، وقد أجازني واحد منهم إجازة مكـتوبة في الدعوة والإرشـاد وتسليك المريدين، وقد أجـازني الشيخ محـمد على المراد رئيس جمـيعة العلماء في حـماة بكل ما عنده إجـازة مكتوبة، وأجازني خمسة من مشايخ طرق متعددة بالأذن الصوفي في طرقهم، وكنت أقصد زيارة من عرفوا بالصلاح ولو لم يكونوا مشهورين من بلد إلى بلد.

أما العلماء الذين اجتـمعت بهم فذاكرتهم ودارستهم فلا أحصـيهم كثرة، لكن من أبرزهم الشـيخ عبد الكـريم الرفاعي -رحمـه الله- الذي أعتـبره أحـد أركان التجديد في القـرن الرابع عشر وكانت لي مجـالسات ومذاكرات معـه رحمه الله، لقد كان للفـقهاء والصوفية تأثـير كبير في إبقاء الإسـلام راسخ الجذور في سورية وخاصة عند العامة، وجاء بعد ذلك الإخوان المسلمون فدخلوا إلى عوالم المثقفين، وجاءت جـماعـة الدعوة والتـبليغ فـوصلت إلى قطاع كبـير، وهكذا بدأ العـمل الإسلامي يتكامل شـيئا فشـيئا ليغطي قطاعـا واسعا من خلال الصـوفية والفـقهاء والجمـعيات والجـماعات حـتى كاد يؤتي ثماره ولكن لم يكن التـخطيط الداخلي والخارجي لسورية ليسمح بذلك، فكان العمل الإسلامي يتعثر شيئًا فشيئًا، ولنرجع إلى المرحلة التي نحن فيها فقد أصبح التطلع نحو الاستفادة من العلماء قراء وفقهاء وصوفية مطلبا عندي وجهني في هذه المرحلة وفيما بعدها.

● في بعض سياسات شيخنا محمد الحامد رحمه الله

كان الشيخ محـمد الحامد من الذين أسهموا في تأسـيس الإخوان المسلمين في مدينة حـماة سنة ١٩٣٩، وبعد أن حظر أديب الشيـشكلي الأحزاب وأخذ قـسما على الموظفـين لم يدخل الشيخ الـتنظيم مرة أخـرى، وإنما كان يرعـاه، ولم يكن يسكت على خطأ أحد فردا كان أو جماعة. وكان يرى أن يكون أبا لكل المسلمين ناصحا لهم فـذلك أدعي إلى تعميم النصيحـة وأدعي إلى سلامة حلقته التعليـمية التي كان يـحرص على وجودها واسـتمـرارها كل الحرص، وكـان يجنبهـا كل ما يمكن أن يؤثر على وجودها أو استمرارها وهو كان يخشى من الله أن يعارض أي فعل خير إلا إذا كان فيه شذوذ أو انحراف.

اجتمع مع الشيخ تقي الدين تبهاني مؤسس حزب التحرير، فقال: هذا رجل لا يصح أن نحاربه فلما ظهر على كتابات للحزب فيها أخطاء تحدث عن هذه الأخطاء على المنبر، وكان يغار على الإسلام والمسلمين ويحب أن يعرف الواقع كاملا ويعتبر الإخوان المسلمين هم الفئة التي يجب أن تدعم، وكان حريصا على إيجاد صيغة من التلاقي بين الإخوان المسلمين والعلماء والصوفية وغيرهم.

وكان يرى أن المسلمين في مقابل إنهاء هذه الردة يجب أن يضعوا يدهم بأيدي بعضهم مهما كثرت خلافاتهم، ومع أنه حنفي صوفي، فقد كان يعلن دائما أنه على استعداد بأن يضع يده بيد أكثر السلفيين غلوا في مقابل إنهاء الردة. وكان شغله الشاغل الذكر والعلم والنصيحة، رحمه الله.

● في تنظيم الإخوان المسلمين في سورية

لم ينقطع العمل الإسلامي في سورية، فالفقهاء والصوفية والوعاظ الذين كانوا يستقطبون أعدادًا كبيرة من الشعب لم ينقطعوا في سورية، ولكنه أمام نشوء النوادي والجمعيات والأحزاب ذات الأفكار الوافدة، بدأ بعض المثقفين الإسلاميين بدأوا يفكرون في عمل إسلامي مكافيء، فكان أن وجد أفراد ثم مجموعات يفكرون في مثل هذا منذ سنة ١٩٣٢، ولكن انتقال هذا التفكير إلى مستوى الجمعية تأخر قليلا، فنشأت جمعيات محلية ذات صفة إدارية خيرية دعوية منذ سنة ١٩٣٧، ونشأت بأسماء مختلفة إلا في حماة فقد نشأت جمعية باسم الإخوان المسلمين منذ سنة ١٩٣٩.

قال الأستاذ فتحي يكن في كتابه «الإسلام فكرة وحركة وانقلاب» عن الإخوان المسلمين في سورية:

«لم يكن في سورية حتى مطلع القرن العشرين تيار إسلامي واضح المعالم.. وإنما كانت هنالك دعوات دينية وطرق صوفية مقتصرة في دعوتها على بعض جوانب الإسلام..

وفي عام ١٩٣٣ شعر المرحوم «الدكتور مصطفى السباعي» وكان حينئذ شابا يافعا بحاجة الإسلام إلى جماعة تؤمن به وتحمله وتدافع عنه. فبدأ بدعوة الناس إلى دين الله، يبصرهم به ويجمعهم عليه.

وفي عام ١٩٣٧ تأسس في حلب «دار الأرقم» وفي دمشق «الشبان المسلمون» وفي حمص «جمعية الرابطة» وفي حماة «الإخوان المسلمون».

وفي عام ١٩٤٤ كانت الحركة قد استكملت عدتها واتخذت شكلا تنظيميا واحدا في كل المدن السورية، وانتخب الأستاذ السباعي مراقبًا عاما لها.

وفي عام ١٩٤٨ حدثت كارثة فلسطين، وهب الشعب السوري يطالب بالتطوع للقتال، وأخذت الحركة الإسلامية زمام المبادرة، وفتحت مراكز التطوع في كل مكان، ولما تم للحركة الإسلامية إعداد كتائبها خرجت بهم إلى أرض الجهاد. وكان من نصيبها الدفاع عن بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وكان القتال يدور فيها من بيت إلى بيت ومن شارع لشارع. ولقد أبلى المجاهدون بلاء حسنا، وسقط منهم عشرات الشهداء أودع أكثرهم الثرى بجوار المسجد الأقصى منهم:

الشهيد ضيف الله مراد -الشهيد تيسير طه- الشهيد محمد عينوص -الشهيد محمد عرنوس- الشهيد محمود ندندشي- الشهيد محمد قباني - الشهيد نايف حسن عودة- الشهيد راضي الجوهري- الشهيد محمد طالب - الشهيد محمد صباغ.

وفي ميدان الإصلاح السياسي لعبت الحركة الإسلامية في سورية دورًا هامًا.. فدعت أول ما دعت إلى إقامة حكم صالح يزيل عن سورية مخلفات الاستعمار.. ووجهت النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة. وقاومت كل انحراف في الحكم والإدارة. ولم تجامل في ذلك رئيسا ولا حكومة ولا زعيما.. وحاربت الحركة مشروع سورية الكبرى لأنه مشروع استعمارى يجعل من سورية نقطة ارتكاز للنفوذ الغربي في الوطن العربي.

وفي عام ١٩٤٩ ساهمت في انتخابات «الجمعية التأسيسية» ونجح عدد من رجالها واشتركوا في وضع «الدستور» وصبغوه بالصبغة الإسلامية...

وفي عهد أديب الشيشكلي عام ١٩٥٢ تعرضت الحركة لمضايقات شديدة وفرضت الرقابة على قادتها وسرح الدكتور السباعي من عمله في الجامعة السورية، ثم نفي من البلاد.

وفي عام ١٩٥٨ كانت الحركة الإسلامية في طليعة الحركات التي أيدت «الوحدة الثنائية» بين مصر وسورية.. ويوم تجمعت الفئات الحزبية السورية كلها

في «نادى الضباط» بدمشق لتوقيع وثيقة الانفصال كانت الحركة الإسلامية الوحيدة التي رفضت بموضوعية وإصرار.. واستطاعت الحركة الإسلامية في هذه الفترة أن تستقطب تأييد القوى الشعبية كلها، وتكون تيارا إسلاميا قويا ظهرت نتائجه في أول انتخابات نيابية بعد الانفصال عام ١٩٦١.

وفي أعقاب حركة الثامن من آذار (مارس) التي أطاحت بالعهد الانفصالي تعرضت الحركة ولا تزال تتعرض لمحن متلاحقة على يد الحزب الحاكم في سورية.

وفي عام ١٩٦٤ توفى مؤسس الحركة الإسلامية الدكتور مصطفى السباعي مخلفًا وراءه تراثًا إسلاميًا ضخمًا من الكتب والمؤلفات وحركة إسلامية هي أمل سورية اليوم.

ومن مؤلفات السباعي: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، (الأحوال الشخصية)، (المرأة بين الفقه والقانون)، (أحكام الصيام وفلسفته)، (أحكام الأهلية والوصية)، (أحكام المواريث)، (الوصايا والفرائض)، (مشروعية الإرث في الإسلام)، (نظام السلم والحرب في الإسلام)، (أخلاقنا الاجتماعية)، ومجلة حضارة الإسلام» ا هـ.

لقد استطاعت جماعة الإخوان المسلمين أن تفعل الكثير في خدمة الإسلام والمسلمين، ولكن بسبب من طبيعة الشعب السوري وبسبب من تركيبها النظامي تعرضت لعدة انقسامات أضعفتها وهي لا تزال تصارع من أجل البقاء والاستمرار رغم أن القوى التي تحاربها في الداخل والخارج كبيرة وكثيرة.

● في موجة الإعدامات في العالم الإسلامي

شهد العالم الإسلامي سنة ١٩٥٤ موجة ضد الحركة الإسلامية في كل مكان فحكم على نواب صفوى في إيران بالإعدام، وحكم على عدد من الإخوان المسلمين في مصر بالإعدام، وحكم على أبى الأعلى المودودي في باكستان بالإعدام، وضيق الخناق على الحركة الإسلامية في أندونسيا، وظهر الأمر وكأن مخططًا واحدًا يجري تنفيذه في العالم الإسلامي.

وهكذا أصبح يتضح أن معركة الإسلاميين ليست محلية بل هي عالمية، وأنها

مرصـودة، ونحن لا نعجب أن تسهـر الدول على مصالحـها، ولكن الشيء الذي يلاحظ أن هناك جهات متعددة لها غرض في محاربة الإسلام، لأنه إسلام بصرف النظر عن معـقولية التعامل بين المسلـمين وبين غيرهم، وبصرف النـظر عن نوعية التطبيق الإسلامي، وبصرف النظر عن مراعاة المسلمين للمصالح.

وقد نفـذ حكم الإعدام فعلاً في نواب صـفوى في مرحلة، ونفـذ في عدد من الإخوان المسلمين في مصر، وفي كل من الحالتـين خرجنا بمظاهرات قوية محتجين على تلك الأحداث.

وههنا نحب أن نسجل أن سورية كلها وقـفت ضد إعدام الإخوان المسلمين في مصر حكـومة وشعبا وأن ننس، لا ننـسى موقف فارس الخوري الذي كـان رئيسا للمجلس النيابي، إذ رمى بثقله كله من أجل إنقاذ الإخوان المسلمين.

• في السقف المرتفع

آمنت منذ وقت مبكر في حياتي بضرورة أن ترتفع بالسقف الإخواني، بأن ترتفع بمستوى قياداته ثقافة وخصائص والتزامـا، واعتبرت أن ذلك مقدمة للارتفاع بسقف الأفراد، وهذا هو السـبيل لأن تدخل الأمة تحـت قيادة الإخوان المـسلمين، ولذلك طالبنا وفي وقت مبكر من حياتنا أن يكون الشيخ محـمد الحامد هو رئيسا للإخوان المسلمين في حمـاة، وقد استمرت محـاولاتنا لإيجاد السقف المرتفع ولا زالت وإن كان قد تغير اجتهادنا بأن وجـود السقف المرتفع يحتاج إلى محاضن خاصة، تعطي للمنتسبين إليـها حرية الكينونة حيثما شـاءوا، وبهذا يرتفع السقف الإخواني بشكل غير مباشر، ولهذا طرحت فكرة إنشاء مدارس طلاب الربانية، ولئن كانت الضرورة ملحة لإيجاد السـقف المرتفع في كل مكان فإنه في سورية أكثر ضـرورة، فالشعب السوري شعب مـسيس، كل فرد فـيه يظن أنه من أعرف الناس في السياسة، ثم أن هناك قطاعات دينية متفوقة علميا وروحيا، أو علميا أو روحيا.

ولذلك فـإن هذه القطاعات، وهذا الشـعب لن يسلم للجـماعة إلا إذا كـانت متفوقة سياسيا وعلميا وروحيا.

الباب الرابع

من الواحدة والعشرين إلى السادسة والعشرين

(١٩٥٥ - ١٩٦١م)

الدراسة الجامعية

دخلت الجامعة ١٩٥٦ منتسبًا لكلية الشريعة، عينت مسئولاً إخوانيًا عن كلية الشريعة، كنت قد حفظت سبعة عشر جزءًا من القرآن، قررت أن أتم حفظ القرآن في هذه السنة وقد حفظته بفضل الله، بذلت جهدًا كبيرًا حتى أحصل غرفة من غرف مساجد دمشق لأسكن فيها وبعد جهد حصلت غرفة في التكية السليمانية، وهي تكية قديمة مهملة تقع وراء مسجد السلطان سليم، حدثت معي في هذه السنة وساوس كثيرة، أنقذني منها ترددي على الشيخ الهاشمي رحمه الله فقد كنت أدخل عليه وقلبي مليء بالوساوس وأخرج من عنده وقلبي مليء باليقين، وقد درست عنده جزءًا من جوهرة التوحيد، ترددت في هذه السنة على الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت أفقه فقهاء الحنفية في بلاد الشام، وقد درست أنا والشيخ بشير الشقفة عليه جزءًا من كتاب الهداية.

كان يسكن في مسجد القطاط شيخ اشتهر أنه محدث، هو الشيخ عبد الله الهرري ذهبت إليه أنا وبعض الإخوة لأستفيد منه كيفية البدء في دراسة علوم الحديث فأشار علي أن أحفظ ألفية العراقي وأعطاني نسخة من عنده عليها شروح وقد بدأت في حفظها وحفظت الكثير منها.

كان من أبرز أساتذتنا في السنة الأولى الدكتور فوزي فيض الله وقد وزع علينا موضوعات من كتاب الهداية في فقه الحنفية لنعيد صياغتها وكان نصيبي بحث الحج ولما قدمته له كان معجبًا به، وراقه تعليلي لعدم جواز قتل القمل أثناء الإحرام بأن المسلم وهو محرم يقدم لكل شيء سلامًا، وعلق على ذلك الأخ الزميل إبراهيم زيد الكيلاني بأن إبقاء القمل بلا قتل ينافي السلام وكانت نكتة.

لم أكن متفوقًا في دراستي لانشغالي بـأمور كثيرة، العمل الإخواني، المطالعات الخاصة، الدراسات على بعض الشيوخ، حلقات الذكر والحياة الصوفية.

كان من أساتذتنا في السنة الأولى الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله والدكتور محمد المبارك والدكتور معروف الدواليبي والأستاذ مصطفى الزرقا والأستاذ مصطفى الخن والدكتور صـالح الأشتر والأستاذ عـمر الحكيم، لقد كان أساتـذتنا محل حبنا وتقديـرنا وكانت الصـراعات الفكرية في سـورية على أشدها، فكان أسـاتذتنا في الغالب يضعون أيدينا على حجج الإسلام في صراعاته ضد الخصوم.

كان من أبرز نشاطاتنا الجامعية لهذا العام أننا أقـمنا ندوة جامعية عامة أسميناها ندوة الفكر المتحرر.

كان الشـيوعيـون واليساريون قـد أقامو ندوة سـموها الندوة الأدبيـة، قررنا أن نحضر هذه الندوة مستمعين وفوجئنا أن أحد المتـكلمين فيها يلقي قصيدة فيها مس بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أطار ذلك صوابنا فـاندفعنا نرفع أصواتنا احتجاجًا ثم آل الأمر إلى اشتباك بالأيدي وكانت الندوة بإشراف الدكتور عمر فروخ، تدخل بعض الناس فـحالوا بين المشتـبكين، فعـدنا إلى الجلوس وطلبت الكلام، أعطيت حق الكلام فألقيت كلمة ارتجالية تحدثت فيها عن الأقداس التي لا ينبغي أن تمس، وكانت خطبـة نارية ألقيتـها ثم انسحـبت، فانسـحب أكثر الحاضـرين، ثم طالبنا الجامعة بإعطائنا حق فتح ندوة، فكان ذلك.

واكتسـحت ندوتنا الجامعة كلها، فبينما كانت ندوتهم يحضرها العشرات، كانت ندوتنا تجتذب المئـات بل إن آخر ندوة أعلنا عنها، تحفز كل طالب جـامعي وطالبة للحضور فتدخل الحاكم العسكري - وكـان وقتذاك صبري العسلي - فألغى الندوة وأصدر قرارًا بمنع كل الندوات الطلابية في الجامعة.

حاولنا أن نحتج ولكن لا فائدة، وكان سـر الإقبال على هذه الندوة الأخيرة أننا دعونا للمحاضرة إليـها كبار الإسلاميين وكانت الموضوعـات التي ستطرق حساسة بالنسبة لقضايا المنطقة.

كـان هناك شيخ طاعن في السن وصف لـي بأنه من أكثـر الناس إتقانًا للقـرآن

الكريم، بل وصف بأنه شيخ القراء في دمشق، وهو من آل العلـواني فاتفقت معه على أن أعرض عليه القرآن فكان لي موعد يومي معه تقريبًا.

هناك حادث صدمني صدمة كبـيرة في هذا العام وذلك أن المسئول عن الإخوان المسلمين في الجامعة دعا لاجتـماع، وأثناء حديثه خطـأ الأستــاذ البنــا فـي بعض ما اعتمده من مناهج للسيـر الإخواني، هالني ذلك، وكان هذا من أكبر المؤشرات على أن القائمين على العـمل الإخواني لم ينصهـروا في دعوة الأستاذ البنا رحـمه الله، ولقد عـرفت فيمـا بعد أن هذا الأخ ترك الجمـاعة فـيما بعد وحف التـزامه الإسلامي كثيرًا ولقـد كانت ظاهرة الترك للجماعة وخفة الالتـزام بعد التخرج من الجامعة تشكل ظاهرة من أخطر الظواهر التي تحتاج إلى تعليل وتحليل ومعالجة.

نجحنا في امـتحان السنة الدراسيـة الأولى وقضينا العطلة الصـيفية في حـماة، وكانت أجـواء سورية تقتـرب من الوحدة مع مصـر وأدخل ذلك شللا على عمل الأحـزاب كلها في سـورية، ومن ذلك الإخـوان المسلمـون الذين بدت مراكـزهم وكأنها محلولة قبل القرار الرسمي للـحل، وهذا جعلني أقبل على التصوف إقبالاً أكثر من أي وقت مضي، وكان فى حـماة مجموعة مستغـرقة في التصوف تنتسب لخليفة للشيـخ محمد الهاشمي رحمـه الله، فاندمجت معها وأخـذ السير الصوفي يسيطر على ذاتي، ووافق ذلك أن حل الإخـوان المسلمون أنفسهم بمناسـبة الوحدة مع مـصر في العـام التـالي، وكانت سياسـة عبـد الناصـر أن يغض الطرف عن النشاطات الصوفيـة، فأقبلنا ابتداء على التصوف سلوكًـا ثم اندفعنا من خلاله إلى الدعوة إلى الله عـز وجل على بصيرة وعلى علم مـعتمدين الذكـر والعلم، وكان لذلك أثاره الطيبة على مدينة حماة.

كان أبرز أحداث السنة الثانيـة في الجامعة قيام الوحدة بين سـورية ومصر، وقد حلت الأحزاب كلها نفسها في سورية ما عدا الحزب الشيوعي وكان من جملة من حل نفسه الإخوان المسلمين وقد كانت القيادات الإخوانية صادقة في هذا الحل ولم يكن يسمح أحد لنفسـه أن يتكلم في هذا الموضوع من أفراد الإخوان، كل يجـتهد لنفسه وكـان اجتهادي لنفـسي أن أحمل نفسي على العلم والذكـر والدعوة ضمن الإطار الصوفي واستمر ذلك حتى إلى ما بعد تخرجنا.

ففي دائـرة العلم تابعنا دراستنا في الجـامعـة وكان من أسـاتذتنا الذين لم نورد أسماوهم من قبل: الدكتور زكي عبد البر وهو من مصر والدكتور أحمد السمان - والد غادة السمان- وقد درسنا الاقتصاد السياسي وكان أشهر اقتصاديي سورية وقد بقي عـميدًا لكـلية الحقـوق سنين طويلة، ومن أسـاتذتنا الذين مروا علينا الـشيخ بهجت البيطار وآخرون..

وفي دائرة الذكـر استـغرقت في العـبادات والأوراد وحـضور مـجالس الذكـر والصلاة على رسـول الله ﷺ وحاولت أن أدخل خلوات الشيـوخ فدخلت خلوة عند الشيخ سعيد البرهاني وخلوة عند الشـيخ عبد القادر عيسى وخلوة عند الشيخ بشير قهوجي وفي دائرة الدعوة شاركنا مع الأخ بشـير شقفة وأديب كيلاني وبعض شيوخ البلد في إقامة الحلقات العلمية والدروس والمواعظ.

بدأنا مع إخوان الطريق -وما أصـفى الحياة معهم- نوعًـا جديدًا من الدعوة إلى الله تقوم على جلـسات البيوت وجـعلنا لهذه الجلسـات نمطًا خاصًا فكان يجـتمع إنشاد وإرشاد، وقد استـقرت هذه الجلسات في بيت أحد إخوان الطريق، وهو أخ متـفان في خدمـة إخوانه ندر مثلـه في الحب والإخلاص، هو الحاج حـسن غزال رحمـه الله، وكان برنامج الجلسـة مع النشيد وقـراءة القرآن توحيـد وسيرة وفـقه وتعليم عام، وكان لهذه الانطلاقة بركتها وخاصة على منطقة الحاضر من حماة.

وكان لإخـوان الطريق أنواع من الحلقـات: حلقات ذكـر حلقات علم خـاصة وعامة، وكان ذلك كله أيام الوحدة مع مصر وكان من سـياسة عبد الناصر تشجيع الاتجاه الديني الصوفي. فاستفدنا من هذا المناخ.

وكانت هذه حياتنا حتى دخلنا في سلك التدريس.

وكان أشهر أولياء دمشق في هذه المرحلة الشـيخ أحمد حارون رحمه الله والشيخ يحيى الصباغ وكنا نرى الثاني في مجالس الصلاة على الرسول ﷺ وكان يحبنا ولقد دعا لنا دعاء حارًا، وزرنا الشيخ أحمد حارون في بيـته وكانت جلسة عجيبة بما حوته من فوائد وعلوم كان يسألنا عن بعض الآيات القرآنية ثم يأتينا بأوجه جديدة لا تخطر على بال ومع ذلك كنا نسلم له فيما يقول لوضوح الحجة عنده، رحمه الله.

تزامنت حياتنا الجامعية مع الوحدة بين مصر وسورية، ففي السنة التي انفصلنا بها عن الجامعة تم الانفصال. استقبلنا الوحدة ونحن في السنة الثانية وكانت فرحة حقيقية لكل الناس حتى الذين لم يفرحوا لم يكن أمامهم إلا أن يظهروا الفرح وكانت أقوى المسيرات المبتهجة هي مسيرتنا وأقوى الكلام الذي قيل فيها هو كلامنا.

ولقد كان الأخ الشاعر محمد منلا غزيل يقود الهتاف بقصيدة كان مطلعها:

هبي يا ريح الجنة هبي علينا نحن حققنا الوحدة الزينه

لقد كانت بداية الوحدة شيئًا هائلاً على صعيد الإنجاز السياسي وعلى تفاعل الشعب السوري معها فكيف انتهت هذه الوحدة بعد ثلاث سنوات؟ ذلك ما يحتاج إلى تأمل طويل، فسقوط حكم وقيام حكم يخضع لمؤثرات كثيرة والأحكام المستعجلة لا تجدي شيئًا.

لقد كانت دروس هذه المرحلة كبيرة فقد جعلتني مع مثيلاتها أصل إلى قناعات كثيرة حكمتني ولا زالت تحكمني:

أولاً: أنه لا الجامعة ولا الإخوان المسلمون ولا حلقات الصوفية قادرة كل منها منفردة أن توجد العالم الرباني المعاصر، أن العالم الذي يعتبر وارثًا كاملاً لرسول الله ﷺ والذى يجتمع له علم وعمل وحال والذى يستطيع أن يقوم بواجب التعامل الحق مع المسلمين حنانًا ونصحًا وزيارة وعيادة وصلاة جنازة ومشاركة في الأفراح والأتراح وقيامًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواجب الدعوة والتعليم والذي يستوعب عصره ويعرف أن يتحرك على ضوئه والذي يستوعب الثقافة المعاصرة والثقافة المتوارثة والذي تظهر فيه أخلاقية حزب الله وروحانيته على أرقى ما يكون مثل هذا العالم لا تخرجه على الكمال والتمام جهة بعينها والمحظوظ من أتيح له أن يأخذ الكمال أني وجده، وهذه القضية أخذت مني كل مأخذ، وكانت عاملاً من العوامل التي جعلتني بعد سنين طويلة أتمنى أن أكرس حياتي من أجلها.

ثانيًا: لقد أقام عبد الناصر زمن الوحدة حزبًا وحيدًا في سورية هو الاتحاد القومي وحاول عبره أن يوجد ممثلون للشعب السوري، فأقام انتخابات حرة كان من آثارها نجاح الإسلاميين في سورية كافة ولما كانت النتيجة كذلك فقد أعطى

لنفسه حق الاختيار من بين الناجحين فكانت المحصلة على غير ما أراده الشعب السوري.

لكن النتيجة الأولى تبين بوضوح أنه حينما كانت حرية انتخابية في البلاد الإسلامية فالنتيجة للإسلاميين وهذا جعلني دائمًا أتطلع إلى الحرية الانتخابية على الأرض الإسلامية.

كما أن تجربة الدعوة إلى الله زمن الوحدة بالقدر المتاح جعلتني مقتنعًا أن على المسلمين في كل مكان أن يستفيدوا من المتاح قانونًا لنشر الدعوة مهما كان هذا المتاح قليلاً فإنه شيء لابد منه، وهكذا كنت أنظر إلى الحركات الدعوية البحتة أو الصوفية أو العلمية والفقهية نظرة احترام لأنها تحقق هذا المعنى فيبقى الإسلام حيًا إذا ادلهمت الأحداث.

ثالثًا: إن الحركات السياسية والعمل السياسي بإطلاق إذا لم تتوافر له شروط فإنه معرض للسقوط:

أ- رؤية واضحة واستشراف كامل على ساحة العمل السياسي داخليًا وخارجيًا تنظيميًا وإداريًا.

ب- معرفة بنفسية الناس فلقد كان من عوامل سقوط الوحدة أنها لم تراع نفسية الشعب السوري.

جـ- قوة مبادرة تسبق المشكلة قبل وقوعها فإذا وقعت سورع إلى حلها.

د- تقييم صحيح للموقف في كل لحظة وقرار حكيم على ضوء ذلك.

هـ- تلاحم بين العاملين وتفاهم كاملان فلقد كان للخلاف بين عبد الحكيم عامر وعبد الحميد السراج دور كبير في سقوط الوحدة.

ولقد حكمتني هذه المعاني وسجلتها في بعض كتبي، ولقد جعلتني هذه المعاني أبتعد عن المشاركة في عمل سياسي لا تتوافر فيه هذه المعاني إلا مضطرًا ولكن حالة الاضطرار كانت تجبرني يومًا فيومًا على التساهل في هذه القناعات.

رابعًا: كان من محصلات التجربة لهذه المرحلة أن المسلمين عندهم استعداد هائل لاستجابة الدعوة إذا انطلق في هذه الدعوة ناس برآء وأحس الناس أنه ليست

لهم أغـراض وليست علـيهم مـآخذ ولكن هل بـالإمكان أن يوجد مـثل هذا وأن يستمر؟ أنه إذا ما وجدت حـوانيت للخير ودعاة لذلك وأشرف على هذا وهذا من هم مظنة الإخلاص والثقة فإن العامة والخاصة يمكن أن تنصهر في بوتقة واحدة.

من ذكرياتي في الحـياة الجامعـية أنها كانت تمر على أزمـات مالية أحاول مـعها العمل فـلا يتيسر لي وأخـيرًا أخذت بعض ساعـات التدريس في مدرسة خـاصة فساعدني ذلك على الإنفاق على نفسي مع ما كان الوالد يرسله، إلا أنني ما كنت أمسك مـا يدخل جيـبي مما جعل بعض إخـوان الطريق يحجـرون علي في أجواء المحبة والموافقة والمودة.

ومن الذكريات التي يرويـها بعض الإخوة أنه كلفني أراقب له طبـخة وضعـها على النار وخرج، وكنت أقرأ في كتاب في الغرفـة نفسها فلما رجع وجد الدخان يخرج من الغرفة فأسرع راكضًا وإذا به يجدني مـستغرقًا في القراءة والطعام يحترق ووابور الغاز قد مال على أحد جانبيه.

ومن الذكريات أنني لم أكـن أملك الكثير من الكتب الجـامعيـة فكنت أستعـير وأقرأ وكـان هذا العامل مع عوامل أخـرى مثل مطالعاتي الخـاصة واستـغراقي في التصوف أو في أعمال أخرى عاملاً في أنني لم أكن متفوقًا في دراستي.

ومن الذكريات أنني دخلت مرة على الـدكتور السباعي فتـأمل مظهري ثم قال: إن هذا المظهر غير منسجم يا شيخ سعـيد، وكان ذلك فعلاً، وقد اجتمع على هذا المظهر غير المنسجم الفقر والاستهانة.

● في الإخوان المسلمين والعهود التي مرت على سورية بعد الاستقلال

مرت على سورية عهود فيما بعد الاستقلال حتى الوحدة نجملها فيما يلي:

عهد الديمقـراطية الأولى، عهد حسني الـزعيم، عهد أديب الشيـشكلي، عهد الديمقراطية الثانية، عهد الوحدة.

وصل عدد الإخوان المـسلمين في الديمقراطية الأولى في دمشق وحـدها حوالي خمسـة وسبعين ألفًا، وكانـوا إذا نزلوا باستعراض ينزل من جوالتـهم حوالي ألفي كشاف.

جاء عهد حسني الزعيم فألغى الأحزاب ثم استمر ذلك في عهد أديب الشيشكلي، وكان الإخوان يعملون سراً في عهد أديب الشيشكلي، ولم يطل عهد حسني الزعيم، فلما جاءت الديمقراطية أخذ الإخوان المسلمون قراراً عجيباً هو أن يعكفوا على التربية وألا يدخلوا الانتخابات، فخالفهم في ذلك الأستاذ محمد المبارك واستقال من الإخوان ورشح نفسه، فسقط في الاقتراع الأول، ونجح في الاقتراع الثاني بعد أن عمل له الإخوان المسلمون وكنت فيمن سافر إلى دمشق للعمل من أجل الانتخابات، كانت سورية تمور موراً في التحركات السياسية، وكان واضحًا أنها تسير نحو هاوية خطيرة، وكان على الإخوان المسلمين أن يكونوا أكثر الناس حيوية سياسية في ذلك العهد، وكان المفروض أن يتعقل الحزبان اللذان حصلا الاستقلال: الحزب الوطني وحزب الشعب، وكان تحالف بين حزب الشعب والحزب الوطني والإخوان المسلمين وشخصيات وكتل مبعثرة، وتجميع لقوى هؤلاء في الجيش يمكن أن ينقذ سورية وأن يبقيها في المسار الديمقراطي ولكن الإخوان غلبت عليهم عقلية التميز والأنفة من التحالفات، والحزب الوطني تحالف مع اليسار، فوجد ما يسمى بالتجمع القومي، وحزب الشعب حاول على مستوى البرلمان أن يكتل، ولكن لا قاعدة طلابية، ولا قاعدة شعبية، ولا المخابرات ولا الجيش كانوا بجانبه، وكانت الأحزاب ذات الفكر الجديد تتمثل بالحزب الشيوعي الذي أصبح قوة عسكرية وانتخابية، وبالحزب القومي والاجتماعي الذى صفى بعد تورطه في قتل عدنان المالكي، وبحزب البعث وبحزب العربي الاشتراكي، وكان هناك حزب سطع في مرحلة سابقة ثم خبا هو الحزب التعاوني الاشتراكي.

تجمع اليسار كله: حزب البعث العربي الاشتراكي والشيوعي مع الحزب الوطني بقيادة صبري العسلي، وكان وراءه المخابرات وقوى كبيرة في الجيش، وفي هذا المناخ نزل الدكتور السباعي في انتخابات فرعية فسقط أمام رياض المالكي، فانتصر اليسار على الإسلاميين وعلى اليمين بآن واحد. كانت غلطة كبرى للحزب الوطني، وكانت السنين خداعة، عصفت بالعقول، وكان اليسار يشتغل بذكاء، فقد سيطر على مراكز القوة كلها في الجيش وفي المخابرات وأجهزة الأمن والوزارات والحركة الثقافية، وأوجدوا مقاومة شعبية مسلحة من أنصارهم فوقعت سورية وهي

في ظل الديمقـراطية في قبـضتـهم، وههنا طرح بعض الضبـاط شعـار الوحدة مع مصر، وكان وقتها شعار لا يقاوم، فتجاوب معه الجميع وبديمقراطية كاملة.

وقعت سورية ميثاق الوحدة فجـاء عهد جديد وكان من شروط الوحدة أن تحل الأحزاب نفسهـا، فكان ذلك، وحل الإخوان المسلمون أنفسهم وانفـرد الحزب الشيوعي فلم يعلن حل نفسه، وهكذا وجد عهد جديد في سورية.

كان الإخـوان المسلمون قد خـرجوا من عهـد أديب الشيشكلي منقـسمين على أنفسهم، فـاستقبلوا عهـد الديمقراطية الثانيـة، وهم ضعفاء، وقد أصـيب الدكتور السباعي بجسده بعد الانتخابات، فزاد ذلك من قلة الفاعلية.

وسورية تمور كالبركان، ونحب ههنا أن نسـجل مرة ثانية لأسرة فارس الخوري مع أنها أسـرة نصرانية تلاحمـها مع الإخوان المسلمين، وأن فارس الخـوري كان يرى أن المنقذ لسورية هو أن يستلم الإخوان المسلمون سورية، كما سجل ذلك في مذكراته.

● في الوحدة

كانت الوحدة إنقاذًا لسورية من السقوط بيد الشيوعيين وبيد الأقليات، والحقيقة أن الوحـدة هي التي أبقت للسنيين وللفلسـطينيين كيـانهم في لبنان وفي سـورية، لذلك كان الحس الإسلامـي العفوي في سورية وفي لبنان مع الوحـدة عامة ومـع عبد الناصر خاصة.

والحـقيـقة أن الـوحدة الحكيـمة يمـكن أن تكون حلاً لمشكـلات العالمين العـربي والإسلامي، ونحن لا نشترط صيغة معينة للوحدة أو الاتحاد، لكن لا شك بأنه كلما زاد التلاحم بين أوطان العالمين العربي والإسلامي كان مآل ذلك خدمة الإسلام.

كانت تصرفات عـبد الناصر في سورية على نوعين: فمن الناحـية الشكلية كان يراعي اليسار والقوى المؤثرة المعادية للإسلام حتي أن الدستور السوري المؤقت الذي أصدره كان علمانيًا بحـتًا، أما من الناحية العملية فقد أتاح للمتـدينين فرصًا كثيرة للعمل الإسلامي حتى أن كثيرًا من شباب الإخوان المسلمين بدأوا يعملون سرًا.

وقد اسـتفدنا نحن من مناخ الوحدة كـثيرًا، فـعملنا تحت ظل التصوف عـملاً إسلاميًا كبيرًا.

ولما دخلت الوحدة بين سورية ومصر في دائرة التآمر المحلي والعالمي، وقفت ضدها أحزاب اليسار.

وكان على الإسلاميين أن يكونوا أبعد نظراً فيكونوا حماة للوحدة، ولكن عقدة الكراهية لعبد الناصر حكمتهم ففرطوا، وأن ما تعانيه سورية اليوم هو أثر التفريط بعهد الوحدة فالوحدة مع مصر كانت ستبقى الأقليات ضمن حجم لا يستطيعون تعديه ولا يظلمون فيه.

وكل المآسي التي مرت على لبنان والفلسطينيين كانت ستخف على الأقل لو بقيت الوحدة، والتدين المصري الفطري كان سيؤثر تأثيراً كبيراً، لقد مات عبد الناصر عن دستور مصري ينص على أن دين الدولة الإسلام ونحن فى سورية لم نستطع أن نحصل هذه المادة حتى الآن.

• في الخطوة التجديدية الكبرى للشيخ عبد الكريم الرفاعى (مدرسة في كل مسجد)

عندما انتقلت إلى دمشق من أجل الدراسة الجامعية، وقع في يدي لأول مرة ورقة فيها دعوة عامة لاحتفال ديني يقيمه طلاب جامع زيد بن ثابت في بستان الحجر في دمشق ومنذ تلك اللحظة بدأت أتتبع أخبار ذلك الجامع، فعرفت أن شيخه هو الشيخ عبد الكريم الرفاعي، فتعرفت على الشيخ وعلى بعض نشاطاته، وكلما ازددت معرفة ازددت يقيناً أني أمام حركة تجديدية للإسلام تحتاج إلى تعميم.

لقد ألفنا في مسجد السلطان في حماة وهو مسجد شيخنا محمد الحامد رحمه الله، أن يكون المسجد مدرسة، ولكنها مدرسة ذات صف واحد وحلقة واحدة وشيخ واحد وعلوم شرعية محددة، لكناوجدنا أن كل مسجد وصلت إليه حركة الشيخ عبد الكريم الرفاعي أصبح مدرسة ذات حلقات وذات تخصصات وهو كما يعطي العلوم الشرعية فإنه يعطي العلوم الكونية الصعبة التي تصعب على الطلاب عادة، وهناك درس عام لجميع الحلقات، ومجلس ذكر موحد للجميع، لكن المسجد يرتبط به أصناف من الناس بأصناف من الحلقات مراعى في كل حلقة مستوى أفرادها وأوقاتهم.

وكان الشيخ لا يدخل بعض الدراسات إلى المسجد بل يأمر إخوانه بدراستها في البيوت.

وكان للشيخ عبد الكريم مستشاروه لشئون حركته الثقافية التربوية، وكانوا يلحظون جميعًا أن لا يتصرفوا تصرفًا يعكر عليهم شئون دعوتهم، وأصبحت مساجد الشيخ تخرج حفاظ القرآن ومختصين بالعلوم الشرعية، وكان الشيخ نفسه على غاية من الحكمة والوعي والحلم والتقوى وكان يقدم الحب لجميع المسلمين، وكانت مواقفه إسلامية صافية، لا يترك لأعداء الإسلام فرصة أن يكيدوا له ولإخوانه، وكان في الوقت نفسه لا يقصر عن واجب إسلامي، ولم يكن يعادي أحدًا من المسلمين أفرادًا هم أو جماعات أو جمعيات، فكان الجميع يحترمونه وكان يحترم الجميع.

وقد استطاع أن يوجد مناخًا علميًا تربويًا ومحبة أخوية وعلاقات تقوم على التقوى، واستطاع أن يعبيء طاقات كثيرة لخدمة الإسلام، وحيثما حل إخوانه أوجدوا مدرسة دعوية ثقافية تربوية عبر المسجد، ولقد استطاعوا أن يقضوا على مفاسد كثيرة حيثما حلوا، وإنني متأكد لو أن حكماء المسلمين استطاعوا أن يوجدوا في كل مسجد مدرسة لها طلابها، والقائمون عليها، والبرامج المناسبة، وعمَّ ذلك كل مسجد لجدد الإسلام في العالم، ولعل حلقة شيخنا الحامد وعمله وعمل الشيخ عبد الكريم الرفاعي هما اللذان أوحيا لي بفكرة مدراس طلاب الربانية، وبفكرة حركة إحياء الربانية التي سجلتها في رسالة من رسائلي.

● في دار الفقراء

إن حل الإخوان المسلمين أنفسهم بسبب الوحدة بين سورية ومصر جعلنا نستغرق في الحياة الصوفية، فعشنا في هذه الحياة القائمة على الأوراد والأذكار فترة من الزمن.

ولكنا مع إخوان الطريق في حماة أحيينا فكرة التعليم والدعوة في التصوف، فأصبح جونا جوًا علميًا تربويًا روحيًا دعويًا، وكان لنا في الابتداء أكثر من غرفة في مسجد نأوى إليه، ثم استأجرنا دارًا أسميناها دار الفقراء، كانت مركزًا لنشاطاتنا، وقد كانت هذه الدار نموذجًا للمركز الإسلامي الذي يناسب الحال،

ومركـز إشعاع روحي وفكـري وعلمي ودعوي، كان كل من يأتي إلـى الدار يقيم أوراده الشخصية بين المغرب والعشـاء. ثم بعد ذلك تقام حلقة ذكر وإنشاد، وكان لأهل الدار حلقة ذكر أسبـوعية في مسجد من المساجـد، وكانوا يشاركون في كل حلقة ذكر، وكان في حماة مـجلس أسبوعي للصلاة على رسول الله ﷺ، فكانوا هم عماده، وكان للقائمين على الدار دروس منتظمة في بعض المساجد، وكان كل من يرتبط بالدار يرتبط بحلقـة علمية، وكان للقـائمين على الدار جلسة أسبـوعية متنقلة يجتـمع فيها الإنشاد والإرشـاد، وكان أدب الداخلين إلى الدار إما أن يكون في ذكر أو مذاكرة، فتجد في كل حين إناسًا عاكفين على الذكر بيدهم مسابحهم، يقيمون أورادهـم، أو تجد إنسانًا يسأل وآخر يجيب، وحلقة تتعلم.

كان القـائمون على الدار على وعلى حكمة يظـهران في كل شيء، فلم تكون تفوتهم حركة مريبة، ولم يكونوا يعجزون عن التصرف بحكمة في إقامة واجباتهم العامة، وكانوا في الوقت نفسه حريصين على ألا يتصرفوا تصرفًا يخل بالقانون أو بالنظام، بل كـانوا حـريصين على ألا يكونوا مـحل ريبـة أو شك أمام أحـد، فاستطاعـوا أن يشعروا كل إنسان أنهم ليس لهم هدف دنيـوي، فتاب على أيديهم خلق كثير، وانصهر فيهم أصنـاف من الناس، وعاد إلى الإسلام كثير من أصحاب الاتجاهات المنحرفة فكريًا أو سلوكيًا.

وقد دامت دار الفقراء فترة طويلة من الزمن استغرقت قـسمًا من حياتنا الجامعية وبعد الحياة الجامعية عندما نكون في حماة.

***

الباب الخامس

من السادسة والعشرين إلى التاسعة والعشرين

(١٩٦١-١٩٦٤م)

• التدريس والخدمة العسكرية

كان بين تخرجي من الجامعة وثورة حماة عام ١٩٦٤ ثلاث سنين تقريبًا قضيتها في التدريس وفي الخدمة العسكرية الإلزامية وكانت هذه المرحلة ثرة بعطائها وتجربتها وما جرى فيها.

فقد شهدت هذه المرحلة عهد الانفصال كما شهدت انقلاب ٨ آذار (مارس) ومحاولة الإطاحة بالبعثيين في تحرك ١٨ تموز (يوليو)، وشهدت الانتخابات البرلمانية زمن الانفصال وعودة الحياة الديمقراطية إلى سورية، وشهدت عودة الإخوان المسلمين بشكل غير مرخص لممارسة شيء من نشاطاتهم، ولعل من أهم جوانب الحياة إثارة في سورية الحياة الطلابية والحياة العسكرية، وقد مارست التدريس في هذه المرحلة ودخلت الجيش ولعله من المناسب أن نقف عند هذه الأمور لنأخذ بعض عبرها:

(١)

في السنة اللاحقة لتخرجي من الجامعة أعلن عن مسابقة لانتقاء مدرسي تربية إسلامية فتقدمت لذلك مع عدم حرصي على الوظيفة ولكني فعلت مراعاة للوالد، كان يستوي في أعماق نفسي النجاح فيها وعدمه، وعندما أعلنت النتيجة ظهر اسمي مع الناجحين وكانت هناك إجراءات لابد منها، منها مقابلة المخابرات في دمشق، وقد دعوت الله عز وجل ألا يتم ذلك لكراهتي لأمثال هذه المقابلات وفعلا قد حدث ما تمنيت.

كان ذلك قبيل بدء الانفصال بقليل، عندما حدث نزاع بين عبد الحميد السراج وعبد الحكيم عامر، اعتزل على أثرها السراج فاضطربت أجهزة المخابرات فتأجلت

مقابلتي ثم ألغيت، وكـان تعييني في محافظة الحسكة فـالتحقت بها. وفي طريقي إلى الحسكة مـررت بحلب فوجدت فيهـا شابا من رأس العين من تلاميـذ الشيـخ عبد القادر عيسى جاء إلى حلب طلبا للعلم فلما علم أنني متوجه إلى الحسكة قرر الرجوع معي ليأخذ العلم مني وكان ذلك.

ذهبنا إلى الحسكة ونزلنا عند الأخ (م).

ثم سافـرنا إلى رأس العين ريثـما يبـدأ التدريس، وأعلن الانفـصال ونحن في رأس العين ثم التحـقنا بالتدريس وكان عامًا دراسيًـا صعبًا، وكان مجـمل أعمالي فيه: التدريس المدرسي، وخطب الجمعة، والتدريس المسجدي.

درست في دار المعلمـين وفى ثانوية الحسكـة ثم نقلت إلى القامـشلى على أثر بعض الخطب في المسجد الجامع.

فقد ألقـيت خطبة تحدثت بها عـما بشرت به التوراة والإنجـيل برسول الله ﷺ وكان الصوت مسموعًا لأهل الحسكة وقسم كبير منهم من النصارى مما جعل بعض رجال الدين النصارى يطالبون بنقلي من الحسكة.

وفي الأيام نفسها أرادت ثانوية الحسكة أن تقـيم ليلة سمر ذات فقرات منكرة وصاروا يبيعون تـذاكرها للناس فألقيت خطبة جمعة حـذرت الناس فيها بشكل خـفـيف من مـثل هذا، لكن أحـد رواد المسـجـد حرض النـاس على التظاهر احتجاجًا بعد الصلاة فخرجت مظاهرة، المهم أنني نقلت بعد ذلك إلى القامشي لأدرس في مدرسة خاصة لآل الخزنوي فكنت أذهـب يوميًا إلى القامشلي وأعود إلى الحسكة.

وجدت فـقراء المسلمين ولا أحـد يقوم بشأنـهم فحرضت على إنشـاء جمعـية للنهضة الإسلامية على غرار أمثالها في حماة وحلب ودمشق.

كانت عـلاقاتي طيـبة بأكـثر من جهـة: بعض رؤساء العـشائر، بعض شـيوخ الدين، وكنت وقتذاك لم أزل مستغرقًا بالحياة الصوفية.

وفي جو الغربة وجدت مجموعة من المتحابين في الله ليس لهم هم إلا الدعوة إلى الله، وكان مركز تجمع هؤلاء دار الحاج عبد الكريم الشامي -رحمه الله- وكان المحرك لهؤلاء أحد تلاميذ الشيخ أبي الخير الميداني -رحمه الله- وهو دمشقي لم أجد مثل صفائه ووده إلا قليلاً.

كنت أتردد على رأس العين بلدة تلميذنا وهي فيما يبدو لي بلدة تصلح لحمل المبادىء.

درست الأخ المذكور فقهًا وتوحيدًا وشيئًا من اللغة العربية.

وحدثت خلال هذه السنة انتخابات، وقد طلب مني الإخوان المسلمون في حماة العمل لدعم قائمتهم وجئت إلى حماة، وكان أن ألقيت خطبة شديدة تناولت فيها من يعطون أصواتهم لمن لا يؤمن بدين الدولة الإسلام وكان لذلك أثره، واستطعنا عبر إخواننا ومن نثق به أن نعمق التأييد لمرشحي الإخوان.

وفي العطلة الصيفية تابعت مع إخوان الطريق الدعوة إلى الله وإقامة الحلقات العلمية وعملت على أن تنتقل وظيفتي إلى حماة وكان ذلك.

وبعد أن نقلت إلى محافظة حماة عينت في السلمية مدرسًا للتربية الإسلامية، وتدريس التربية الإسلامية في مدارس السلمية له وضع خاص، فالسلمية هي عاصمة الطائفة الإسماعيلية تاريخيًا ثم أن في منطقة السلمية قرى نصيرية، والإسماعيليون نوعان فمنهم من يؤمن بآغا خان وأسرته ومنهم من ليس كذلك، فالأولون يعطلون العبادات الإسلامية ويمارسون شعائر خاصة بهم أما الآخرون فيقيمون الشعائر الإسلامية.

والأقليات المذهبية والدينية في سورية كانت تتطلع دائمًا إلى نظام علماني، والأحزاب العلمانية كحزب البعث والحزب القومي السوري الاجتماعي والحزب الشيوعي كانت تركز على هذه الأقليات، لذلك كان التدريس الديني في السلمية يعني مواجهة فكر مذهبي وفكر سياسي يقوم على رفض فكرة التدين.

ومع هذا فقد كان لمخاطبة العقل ولقوة الحجة ولرقة الحاشية آثارها في تخفيف حدة المواجهة بل لكسب كثيرين لصالح التدين.

(٢)

التحقت بالخدمة الإجبارية في ٥ كانون ثاني (يناير) ١٩٦٣ وبقيت فيها حوالي سنة وأربعة أشهر ثم دفعت بدلاً وكانت المدة المتبقية ثمانية أشهر تتمة السنتين.

قضيت حوالي ستة شهور في كلية ضباط الاحتياط في حلب ثم فرزت إلى فرع السجلات العسكرية في مبنى الأركان القديمة في دمشق.

ومن ذكرياتي في كلية ضباط الاحتياط:

أنني اصطدمت مع المتقدمين أكثر من مرة واصطدمت مع بعض الناس فقد وجدتني في مجتمع ذئاب فتحركت عندي عاطفة التحدي.

يوجد في أنظمة الكليات العسكرية نظام المتقدمين، وهو نظام يعطي لأبناء الدورة الأقدم سلطانا على الجهة الأحدث لصالح فرض النظام وتعميقه وتعويد الجدد الأنظمة المرعية في هذه الكليات ويعطونهم حق العقوبات المتعارف عليها عسكريا من عقوبة الزحف والجري وأمثال ذلك.

رأيت المتقدمين يصطدمون مع أخينا الشيخ مصطفى الأعسر - رحمه الله - أثناء الخروج من المطعم وهم مجتمعون عليه فركضت لأحجز بينهم فحاول مسئول المتقدمين منعي من ذلك فرفعت صوتي عليه وعلى المتقدمين فاحتشد الناس وكان المتدينون كثيراً فانسحب المتقدمون ثم جاء مسئول المتقدمين ومعه نفر منهم إلى مهجعنا وأخذ يتفقد طلاب الضباط حتى وصل إلي فاصطدمت معه فتدخل أحد المتقدمين الحمويين وسحبه من المهجع فشكاني المسئول إلى الضابط المناوب فاستدعاني وكان درزيا فهونت ما حدث وقلت له: ما جرى بيننا وبين فلان كان بداية مودة وما ذلك إلا من نوع:

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يابثين حجار

وانصـرفنا نحن الاثنين ومر الأمـر دون مضـاعفـات، واصطدمت مـرة أخرى بالمتقدمين حين فرضوا عقوبة جماعية على مهجعنا فشاركت فيها، حتى إذا تجاوزوا الحدود تمردت وانتهت العقوبة ولم تحدث مضاعفات.

وكان أحد مدربينا مدرسًا جامعيًا وهو ضابط احتياطي نصراني، وكانت سريتنا غير مسلحة وأكثـرها ممن تقدم في السن نسبيًا ولذلك لم نكن نهتم كـثيرًا بالنظام المنضم ولا نوجه له كل همنا، وفي ساعة تدريب ونتيجة لبعض التساهلات والمداعبات، وجه لي الضابط كلمة قاسية فقفزت بلا وعي وهددته فانسحب، ولحساسية الأمر لكونه بين شيخ مسلم وضابط نصراني فقد اكتفى بالاعتذار وقد اعتذرت.

مررت مرة على اثنين يختـصمان أحدهما شيخ حمصي، وقد سـفه الثاني عليه فسبه وسـب المشـايخ معه، فـجئت إليه وقلت له: أنا من المشـايخ: فقال أنا لا أقصـدك، فدفعـته فـألقيتـه أرضا ثم مـضيت وكأني لم أفـعل شيـئًا ولم يكن للموضوع مضاعفات.

وفي كلية ضباط الاحتياط قررنا أن نقيم صـلاة الجمعة فأقمناها أكثر من مرة، وتضـايق من ذلك بعض ضبـاط الكلية فـحاولوا منعـنا فلم يفلحوا فـأعطونا إذنا للصـلاة في الخارج، فـزاد عدد الراغـبين في الـصلاة للرغـبة بالخـروج إلى البلد واستمرت صـلاة الجمعة، لقد كانت كليـة ضباط الاحتياط فرصـة تعرفنا بها على عدد كبيـر من الناس وكانت فرصة للدعوة وأن أنس فلا أنسى كـثرة الصائمين في رمضان مما يدل على أصالة شعبنا وقربه من الإسلام لو وجد قادة ودعاة وحرية.

حدث انقلاب الثامن من آذار (مارس) ونحن في الكلية واعتقل بعض الضباط، وتمت مباحثات الوحدة بعد ذلك في القـاهرة وأعلن عن ميثاق الوحدة الثلاثية بين سورية والعراق ومصر وكانت فرصة كبيـرة هتف فيها المتدينون بهتافات الفرح فلقد كان التقدير العام أن الوحدة لصالح الإسلام.

وخزيت جهات كـثيرة بسبب ذلك وشعـر الوحدويون وكلهم سنيون أن النفـس الحقيقي للمتدينين نفس وحدوي فكان ذلك عاملاً من عوامل تعاطفهم معنا.

وخلال وجودي في كلية ضباط الاحتياط تيقنت أنه لابد من المشاركة في العمل الإسلامي العام وأن الطريق إليه هو الاستغراق في العمل مع الإخوان المسلمين.

وأخيرًا فرزت إلى السجلات العسكرية فأصبحت في دمشق، وكان وقتي مقسما بين السجلات والعمل مع طلاب الجامعة الحمويين وفي هذه المرحلة تقدمت إلى الإخوان المسلمين بوجهة نظري حول النظرية الثقافية والتربوية التي يجب أن يقوم عليها صرح البناء العلمي والروحي للإخوان، وقد رفع ذلك باسم مركز حماة، ولقيت النظرية قبولاً وإجماعًا وكلفت أن أضعها موضع التنفيذ وكان من آثار ذلك أكثر ما كتبته فيما بعد، عكفت على الكتابة وعلى توجيه الإخوة الحمويين ولقد تنامى عدد الطلاب الحمويين في جامعة دمشق، وجدت بينهم روح جديدة.

وما عدا العمل مع طلبة حماة في الجامعة والكتابة فقد كانت حياتي عادية، كان عصام العطار يحاول إعادة بناء الجماعة وكان يخطب خطبا نارية في مسجد دمشق، وكان البعثيون متمكنين وكانوا يهزأون من مثل هذه الخطب وكان هذا عاملا من عوامل تحركنا في حماة فيما بعد.

بعد سنة وأربعة أشهر من الخدمة الإجبارية خرج قانون يبيح لطلاب الضباط غير المسلحين من دورتنا أن يدفعوا بدلاً فدفعت وسرحت واستقبلت حياتي المدنية بخطبة في مسجد جامعة دمشق، تحدثت بها عن الآفاق الرحيبة التي ينطوي عليها تطبيق الإسلام، ودعوت إلى وحدة العمل الإسلامي، وأثناء خدمتي في السجلات العسكرية قامت محاولة ١٨ تموز (يوليو) الفاشلة واعتقل على أثرها بعض العاملين معنا في السجلات.

وحدث أن آل إلي أمر رئاسة القسم الذي أعمل فيه وكان العمل متراكما، فأحصيت إنتاج الفرد يوميًا ثم حسبت البطاقات المتراكمة، وقدرت العدد اللازم والأيام اللازمة لإزالة التراكم وحدثت بذلك الضابط المسئول عن السجلات العسكرية وطلبت أن يتسلم غيري الإدارة فكان ذلك كله وأنهينا التراكمات.

كان في القسم شيخ صالح من دوما وكان عمله خطاطا وكان حلو الحديث فكها، وكان فيما بين أفراد القسم حسن علاقة ومودة، وكان رئيس القسم دمشقيا

من الميدان وكانت زوجته حموية وكان يعتز بهذا الزواج وكان جونا أقرب ما يكون إلى الأسرة الواحدة لذلك لم نكن نحس بالزمن.

كان المسئول عن السجلات العسكرية العقيد كمال الدين مقصوصة وهو دمشقي من الميدان وكان متدينا رقيق الحاشيـة وكان يعتبر من أكفأ العسكريين الإداريين في سورية، ولقـد تغيبت مرة عن الدوام دون إجـازة بسبب بعض اللقاءات الإخـوانية فاستدعـاني وعاتبني برفق ولم يتخذ أي أجراء ولقد آل إليه بعـد ذلك أمر التجنيد في سورية عام ١٩٦٧ وقد اغـتيل أيامها، كما شاع وقـتذاك وادعي أنه انتحر ولم يكن الرجل لينتحر وهـو متدين ولكن هكذا زعموا وقـيل: أن السبب في قتله أنه رفض أمرا غير معقول فقد كلف أن يستدعي من المجندين المسرحين أبناء المدن فقط فاعتذر بأن هذا مستحيل فعوقب بالقتل وادعوا أنه انتحر وخرجوا بجنازته.

لقد كان الاغتيال السياسي والقرارات الحاقدة جزءين رئيسيين من السياسات التي حكمت سورية منذ تلك المرحلة.

خطبت فتاة دمـشقية بواسطة أخينـا ولم أتابع الأمر بسبب سفر الأخ والتـحاقه بعمله المدرسي.

وأخيرًا خطبت أم محمد بواسطة الشـيخ مصطفى الأعسر - رحمه الله - وتمت الموافقـة ثم جاءت أحداث حـماة العاصفة ولم يتم الزواج إلا بعـد أن عدت إلى سورية وعادت الأمور طبيعية.

وأنني أحب ههنا أن أسجل بعض ملاحظاتي حـول تجربتي ومشاهداتي في هذه المرحلة:

الملاحظة الأولى

أن النجاح الحق في التدريس يقتضي عددًا من الأمور:

أولاً: أن يحضر المدرس درسه تحضيرًا جيدًا وألا يعتمد على محفوظاته فقط بل لابد من التحضير الجيد ورسم مخطط لكل درس.

ثانيًا: يجب أن يشعر الطالب أن عين المدرس لا تغيب عنه فمتى غابت عين المدرس عن طالب فإن ذلك قد يحدث خللا.

ثالثًا: أن العلاقة الأبوية الحانية والإيناس المستمر للطلاب وشعور كل طالب بالحب والحنان وكل ذلك مع الحزم والعدل عوامل لابد منها لنجاح المدرس الداعية.

رابعًا: أن العلاقة الطيبة مع آباء الطلاب وأهليهم عامل مساعد في نجاح الطالب وفي تحسين سلوكه.

الملاحظة الثانية

أن الحياة الإنتخابية في العالم الثالث لا قيمة لها إذا لم تكن مدعومة بالجيش والشعب بآن واحد، وأن سورية تحتاج إلى حياة نيابية يحميها الجيش والشعب وهذا لن يتم لسورية إلا إذا وجد دستور وميثاق وقانون انتخابي ذا مواصفات وشروط إذا ما أردنا أن تشكل سورية المستقبل أنموذجا رفيعًا مستقرًا.

الملاحظة الثالثة

أول ظاهرة تلفت نظر المعايش للجيش العربي السوري كثرة السباب والشتائم لله والأديان حتى لتكاد هذه أن تكون وسيلة السيطرة للأعلى على الأدنى، ووسيلة المؤانسة بين المتماثلين، ولقد اعتاد على ذلك الجميع، وكأن التدين في الجيش ظاهرة فردية ومحدودة، حتى أنه أصبح من المعتاد إذا دخل المتدين الجيش أن يترك دينه إلا من رحم ربي.

وكان من المستغرب في طبقات الضباط أن يذكر الإنسان الله باحترام وإجلال، وإذا حدث أن توسعت دائرة المتدينين في صفوف الضباط فإن التسريحات تطالهم بسرعة، فلا يبقي متدين في الجيش إلا من لا شوكة له، وقد حدث أن سفى بعض الضباط زميلاً لهم لأنه متدين فأردوه قتيلاً، ولهذا الوضع جذور عميقة، فقد ورثت سورية الجيش الذي كونته فرنسا ليأتمر بأمرها وليكون ولاؤه لها، وكانت تنتقي لهذا الجيش من صفوف الأقليات أو تتخير العناصر الفاسدة التي فقدت عواطفها الخيرة وتعاطفها مع الناس وتعاطف الناس معها أو من تختارهم لأسباب

خفـية كأن كانت أصـولهم جواسيس مثـلاً وقد تدخل بعض العناصر النظيـفة ذرا للرماد في العيون وتجعلهم تحت الرقابة أو السيطرة المباشرة إو في زوايا ميتة.

وكان بعض هؤلاء يدينون لفرنسا بنوع من الولاء عجيب، حتى أن بعض هؤلاء التحقوا بالجيش الفـرنسي بعد الاستقلال وبقوا فيه ستـة أشهر ثم عادوا إلى الجيش السوري وهـم الذين يسمـون بأصحاب الـبطاقات الحمـراء، ولقد مـرت عليّ في السجـلات العسكرية بطاقة واحـد من هؤلاء وقد كتب عليـها أربعة أسطر بالحـبر الأحمر تذكر أن هذا الذي فضل خدمة المستـعمر على خدمة بلاده، ومن العجيب أن هذا الجندي كان قـد سرح لكنه استـدعى بعد انقلاب الثـامن من آذار (مارس) ليخدم في الكتيبة المكلفة بحماية مبنى الأركان، وكان ذلك مؤشرًا على المستقبل.

كان المفروض أن يحل الجيش السوري بعد الاسـتقلال وأن يعاد تشكيله من جديد على أسس سليـمة ونظرية واضـحة المعـالم، وبلغني أن شكري القـوتلي أول رئيس لسورية بعد الاستقلال قد نصح بذلك لكنه رفض، ومن ههنا تبدأ مأساة سورية.

فسورية بلد شـديد التعقيـد من الناحية الدينية والمذهبـية والتاريخيـة والحضارية ولشعـبه نفسـية خاصة فـأكثر أبنائه طمـوحون للحكم وللمشـاركة فيـه والسوري يستـشعر أن عنده قـدرات إبداعية والتطـلعات إلى الجديد عـميقـة والحرص على الجذور، والتـدين كامن في أعمـاق النفوس وهو أظهر مـنه في أقطار أخرى، ثم ابتليت سورية بالحركة الصـهيونية وبالتيارات العالمية وهذا وأمـثاله كان يقتضي من القائمين على أمـر سورية بعد الاستقلال أن يـوجدوا الإطار النظري المناسب لهذه الأوضاع المعـقدة ولكن ذلك كلـه لم يحدث فدخلـت سورية مرحلة الانـقلابات ودخلت في إطار الديكتاتوريات: دكتاتورية الفرد ودكتاتورية الحزب، وكان الجيش يلعب الدور الأكبر إن لم يكن الوحيد في كل ما يجري.

ونتيـجة لتدخل الجـيش السوري في السـياسة فقـد أعطى هذا المبرر للجـهات المتعاقبة للتصفيـات مما أحدث خللا في التوازن الطائفي في الجيش فأوصل الطائفة النصيرية إلى الحكم في المآل.

لقد كان الجيش السوري مرشحا لأن يكون أقوى الجيوش وكان الاقتصاد السوري مؤهلا لأن يكون أقوى اقتصاد ولكن قضي على هذا كله عدم وجود النظرية السياسية التي يرتاح لها الجميع وعدم وجود الاستشراف على أوضاع البلد والمنطقة والعالم وعدم وجود الكفاءة في الحياة الحزبية وفي الحاكمين هذا مع ما في الخفايا من بلايا كالارتباطات الخارجية والتآمر المحلي والعالمي.

هذه المعاني أوصلتني إلى قناعات:

أن العمل السياسي في سورية ينبغي أن ينبثق عن عمل حزبي مستكمل لشروط العمل السياسي الذي يستوعب وضع سورية الديني والنفسي والاجتماعي والحضاري والمحلي والعربي والإسلامي والعالمي عبر التزام جميع العاملين بالإسلام دينا للدولة.

وأن يعاد ترتيب الجيش بحيث يكون سندا وشريكًا.

وأن توجد نظرية انتخابية يستشعر معها الشعب أن من انتخبهم يعتبرون ممثليه الحقيقيين وهذا يوصلنا إلى ملاحظة رابعة.

الملاحظة الرابعة

تظهر في تاريخ سورية الحديث ظاهرة الانقلاب بعد كل تجربة برلمانية ويلاحظ أن عامة الشعب السوري تستقبل الانقلاب بابتهاج لأن التجربة الانتخابية لم تجعل الشعب يحس أن النظام الذى وجد عقب الانتخاب نظامه، وذلك لأن بعض الانتخابات جرى فيها تزوير وبعض الانتخابات كانت تقذف إلى المجالس النيابية بغير المتمرسين في الحكم وبغير المؤهلين له، وبعض الانتخابات كانت نتائجها لا تمثل الأجيال الصاعدة المثقفة، وبعض الانتخابات لم تكن ترضي الجيش وبعضها لم يكن يرضي المتدينين، وكان من صورها الواضحة أن تتحكم الأقلية في الأكثرية فإذا ما اتفقت أقلية دينية أن ترجح جانب مرشح يمثلها فإنها كانت تستطيع أن تنجح من لا يمثل الأكثرية وهذا كله جعلني مقتنعا أنه لابد من قانون انتخابي جديد لسورية المستقبل.

لقد أعطت حماة في انتخابات الانفصال للقائمة التي نزل بها الإخوان المسلمون أكثرية الأصوات لكن جاءت نتائج منطقة الريف التي فيها أصوات نصيرية ونصرانية فرجحت قائمة أكرم الحوراني.

وفي حلب كاد أن يسقط الذين أخذوا أكثر من ثمانية عشر ألفا من أصوات المسلمين لصالح الذين أخذوا خمسة آلاف صوت من المسلمين ودعمهم نصارى حلب.

كانت أجود تجربة انتخابية هي التجربة التي تمت في زمن الوحدة إذ قسمت سورية إلى وحدات صغيرة حتى البلد الواحدة قسمت إلى وحدات صغيرة فكانت النتيجة أن كانت النتائج متوازنة ولكن إعطاء عبد الناصر لنفسه حق الاختيار من بين الناجحين -لأن الانتخاب كان على درجتين- أوجد وضعا جديدًا.

المهم أن تجربة الحياة النيابية زمن الانفصال جعلت عندي قناعات ثابتة في ضرورة الحياة النيابية من جهة وفي ضرورة أن يكون ذلك على ضوء نظرية مناسبة في سورية.

أنني أميل إلى فكرة الانتخاب على أساس البرنامج الحزبي وعلى أساس إعطاء الصوت للحزب أو على أساس الدائرة الانتخابية الضيقة.

الملاحظة الخامسة

لقد أصبحت عندي قناعة كاملة أنه بلا تربية روحية على ضوء علم صحيح وبيئة نظيفة فإن الشخصية الإسلامية لا تنموا نموا سليمًا وبالتالي فإن المجتمع الإسلامي المنشود سيبقى أملاً، ولا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله، فقد بدأت الدعوة بهذه الأجواء ولابد من هذه الأجواء لتنطلق انطلاقة صحيحة وكان الأمل أن يتبنى الإخوان المسلمين إنشاء هذه الأجواء وتلك طبيعة الدعوة على منهاج الأستاذ البنا لكن الأجواء الأخرى كانت تغلب هذه التوجهات، وكان لذلك أثره في توجهي نحو إنشاء حركة إحياء الربانية كمكمل للعمل الإسلامي القائم لا كبديل.

ولنعد إلى سرد الأحداث، فبعد أن سرحت من الحياة العسكرية عدت إلى التدريس في السلمية ولم تمض إلا أيام وقامت ثورة حماة سنة ١٩٦٤.

ومن ذكريات التدريس في هذه الأيام القلائل، أنني عينت في ثانوية السلمية للبنات، وكان ذلك مقصودا، وكما ذكرنا فإن السلمية عاصمة الطائفة الإسماعيلية والحزبية العلمانية فيها قوية، ولذلك لم يكونوا رجالاً ونساءً يرغبون في درس الدين، وقد اعتادت بنات الثانوية أن يستقبلن مدرس التربية الإسلامية بأصوات مرتفعة وضجيج صاخب وقد جرت عادتي في التدريس أن ألبس عمامة وجبة، وكان جسمي ضخما كما هو معروف وكان بعض أهل السلمية يشبهونني ببعض الأئمة.

المهم أنني كنت أتهيب الدخول الأول إلى ثانوية البنات بسبب ما ذكرت ومع ذلك دخلت دون مقدمات فلم أسمع الأصوات المعتادة ثم علمت فيما بعد أن فتاة قد أغمي عليها وشغل البنات بها، وعلل لذلك أنها أغمي عليها عندما رأتني وأعتقد أن الأمر ليس كذلك ولكن الله عز وجل أعان، وكان تدريسي في اليوم الأول كافيا بفضل الله لأن يوجد جوا من الهيبة والاحترام، انتهت به تلك العادة السيئة ولكن الأيام لم تطل فقامت أحداث حماة (١٩٦٤).

(٣)

حيثما وجدت حياة انتخابية حرة في سورية فإن الإسلام بخير لأن التدين الأصيل في سورية يفرض نفسه على المرشحين جميعًا والناجحين في النتيجة إما متدين أو مضطر لمراعاة التدين وتجربة الانتخابات زمن الوحدة كافية كمؤشر، فإذا ما وجد قانون انتخابي يمثل فئات الشعب تمثيلاً صحيحًا ووجد شعب وجيش يحمي الحياة النيابية فذلك هو الوضع الأمثل للإسلام وللشعب السوري، والحماية المطلوبة من الشعب أن يعلن المقاومة السلبية من إضرابات وغيره إذا مست الحياة النيابية وإذا لم تنجح هذه الأساليب فعليه أن يعلن الثورة فهذا وحده يردع عن المس في الحياة النيابية وأما حماية الجيش فبأن تكون عبر حماية الدستور والتدخل إذا مس الدستور بحكم المحكمة الدستورية العليا.

أن الحياة النيابية الحزبية هي التي تنضج البرامج السياسية وهي التي تنضج الوعي السياسي للمواطنين وهي التي تخرج القادة السياسيين الحقيقيين، وبلد كسورية لابد أن يراعي في حياته النيابية أنه بلد مهدد بالحرب وبالتالي لابد من صيغ أمنية وعملية تحمي قرارات الساسة من الخطأ.

ولقد دخل الإسلاميون في سورية تجارب انتخابية متعددة تحتاج إلى دراسة واستخراج عِبر، كما أن لهم ممارسة نيابية تحتاج إلى دراسة واستخلاص نتائج، لقد دخلوا الانتخابات أحيانًا ببعض الأسماء مجتمعة ومنفردة دون أن يشكلوا قوائم كاملة ودون تحالفات فأعطوا فرصا لغيرهم، ودخلوا أحيانًا في تحالفات وقوائم متفق عليها تضمهم وتضم غيرهم كما حدث في حماة إذ قامت لجنة تمثل كل القوى المقابلة لأكرم الحوراني ونزل الإخوان مع غيرهم في قائمة واحدة ضمت أحد النصارى وربحوا الجولة داخل المدينة وخسروها خارج المدينة، كما شاركوا في وزارات، وهذا يثري التجربة الإسلامية لكن ذلك كله يجب أن يدخل في دائرة الدراسة والمدارسة للوصول إلى وضع أمثل للتحرك الإسلامي في سورية وبالتالي الوصول إلى وضع أمثل في سورية تكون الحياة النيابية جزءًا منه ويرتاح فيه المواطنون وتكون السياسة السورية الخارجية فيه على منتهى الحكمة وتكون فيه سورية في غاية القوة ويبقي القرار السوري بيد أمينة وحازمة ومستوعبة أوضاع الداخل والخارج، وتلعب فيه سورية دور المنسق للسياسة العربية والإسلامية بانية علاقات حميمة مع كل الحكومات العربية والإسلامية.

(٤)

كانت أكثر القوى الفاعلة في سورية ساخطة على الانفصال: الجيش والطلاب والموظفون والمثقفون وكانت السلطة التي آل إليها أمر الحكم ضعيفة، وكان من أوائل مظاهر الضعف أنها لم تستطع أن تعبيء القوى المؤمنة بالحياة النيابية في معسكر واحد، ولما أحس الجميع بضعفها كثر الراغبون في إنهائها وإيجاد وضع بديل، ولقد حاول بعض المتدينين في الجيش أن يفعلوا شيئًا فـفشلوا، وتلاهم

البعثيون والناصريون وبعض الطامحين فقاموا بحركة انقلابية في ٨ آذار (مارس)، وكان البعثيون هم الجهة الأقدر على المبادرة والتخطيط فصفوا شركاءهم جميعًا وانفردوا بحكم سورية وكان الرد الأول هو محاولة الناصريين أن يقوموا بانقلاب وكان ذلك في ١٨ تموز (يوليو) لكن الحركة فشلت في ساعاتها الأولى وكان لفشلها أسباب كثيرة. منها أنهم علقوا كل شيء على احتلال الأركان والإذاعة بدلاً من أن يتحركوا على كل صعيد فيستولوا على القطاعات العسكرية حيث أمكنهم ذلك فإذا فشلت حملة الإذاعة تحركوا من كل مكان نحو دمشق، المهم أن الحركة فشلت، ولقد كانت أقوى رد فعل ضد استلام البعث السلطة وكان التحرك الشعبي الذي يعتبر رد الفعل الثاني هي تحرك حماة (١٩٦٤).

● في القوى التي أقامت انقلاب ٨ آذار (مارس) والقوى التي استثمرته

كان الانفصال صدمة عنيفة لمشاعر كثير من الشعب السوري، فالروح الوحدوية عميقة في سورية والتطلعات الوحدوية تصل إلى حد المباديء ولذلك فإن الانفصال مع أنه أعاد الديمقراطية إلى سورية وأفرز إلى سدة الحكم كفاءات سياسية مشهورة لم يكن قويًا لأن المثقفين عامة منهم الموظفون وقطاعًا كبيرًا من الجيش والطلاب وعامة السنيين كانوا يتطلعون إلى الوحدة، وأدرك حزب البعث بزعامة ميشيل عفلق هذه الحقيقة، فتبنى فكرة العودة إلى الوحدة، وكان تركيب حزب البعث طائفيًا إلى حد كبير، فأعطى هذا للتطلعات الوحدوية زخمًا كبيرًا، ووجد أناس طامحون شعروا أن النظام ضعيف فقرروا وراثته، ومن الثابت أن قوى خارجية كانت مقتنعة بتغيير النظام، فاجتمع هذا كله فقام انقلاب ٨ آذار (مارس) وبدأت تصفيات فى الجيش وإدخال قوى بعثية كثيرة إلى الجيش، وتمكن النصيريون من المرحلة الأولى أن يتحكموا بالجيش إلى حد كبير، وبدأت مفاوضات وحدوية، في الظاهر مع عبد الناصر، انبثق عنها ميثاق ١٧ نيسان (ابريل) الذي يعلن الوحدة بين مصر وسورية والعراق، ولو أن هذا الميثاق نفذ لتغير تاريخ المنطقة، ولكن هناك من أراد أن يجعله صورة، فبدأ الخلاف الشديد بين عبد الناصر والبعثيين وترتب عليه أن حاول الناصريون القيام بانقلاب فى ١٨ تموز (يوليو) ففشلوا، وصفى الوضع

لصالح البعثيين فقط، وهذا يعني أنه قد صفى الوضع لصالح الأقليات في سورية، فالحزب كان يقوم في الغالب على الأقليات.

وبدأ الصراع الداخلي في الحزب والحكم فصفيت كل القوى في النهاية لصالح القوى النصيرية، وأدى هذا في النهاية إلى أن تحكم سورية من قبل الطائفة النصيرية تحت واجهة حزب البعث والجبهة الوطنية، واستطاعت الطائفة أن توجد تعاقدات وتحالفات وأجهزة واستطاعت بذلك كله أن تتمكن من حكم سورية حتى كتابة هذه السطور.

والسؤال الكبير الآن هل تفكر الطائفة النصيرية أن تبقى مسيطرة على سورية إلى الأبد، وهذا مستحيل، أو أنها تفتش عن حل معقول، وتعايش معقول بين أبناء الشعب السوري كله، إننا لا زلنا نأمل أن يحكم التعقل في المستقبل أبناء الطائفة النصيرية.

● في تطور العمل الإسلامي في هذه المرحلة

أصبح العمل الإسلامي في سورية ناميًا وبارزًا وهو وإن لم يشكل أهله تنظيمًا واحدًا، لكن المثقفين منهم كانوا يصلون إلى الإيمان بفكر حسن البنا، فأصبح فكر حسن البنا قاسمًا مشتركًا بين المثقفين الإسلاميين لا يكاد يعترض عليه أحد. ومن ههنا أصبح التيار الإسلامي يشكل قوة كبيرة على كل مستوى، كان المفترض أن يرث الإسلاميون عهد الانفصال، وكان بإمكانهم ذلك لكن الإسلاميين ساروا على سياسة «أوسعتهم سبا وأودوا بالإبل»، وغيرهم سار على سياسة «تمسكن حتى تمكن».

أن ضعف التخطيط وضعف المبادرة كانا مؤثرين في أن سارت سورية بعيدًا عن الإسلام والإسلاميين ففاتت بذلك فرصة من أعظم الفرص.

لو أنك تأملت الساحة الإسلامية لوجدت كثرة العاملين فالإخوان المسلمون بتنظيمهم الذي يشمل مدنيين وعسكريين وعمالا وموظفين وطلابًا وخريجين وذكورًا وإناثًا، وحزب التحرير يعمل على ضعف وشغب، والاتجاه السلفي يعمل بقوة ودأب، والصوفيون يعملون وهم متغلغلون في جسد الشعب السوري،

فحيثما توجهت وجدت عملاً صوفيًا، وقد يكون يرتبط به عشرات الآلات من المريدين، والعلماء الفقهاء يعملون، وكنموذج على عملهم عمل الشيخ عبد الكريم الرفاعى، بل أنه وجد عمل نسائي عظيم، وكان أبرزهم في الساحة السورية عمل الآنسة منيرة القبيسي، فقد استطاعت أن توصل الإسلام إلى آلآف من النساء واستطاعت أن تقيم ترتيبًا نسائيًا هائلاً، ولولا أن الحرية قد هدمت في سورية لكان لعملها شأن عظيم.

ومن المظاهر الواضحة لقوة الإسلام في سورية أنك أصبحت ترى كثرة الإسلاميين في الجامعات وكثرة المصلين من العسكريين، ولكن ضعف بنية التنظيم في الداخل، وقوة التآمر في الخارج والسنين الخداعة حالت دون أن يرث الإسلاميون عهد الانفصال.

● في ثورة حماة ١٩٦٤

كان جو حماة ملتهبا عام ١٩٦٤ لأسباب كثيرة أهمها أن كل أهلها كانوا ضد النظام الذي كان قائمًا، سياسيين ومتدينين عامة ومثقفين، فالناصريون ضربوا في ١٨ تموز (يوليو) وكان لهم ثأر، أكرم الحوراني وجماعته كانوا مبعدين ومضطهدين، والمتدينون يعتبرون النظام موغلا في العلمانية.

وبدأت صحف السلطة تتكلم كلامًا مثيرًا فقد نشر زكي الأرسوزي في مجلة الجيش والشعب كلاما تحدث فيه عن قصة آدم في القرآن فسماها أسطورة، وتحدث عن الجاهلية على أنها أرفع مظهر للنفسية العربية.

ودندن بعض وزراء النظام حول إلغاء الأوقاف وإلغاء مادة التربية الإسلامية.

وبدأ طلاب النظام يتحرشون بمدرسي التربية الإسلامية ويتحدثون عن القرآن أنه شعوبي واعتدى على أكثر من مدرس.

ثم اعتدى على الشيخ عبد الكريم الرفاعي من قبل رئيس مخفر غير مسلم في دمشق.

ونقل مدرسًا تربية إسلامية من حماة نقلا تعسفيا.

وحدث أن طالبا كتب على جدار عبارات ضد رجالات الحزب الحاكم فحكم عليه بالسجن سنة.

وجاء رمضان ذلك العام، وأقبل الناس على حلقات المساجد إقبالاً شديدًا وكانت الدروس تلتهب حماسًا، كل ذلك جعل المدينة بركانًا يغلي وأمام هذا الوضع فقد عرض أمر حماة على قيادة الإخوان المسلمين في سورية فأعطت إذنا محليًا لإخوان حماة أن يتصرفوا.

نقول هذا لأن بعض الإخوان أنكر أن يكون للجماعة دخل بما حدث في حماة وقد شهد بعد سنين على هذا الإذن: الأخ سليمان الرز من إخواننا في حلب.

وهكذا قررنا أن نتحرك في حماة.

أشار الشيخ محمد الحامد على المدرسين المنقولين من حماة أن يلتحقا بمقر العمل الجديد فوافقا، وكانت رغبته رحمه الله تسكين الأمور، لكن الجو كان متوترا وخاصة في صفوف الطلاب، ولذلك قررنا إضرابًا طلابيا شاملاً وعممنا على إخواننا أن يضربوا ويتفرقوا مباشرة وفعلا فقد تم الإضراب بنجاح كامل في كل مدارس حماة ونفذ الإخوان الأمر، لكن الشرطة وقوى الأمن حاولت أن تعتقل بعض الإخوة من ثانوية عثمان الحوراني، فتجمع الطلاب نتيجة لذلك، وكان المسئول عن ثانوية عثمان الحوراني هو الأخ مروان حديد - رحمه الله -، وتجمهر الناس حول الطلاب فنزلت مظاهرة، وكان محافظ حماة وقتذاك هو عبد الحليم خدام الذي أمر بإنزال الجيش، نزل الجيش وهو يهتف هتافات كفرية معادية للإسلام ولرسول الله ﷺ، وكانت هذه إحدى الظواهر التي جاء بها الحزب الحاكم إلى سورية، فألهبت المشاعر ضده، وأطلق الجيش النار على أحد المواطنين من آل الجواد فاستشهد، وفي هذا الجو الملتهب أمر محافظ حماة بإغلاق المدينة التي كانت مهيأة للإضراب الشامل فبدأ إضراب حماة الذي استمر وقتذاك تسعة وعشرين يومًا.

توجه بعض شبابنا وعلى رأسهم مروان حديد - رحمه الله - إلى مسجد السلطان واعتصموا به، وهناك نظموا إلقاء الكلمات النارية وبدأ أهل حماة يتوافدون

ويتـقاطرون على المسـجـد، وكانت أحـاديث شاملـة عن الوضع، عن كفـره وعن محاولاته لإلغاء مادة التربية الإسلامـية وعن توجهات النظام، والشعب يزداد اشتعالاً وهنا طلب محافظ حماة من أعيان البلد أن يجتـمعوا ليخلصوا إلى حل فتم اجتماع الناس في جامع الشيخ زين بحي الشمالية في الحـاضر بالقرب من بيت عثمان الأمين رحمه الله.

وكنت خلال ذلك أداوم على التـدريس في السلمية، التى عـدت إلى التدريس فيها بعد خروجي من الجيـش، والتي لم تغلق أبوابها مع حماة وكنت أرجع يوميًا إلى حماة بعد الدوام المدرسي.

اعتـقلت السلطة الشيـخ عبد الله الحـلاق، والشيخ سـعد مـراد وبدأت تساوم العلماء عليهـما وأخيرًا ضغطت على العلماء أن يصـدروا بيانًا يطالبون به البلد بأن تفتح أبوابها في مقـابل أن يطلق سراح الشيخين وفيمـا بين الخوف والرجاء أصدر العلماء بيـانا لكن الشعب رفض البيـان بعد جهـود بذلت مع الناس وأطلق سراح الشيخين وفي اليوم نفسه أصدرت السلطة بيانًا تحذر فيه الناس من فئة تستغل الدين وكان واضـحًا من مجمـوع الإجراءات أن السلطة تريد عزل الإخـوان لتبطش بهم وكان علينا أن نبقى الشـعب متعاونًا معنا إذا ما أردنا تفـويت الفرصة على السلطة كان هذا هو الموقف يوم جرى اجتماع مسـجد الشيخ زين في حي الشمالية والذي مجرياته على الشكل التالي:

اجتمع عدد من الناس في بيت عثمـان الأمين - رحمه الله - وتباحثوا في من يلقي الكلمة في المجتمعين وأخيرًا اتفق على أن ألقي الكلمة.

كان وضع الإخـوان المسلمين في خطر، وكان إخـواننا المعتصـمون في مسـجد السلطان في خطر وكان الحل الوحيد لرفع الخطر هو أن تبقـى المدينة كلها متلاحمة معنا، وإلا فإن ضربة شاملة للإخوان ستكون وستعلق رقاب الكثيرين من إخواننا.

لذلك طرحت في خطبتي على المجتمعين فكرة حلف كحلف الفضول بين أبناء حماة جميعًا وأن أي اعتداء على أي فرد مهما كان اتجاهه السياسي أو الديني يجب

أن تقف منه المدينة موقفًا موحـدًا ودعوت أن يختار كل حي عددًا من أبنائه لتنظيم التموين حيثما لو اضطررنا إلى استمرار الإضراب.

وفعلاً فـقد تم عقد اجـتماع ضم ممثلي الأحيـاء في غرفة المسجـد الواسعة، وهناك اتفقنا على أن تطوف لجنة منتخبة مـن الحاضرين واختاروا أن أكون على رأسـها لنقـابل زعمـاء الاتجاهات السـياسـية في الـبلد من أمثـال رئيف الملقي وجماعة أكرم الحوراني، واتفق على أن نلتقي في اليوم التالي في بيت آل الشيخ خالد في السـوق، وانفض الاجتماع على ذلـك، ونمت ليلتها في منزل عثـمان الأمين رحمه الله.

كانت المدينة كلها قلبًا واحـدًا مجمعة على الإضراب وكان ريف حمـاة متعاطفًا معها يمـدها بالخبز، ولما أحس الريف أن هناك احتمالاً لمواجـهة بدأ يمد المدينة بما يتيسر من ذخيرة أو سلاح على قلة في ذلك.

لم يكن في البلد سـلاح أو ذخيرة إلا السـلاح والذخيرة اللذيـن يحتفظ بهـما بعض الحمويين إذا اضطروا للاشـتباك مع بعضهم وما أكثـر صراعاتهم، لذلك لم تكن البلد مؤهلة لخوض معركة مع ذلك فقد بدأت المعركة في اليوم التالي.

أرسلنا في ليلتنا هذه أكـثر من وفد لأكـثر من جـهة ليعلم الناس وضـعنا، كنا حريصين على ألا تكون هناك معركة مواجـهة، بل كان أملنا أن نستطيع الاستمرار في الإضراب لعله تلحق بنا بقـية المدن السورية فتنهي النـظام من خلال الإضراب لكن السلطة أحست بخطورة هذا الأمر فقررت المواجهة وكان الشعب مهيئًا للصدام فكانت أحداث الصراع.

نمت كمـا قلت في بيت عثـمان الأمين - رحـمه الله - الذى أصـبح في اليوم التالي وكأنه غرفة عمليات.

جاءتنا أخبار الصباح أن بعض الناس قطعوا الطريق ما بين دمشق وحلب غضب لذلك عثمان الأمين لأنه يريد الطريق مفتوحًا حتى تصل أخبارنا إلى المدن الأخرى ولتبقى بيننا وبين المدن الأخرى وسائـل اتصال وحاول أن يفتح الطريق لكن الأمور

تلاحقت فقد نزل الجيش وأطلق النار ورد الناس بالمثل واشتعلت المدينة وجاءت السلطة إلى حماة.

كان عظم المعركة حول مسجد السلطان وفى الحاضر، وقد أمر بإطلاق نيران المدفعية على المسجد فهدم مئذنته وبعض قبابه، ودافع المحاصرون دفاعًا شديدًا، ولكن الذخيرة نفدت وتم اقتحام المسجد.

وفي نشرة أخبار دمشق الساعة الثانية والربع ظهرًا أعلن راديو دمشق عن الأحداث، متهما القائمين عليها معلنًا مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لعدد من الناس مهددًا كل من يتعاون معهم وكان اسمي من بين هذه الأسماء.

كانت الإذاعة الخارجية الوحيدة التي اهتمت بالأحداث هي إذاعة العراق.

ولذلك وأمام نقص الذخيرة كلفنا أحد الناس أن يذهب إلى العراق فلعله يستطيع أن يأتي بمدد من السلاح والذخيرة، ولكن تبين فيما بعد أنه لم يسافر، كان عثمان الأمين من الرجال الذين تجتمع عندهم الشجاعة والكبرياء والشموخ والعزة وكان يرى أن الانسحاب وعدم المواجهة نوع من الجبن والفرار ولذلك كان يصر على البقاء في بيته، وكنت في وضع لا أمثل فيه نفسي فقط بل أمثل جماعة الإخوان المسلمين فأحببت ألا أتصرف أي تصرف يمس بكرامة الإخوان المسلمين ولذلك أظهرت استعدادًا للبقاء في البيت حتى آخر لحظة منتظرًا الاستشهاد في سبيل الله عز وجل وشعرت بفضل الله عز وجل بنوع من الصفاء العجيب، اتفقنا على أن نتناوب السهر، وطلب الأخ عثمان - رحمه الله - مني أن أكون أول النائمين، ذهبت إلى غرفة النوم فنمت وبعد قليل أيقظني عثمان الأمين وهارون خطاب وحاج أحمد الأمين - رحمهم الله - ولا أتذكر من كان معهم.

أطلعوني على الوضع وطلبوا رأيي فقلت لهم:

إن استمرار الصراع المسلح لصالح السلطة، والناس لم تبق معهم ذخائر، والمهم أن يستمر الإضراب وبقاؤنا هنا ليس خطرا على حياتنا فقط بل هو خطر على الحي جميعه، أننا إذا انسحبنا من ههنا يستطيع كل فرد شارك في المعركة أن يلقي

سلاحه متى انتهت ذخيرته ثم ينصرف، أما إذا بقينا فقد يجد بعض الناس أنهم ملزمون أن يربطوا مصيرهم بمصيرنا فتكون كارثة على الجميع، فالرأي عندي أن ننسحب إلى بيت آخر نختبيء فيه ومن هناك نتابع الأمور، ولم يكن هناك رأي آخر فقررنا جميعًا الانسحاب وانسحبنا إلى بيت أحد الثقات تحت جنح الليل.

وفي اليوم الثاني للمعركة أرسلت قوات مدرعة هائلة إلى المدينة تمركزت في نقاط التقاطع وفي الشوارع الرئيسية وفي أطراف المدينة وكانت بعض هذه القطع قريبة جدًا من البيت الذي نحن فيه.

وقد دعا أمين الحافظ رؤساء البلد لاجتماع عام واتفق معهم على أن تهدأ المدينة أسبوعًا يتم خلاله مفاوضات بين الحكم والشعب لدراسة المطالب العدالة وإقرارها وكان على رأس المفاوضين شيخنا الشيخ محمد الحامد ولما بلغنا الخبر خرجنا من مخبئنا وعدنا إلى الظهور واجتمعنا مع الناس وتذاكرنا مع الخلص عما ينبغي فعله فكان الرأي أن نسافر إلى العراق مستغلين فرصة الهدوء هذه فإن تمخض الأسبوع عن شيء صالح كان بها وإلا فلعله نستطيع تأمين سلاح وذخيرة للناس إذا اضطر الناس للمواجهة وفعلا رتب أمر السفر خلال دقائق وتطوع أحد السائقين الجيدين، وقدمت لنا عائلة نصرانية من حماة سيارة لاندروفر تصلح للسير في الصحراء وفي المناطق الوعرة وهذه الأسرة النصرانية تربط مصيرها دائمًا بمصير المسلمين.

وانطلقنا على بركة الله نحو قرية الطيبة ابتداءً ومنها توجهنا إلى العراق وكان أملنا أن يتولى إيصالنا إلى العراق أحد أمراء البدو، وكان مشهورًا بالرجولة والشجاعة.

كنا مع السائق ستة:

العقيد فؤاد الأسود وهو الذي ضرب جبل الدروز زمن أديب الشيشكلي.

وعثمان الأمين، وحاج أحمد الأمين، وهارون خطاب، وسعيد حوا، . . .

كان سلاحنا بسيطا، وكان معنا أكثر من بندقية وكنا مصممين على القتال حتى الموت.

وصلنا إلى خيام الأمير فاستقبلنا الأمير وذبح لنا وأكرمنا ثم طلب منا أن نتحول إلى مكان آخر ريثما ينظر في أمره، ثم أرسل لنا يعتذر عن توليه هذه المهمة بنفسه، فشكرناه وانطلقنا نحو مضارب قبيلة أخرى وفي الطريق صادفتنا سيارة شحن حموية تعمل في البادية فسارت معنا وأوصلتنا إلى مضارب القبيلة ومن هناك أخذنا دليلاً وانطلقت سيارة الشحن أمامنا مع الدليل حتى أوصلتنا إلى العراق، دخلنا مخفر الرطبة بآخر نقطة بنزين معنا، عرف المسئولون هناك قضيتنا فأكرمونا وأرسلونا إلى قاعدة الحبانية وهناك رغبوا أن يستضيفونا أياما ظنا منهم أننا مرهقون، لكننا اعلمناهم أننا نرغب أن نعرض قضيتنا على المسئولين العراقيين بسرعة.

فأرسلونا إلى بغداد وسمعنا ونحن على أبواب بغداد أن مظاهرات قد قامت نصرة لأهل حماة.

استقبلنا في بغداد أشخاص من أجهزة الأمن وأنزلونا في فندق يقع على شاطئ دجلة، وزارنا بعض المسئولين فرغبنا إليهم أن يعلن مباشرة عن مناورات على الحدود العراقية لرفع المعنويات وكان ذلك.

كانت علاقاتنا مع وزير الداخلية ثم مع ضابط اعتمد كمسئول عن المكتب الذي يتابع شئون اللاجئين العرب، وكان اللاجئون السوريون يكثرون شيئًا فشيئًا وكان أكثرهم ناصريين وقد حملوا علينا حملة منكرة وكتبوا فينا تقارير ولم نبال كثيراً وكان ردنا عليهم بقدر الحاجة.

يقينا في العراق حوالي أربعين يومًا ثم توجهنا نحو الأردن بجواز عراقي يصلح لسفره واحدة، كان عثمان الأمين يصر على ألا نعتبر لاجئين، وقد دخل العقيد الأسود المستشفى العسكري بسبب ارتفاع الضغط والسكري، وقرر البقاء في العراق فلم يسافر معنا إلى الأردن، ظهر ونحن في العراق دستور للعراق حاولت أن أكتب عليه دراسة، نضايق من ذلك الزملاء، مزقوا لي الأوراق، شعرت وكأنني فقدت ولدًا.

توجهنا إلى الأردن ووقفنا طويلاً على الحدود حتى أذن لنا في الدخول، نزلنا في فندق عادي، كان في الأردن قبلنا عبد الله برازى فعرفنا على الناس وعرف الناس بنا، عوملنا معاملة كريمة من كل من تعرف على أوضاعنا ولم نكد نقر في الأردن حتى سمعنا من إذاعة دمشق برقية من الشيخ محمد الحامد تشكر المسئولين على إطلاق سراح المعتقلين والسماح بالعودة للمغادرين فعلمنا أن المسألة انتهت، وفعلاً فقد تحرك بعض آل الأمين حتى جاءوا بأمر العفو إلى الأردن ونزلنا مباشرة إلى سورية واستضافنا حموي في درعا كان رئيس شرطتها وانتهت أحداث حماة بعد حوالي خمسين يومًا من بدئها.

بقيت حماة مضربة تسعة وعشرين يومًا شاركها بعض أيام إضرابها اللاذقية ودمشق.

جرت خلال هذه الأيام محاكمات للشيخ مروان ومن معه من المسجونين.

وكانت محاكمات تاريخية بما جرى فيها من نقاش وصمود، وعندما صدر الحكم بالإعدام على البعض فرحوا وكبروا وعانق بعضهم بعضًا أما الذين لم يحكم عليهم بالإعدام فقد بكوا نادوا حكامهم: يا خونة احكمونا بالإعدام.

انتشر النقاش الجريء بين الشيخ مروان وقاضيه العسكري بين الناس فأشعل العواطف. كنت من جملة المحكومين غيابيا بالإعدام، ولكن الأمور انتهت كما ذكرنا.

كان محصلة ثورة حماة أربعة شهداء من إخواننا وحوالي خمسين من أبناء البلد ويقال: إنه قتل من جنود السلطة ورجالاتها الكثيرون.

أدى تحركنا في حماة عدداً من الأغراض:

أ- حميت مادة التربية الإسلامية.

ب- توقفت الأفكار القائلة بتصفية الأوقاف.

جـ- جمد وضع الحرس القومي.

د- وجدت وزارة معتدلة برئاسة صلاح البيطار.

هـ- أصبح الإسلام أكثر احتراما وبدأوا يحسبون له حسابًا.

وكانت تجربة من تجارب المواجهة بين الإخوان المسلمين وبين الأنظمة التي نشطت في محاربة الإسلام.

من الذكريات أن القيادات المحلية للإخوان المسلمين في بقية المحافظات لم تحرك ساكنًا ولسنًا نعتب عليها، وقد بلغنا أن بعض القيادات عرضت عليها قوى عسكرية أن تتحرك فلم تجب الإيجاب وبعض القيادات أتصل بها فقالت نحن لا نؤمن بالوصول إلى الحكم إلا عن طريق الديموقراطية ولو كلفنا هذا خمسمائة عام وبعض القيادات بقيت تشهر فينا بسبب أحداث حماة ١٩٦٤ حتى هذه اللحظة، أن هناك أناسًا لا يتحركون وينتقدون المتحركين.

استطاع بعض إخوة حماة في دمشق متعاونين مع بعض العناصر أن يحدثوا إضرابًا في دمشق لم يدم طويلاً، حاول بعض أهل العلم في حلب أن يفعلوا شيئًا ولكن لم يتابعوا، حدث في اللاذقية شيء طيب.

كنا نطمع إذا تابعت حماة الإضراب أن تتابعها المدن السورية ولكن لم يحدث ما أملناه، مع أن حماة بقيت تسعة وعشرين يومًا مغلقة حوانيتها أو معطلة كل مظاهر العمل فيها.

كان شيخنا الشيخ محمد الحامد يتصرف في هذه المرحلة على غاية الحكمة يقدم حيث يرى الإقدام حزما ويحجم حيث يرى الإحجام عزما، وكان دائم النصح للجميع دائم الدعاء، وكان واضحًا أن السلطة تريد أفراد الإخوان المسلمين لتضربهم ضربة ساحقة كما ضربت الناصريين في ١٨ تموز ولكن موقف المدينة الأصيل وصلابة الإخوة وكلمة الشيخ ووجود بعض أهل السنة في مراكز قوية في السلطة ورغبة بعض العلويين. في تمرير المرحلة فلا ينكشف الغطاء الطائفي مبكرًا، كل ذلك كان عاملاً من عوامل إنهاء الوضع فلم يمر خمسون يومًا إلا وكأن شيئًا لم يكن.

ولقد كان الدرس الأكبر الذي أخـذناه من ثورة حماة سنة ١٩٦٤ أن موقف بلد واحد في سـورية ليس كافيًا أن يسـقط نظامًا جائرًا، وأنه لابد إذا ما أردنـا وضعًا جديدًا لسـورية أن يكون ذلك باتفاق أبناء المحـافظات ولكن لابد من جهـة تستلم راية الإقدام حتى يسير الناس وراءها وكانت حماة هي المرشـحة لتقديم التضحيات وتحمل مسئولية البدء، هذا دورها التاريخي قـبل الاستقلال وبعد الاستقلال ولهذا الحديث تتمة.

• هل كان أمامنا خيار ألا نتحرك؟

استلم العلمانيـون السلطة في سورية وانفردوا بها وكان واضحًـا أن استقرارهم يعني الوصول في سورية إلى كفر ودمار.

ولقد أخـذ بعض خطباء الإخـوان المسلمين يتكلمـون بجرأة، وكـان الآخرون يهزون رؤوسهم بلا مبالاة، ولقد أقدمـوا على خطوات جريئة في تصفية الجيش مما كان مقدمة للهزيمة الكبـرى أمام إسرائيل في سنة ١٩٦٧، وأنشأوا الحرس القومي الذي بدأ يتطاول على الجمـيع وتجمعت الأقليـات كلها حولهم وكلها حـاقدة على الإسلام إلا قليـلاً في المتعقلين وخاصـة من كان من النصارى فإن الكثـيرين منهم بقوا خارج السـلطة وبدأت بوادر الاعتداء على الإسلام والمسلمـين تظهر من ههنا وههنا ولم تبق هناك، حماية لمواطن لا من القـائمين على الحكم ولا من القانون، وكان السكون المطلق، على ذلك يعـني في النهاية إنهاء البقـية الباقيـة من الإسلام الرسمي في سورية وكـان أخوف ما نخافه إلغـاء مادة التربية الإسلامـية والأوقاف وقانون الأحوال الشخصيـة وقد بدأوا معركتهم من أجل هذا وهذا، فكان لابد من ردة فعل تبقي الأمور عـند حد معين وكان هذا ما فعلنـاه في حماة، وكان من آثار ذلك مـا ذكرناه ولذلك أهمـيتـه الكبيـرة، ومع أن التفكيـر في إلغاء هـذه الأمور والتضييق على التدين كان يتجدد، لكن موقف حماة كان عاملاً معدلاً.

• في ينادونني في السلم يابن زبيبة:

من المشهور عن عنترة قوله: ينادونني في السلم يابن زبيـبة وعند اشتعال الحرب يابن الأكارم. وهذا القـول لا ينطبق على شيء كمـا ينطبق على حماة، أن لحـماة

طبيعة خاصة تجعلها كثيرة الحساسية إذا حدث ظلم أو كفر، ومن ثم فهي تعبر عن رأيها قبل غيرها، ولقد ساهمت حماة في كل الثورات ضد الاستعمار بل حسمت الصراع مع الاستعمار في آخر معركة منتصرة لها، ثم هي التي أثرت في أحداث سورية سياسيًا بشكل مستمر، وهي التي قادت ولا زالت تقود المعارضة ضد النظام القائم في سورية، والناس في شأنها كما قال عنترة، فساعة يثنون عليها الثناء العاطر وساعة يهجمون عليها هجومًا ماطرًا.

ومن العجيب أن يعامل أهلها بنكران الجميل من الصديق بل من بعض أهلها، فلم يزل الحمويون المتدينون محل نكران جميل، فهم ملاحقون من النظام، ومضيق عليهم من بعض إخوانهم.

ولبعض الإخوان فلسفة عجيبة، مؤداها: أن على الشعب السوري أن يستسلم للأحداث، وأن على المسلمين أن يستسلموا فلا يفعلوا شيئًا.

وأن الأمور ستحل نفسها بنفسها، فكأنهم ينسون قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ [محمد: ٤]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

إننا لم نتحرك أولاً وثانيًا ولنا خيار، فلو لم نر محاولة استئصال الإسلام، ولو أعطى الإسلام حرية الدعوة لما تحركنا.

❊❊❊

الباب السادس

من التاسعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين

(١٩٦٤ - ١٩٦٦م)

تزوجت بعد عودتي إلى سورية من العراق وجاءني محمد وأحمد في الخامسة والستين والسادسة والستين واستطرادًا أقول: ثم جاءت فاطمة في السابعة والستين وأنا في السعودية ثم جاء معاذ في التاسعة والستين في المدينة المنورة، وهؤلاء كل أولادي.

عدت إلى التدريس في السلمية بعد أحداث حماة ١٩٦٤ فدرست السنتين الخامسة والستين والسادسة والستين ثم غادرنا إلى السعودية للتدريس.

تقدمت من قبل إلى مركز حماة باقتراح حول المناهج، رفع إلى قيادة الجماعة ثم أقر وكلفت بوضعه، وهكذا كنت مستغرقًا قبل سفري إلى السعودية بالعمل الإخواني والعمل الإسلامي وبالتأليف في المنهاج الذي كلفت به.

من أهم أحداث هذه المرحلة انقلاب شباط (فبراير) الذى أودى بأمين الحافظ وأتى بعهد صلاح جديد ومجموعته إلى الحكم وهذه تفصيلات عن أهم أحداث هذه المرحلة.

١- الزواج

بعد أن خطبت أم محمد وهي بنت خالة الأستاذ مصطفى الأعسر - رحمه الله - وكانت خطبتها بواسطته، بعد الخطبة بفترة قليلة سرحت من الجيش ثم حدثت أحداث حماة ثم انتهت وعدت إلى حماة، وجاءني في يوم الحاج عبد الكريم الشامي بسيارته وقال إني مسافر إلى دمشق فتعال معي، فسافرنا وهناك عقدنا العزم على إنهاء موضوع الزواج، اتصلنا بأخي أم محمد وأبلغناه أننا قادمون لعقد القران، جئنا إلى منزله وأجرينا العقد، أجراه الدكتور صلاح خير الله وهو من أكابر صوفية العصر.

كان حاج عبد الكريم يريد أن يتم الدخول في اليوم نفسه وبالكاد أجلّ أهل الزوجة الدخول إلى ثلاثة أيام.

استأجر الحاج عبد الكريم بيتا في «مضايا» أعطاني غرفة منه، تم الدخول فيها، وبعد يومين أو ثلاثة أنزلنا حاج عبد الكريم إلى حماة، فوجيء الأهل بدخولي مع أم محمد إليهم قلت لهم أتيناكم بزوجة.

أحست أم محمد وأحس الأهل وكأنهم يعرفون بعضهم منذ زمن بعيد لم يشعر أحد بغربة عن الآخر.

عدنا إلى «مضايا» وقضينا فيها أيامًا أخرى، كانت وظيفتي لا زالت في السلمية، نقلت أم محمد وكانت في دير الزور تدرس اللغة العربية إلى السلمية وأصبحنا ندرس سوية فيها هي في مدارس البنات وأنا في مدارس الذكور.

عندما خطبت أم محمد تحدثت إليها بحضور أمها وأخيها حديثًا مسهبًا عن وضعي:

حدثتهم أنني أريد امرأة تنظر بعيني وتسمع بأذني وتفكر بعقلي.

وأن ظروفي صعبة واحتمالات المستقبل في حقي كثيرة وكبيرة وأن زوجتي عليها أن تتحمل أشياء كثيرة. ثم حدثتهم عن طبيعة حياتي وأنها يغلب عليها العفوية وهذا يقتضي من زوجتي أن تقوم بأعباء الترتيب والتنظيم، وعلى ضوء هذا كله أعطوا موافقتهم، وكانت أم محمد أكثر مما أردت وأقوى مما أملت، وأقدر مما تصورت وذلك من فضل الله، لقد كانت السكن والمساعد والمعين، وإنني مدين لها فى كل ما يعتبر إنجازًا.

٢- انتخاب في مركز حماة

أنهى الدكتور عبد الكريم عثمان - رحمه الله - دراسته العليا في مصر وجاء إلى حماة، وكان شخصًا محببًا دمثًا منصهرًا في دعوة الإخوان المسلمين، قوى الالتزام واسع الأفق، على صلة قوية بنشاطات الجماعة في مصر وفي سورية.

قررت قيادة المركز في حماة أن تعقد اجتماعًا لأهل الحل والعقد في المركز، وتم الاجتماع ورأى الحاضرون أن ينتخبوا قيادة للمرحلة اللاحقة، وبعد مناقشات حول المواصفات المطلوبة لقيادة المرحلة تم الانتخاب.

وكان الشعار الذي طرحته داخل القيادة واعتمد هو: تكميل الرجال واستكمال الأجهزة.

كان عبد الناصر في صراع عنيف مع الحكم في سورية لذلك أرسل لنا عرضًا بواسطة بعض الناصريين أن يسلحنا، لكن وضعنا التنظيمي من ناحية وحساسيتنا من ناحية أخرى تجاه عبد الناصر جعلتنا نرفض المشروع، لم يلبث الدكتور عبد الكريم أن سافر بضغط من الحكومة السورية إلى السعودية وكلفني بإدارة الأمور لكنني تعاملت مع الأكبر سنًا على أنه هو الرئيس.

٣- كان كبار الإخوان المسلمين وقواعدهم يتكلمون دائمًا عن ضرورة منهاج ونظام داخلي للجماعة.

وكانت فكرة المنهاج غائمة فبعضهم يقصد في المنهاج خطة العمل والحركة وبعضهم يقصد في المنهاج التفصيلات التطبيقية التي تستهدفها في واقع الحياة وبعضهم يقصد في المنهاج الثقافة التربوية والأخلاقية التي يحتاجها العضو في سيره في مراتب العضوية في الإخوان المسلمين، وكانت رؤيتي أن الصور الثلاث الأولى للمنهاج يمكن أن تصب جميعًا في الصورة الرابعة لذلك تقدمت بصورة تفصيلية عما أعتبره المنهج الصحيح الذي يبني عليه الفرد في الجماعة وتبني عليه الجماعة ككل، وكان المشروع في حوالي عشرين صفحة وقد رفع المشروع اسم مركز حماة إلى قيادة الجماعة فعممته على قيادات المراكز وعلى أعضاء القيادة، وبعد أخذ الملاحظات استدعيت لحضور اجتماع لمجلس الشورى وللقيادة للمناقشة وقد أقر المشروع بالإجماع وكلفت بالتنفيذ مع حقي بالاستعانة بكل أخ في الجماعة.

وكنت في الأصل أشتغل في الكتابات التي تحقق المشروع لأنه كانت واضحة لدي المعالم التي تحتاجها الشخصية الإسلامية والحركة الإسلامية وكانت محصلة

نظريتي في هذا الشأن هو ما رأى بعضه القراء في مجموع ما كتبته وقد استعظم بعض الناس فيما بعد أن يكلف فرد واحد بصياغة منهاج للجماعة في سورية، وبدأت معاكسات ومشاكسات ولم أبال بذلك لأنني كتبت في كل ما اعتبرته احتياجًا حقيقيًا للشخصية الإسلامية أو للحركة الإسلامية سواء اعتمد أو لم يعتمد.

وصادف أن الجلسة التي حضرتها للقيادة ومجلس الشورى كان فيها بحث حول النظام الداخلي للجماعة وكان ذلك مطلبًا للجميع وكان هناك أكثر من مشروع نظام مطروح، وكان بعضهم يرى أن النظام القديم للجماعة صالح بعد تعديله وكان عصام العطار قد أرسل من بيروت رسالة يعرض فيها تصوراته للعمل ويذكر أن النظام الداخلي الذي يحقق هذه المعاني موجود عنده فإذا أقر الإخوة هذه التصورات فسيرسله إليهم، ولكن لم يتم ذلك بسبب ظروف سورية.

لا زلت أتذكر نكتة حدثت في الاجتماع الذي حضرته لمناقشة مشروع المنهاج فلقد كانت تغلب علي فكرة أن مناقشات القيادات ينبغي أن تتم بلا انفعالات للوصول إلى القرار الحكيم، وكنت أكرر فكرة أن علينا أن نكون كالآلة ونحن نتكلم لنعطي النتيجة الصحيحة من خلال العقل وحده.

وأثناء الجلسة المذكورة كان أحد الإخوة يناقش قضية وهو يرفع صوته ويتوجه بالخطاب لأخ يجلس بجانبي وأثناء كلامه توجهت في الخطاب سرًا إلى جاري ولكن بشكل ملحوظ وسألته: أأطرش أنت؟ فتعجب وقال: لا، فقلت له: لماذا إذن يرفع الأخ صوته بهذا الشكل؟ وههنا انتبه المتكلم فقطع كلامه وسأل عن القصة فرويت له السؤال والجواب فضحك وكانت نكتة.

كان أحد الأسس التي لا أستطيع التساهل فيها في العمل الإسلامي ربط العضوية بالثقافة والخصائص والالتزام والتخصص وللأسف فإنني وجدتني في أواخر الأمر أدخل في معركة خاسرة داخل الإخوان المسلمين في سورية فلم يزل حتى عام ١٩٨٤ الزمن تقريبًا هو المقياس لدرجات العضوية إذا جرى انتخاب،

وكثيرًا ما يدخل القدم في دائرة التحكم فما من إنسان يستطيع أن يثبت أنه منتظم انتظامًا مستمرًا بسبب الظروف المتقلبة وهذا يجعل لمن بيده الأمر القرار في إعطاء صفة أو حجبها عنه.

٤- أحداث شباط (فبراير):

أهم حدث سياسي في هذه المرحلة هو انتقال السلطة من أمين الحافظ إلى مجموعة صلاح جديد من خلال انقلاب ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٦٥، كانت نتيجة متوقعة لأن عظم القوى كانت بيد الأقليات، وكانت أقوى الأقليات الطائفة العلوية، وقد اتفقت الأقليات على إيجاد وضع جديد فكان.

كانت حماة بيد ضابط من قرى حماة من مجموعة أمين الحافظ وكنا نقدر أن القوة العسكرية في حماة ستقاوم الانقلاب، وخشينا أن يحدث صدام كبير تستباح فيه البلد، ففكرنا أن نستلم سلاحًا ونسلخ إخواننا فيما لو وزع على البلد.

كان عثمان الأمين - رحمه الله - هو مركز الاتصال وكان رأيه أن يلقي السلاح في وسط البلد ويترك لكل فرد أن يأخذ سلاحه الفردي دون قيود احتياطًا للمستقبل، ولم يتم الاتفاق، ولم تجر مقاومة تذكر، وسيطر الشباطيون بسرعة كبيرة وانتقلت سورية إلى عهد جديد.

وكأي عهد فإنه يحتاج إلى زمن ليتمكن فكانت هذه فرصة للعمل، وكان ذروة ما عملناه إقامة دورات شعبية للتعريف على الإسلام في حماة، وهذه بدورها أدت إلى نقلنا من حماة، والانتقال من حماة كان السبب في الخروج إلى السعودية.

٥- تجربة رائدة

اتفقنا مع جمعية العلماء في حماة على أن تعلن الجمعية عن إقامة مدرسة ليلية تعلم فيها فروض العين الإسلامية ووعدنا أن نقوم نحن مدرسي التربية الإسلامية الإخوان بهذا الشأن ووافقت الجمعية ووزعت بيانًا على الناس تحدد فيه المواد التي سندرسها وبداية الدورة ونهايتها وأن البرنامج اليومي ساعتان بعد المغرب والمواد

ستوزع على مدار الأسبوع، وكانت المواد: التوحيد، فقه العبادات، السيرة، التجويد، الحديث النبوي.

أقبل الناس إقبالاً كبيرًا على الدورة ونجح مدرسوها نجاحًا كبيرًا.

وبعد أن انتهت الدورة أعلنا عن دورات نهارية للطلاب خاصة في عطلتهم الصيفية فالتحق بالدورات أعداد هائلة، التحق بدورات البنات المئات والتحق بدورات الطلاب الابتدائي حوالي ألف وخمسمائة وبدورات طلاب الإعدادي حوالي ثلاثمائة وبدورات طلاب الثانوي حوالي مائة وأربعين كان واضحًا أن هذا الإقبال يعني أن حماة ستتغير تغيرًا جذريًا خلال عام، لذلك اتخذت السلطة قرارًا بأن ينقل القائمون عليها خارج حماة بحيث يتعذر عليهم التردد إلى حماة فنقلت إلى حارم على الحدود التركية وهي منطقة لا أستطيع المجيء منها إلى حماة بسهولة، . ونقل فارس ملي إلى قرية في محافظة الرقة ونقل عبد الحميد الأحدب إلى جبل الدروز وقتل عثمان الأمين - رحمه الله - وهذا النشاط في ذروته.

في هذه الأثناء طرح أخونا عبد الحميد الأحدب فكرة السفر إلى السعودية وتقدم بطلبات لي وله ولفارس ملي.

وافقت الوزارة على إعارتي، استشرت زملائي في قيادة مركز حماة، فقرروا جمع بعض أهل الحل والعقد في المركز، عرضنا عليهم الأمر فوافقوا على سفري، وكان من عوامل السفر أن تتاح لي فرصة أستطيع فيها أن أنجز المناهج الإسلامية التي كلفت بها.

وتابع الشيخ عبد الحميد أحدب حفظه الله المعاملات حتى انتهت لي ولزوجتي، وخرجنا إلى السعودية عن طريق بيروت أنا وأم محمد وتركنا ولدينا الصغيرين محمد وأحمد عند جدهما وجدتهما.

لقد وضعت قرار سفري بيد إخواني لأنني خشيت أن يكون هناك حظ نفسي في السفر ولم أشأ أن يكون لي صوت إذا طرحت المسألة على الاقتراع، كان الوضع في غاية التعقيد فإذا استمررت في التدريس فإنني لا أستطيع المجيء إلى حماة، واحتمالات الاغتيال في حقي كثيرة فأنا أحد العناصر الرئيسية التي شاركت

في أحداث حماة ١٩٦٤، والوضع لم يعد يحتمل العمل الجهري وكان العمل الإخواني يحتاج إلى قرار جريء أن يتفرغ له ناس متخففين من أعباء العمل الحياتي، وإذا اقتضى الأمر أن ينواروا فعليهم أن يتواروا ولم يكن الوضع المالي ولا قوة التنظيم تسمح بذلك.

كان قرار المركز في حماة أن اسافر فسافرت ولم تطل المدة بعد سفري حتى اعتقلت كل القيادات بل كل الصف الإخواني الأول في سورية ولم يطلق سراحهم إلا بسبب حرب حزيران (يونيه) وإلا فإن حكام سورية كانوا يصرحون أن هؤلاء لن يطلق سراحهم أبداً.

قامت ردة فعل إسلامية ضد الحكم في سورية في دمشق، شارك فيها الكثيرون من تلاميذ العلماء، وظهرت في الساحة جماعة جديدة سميت باسم كتائب محمد عليه الصلاة والسلام، ووجد جو ملتهب في دمشق، وحدث شبه اعتصام في الجامع الأموي، وأقدمت السلطة على اقتحام المسجد الأموي بالدبابات وأطلقت النار على من فيه، واعتقلت المئات، وطاردت المئات، وادعت السلطة فيما بعد أنها هي التي استدرجت المتدينين لهذا الفخ لتجهض التحرك من بدايته، وكان الإخوان المسلمون بعيدين عن المشاركة في هذا التحرك، وكانت هذه هي الثورة الإسلامية الثانية ضد العلمانية في سورية بعد الاستقلال، ونسأل الله أن يتقبل جهاد الجميع.

عشنا السنوات الثلاث قبل سفرنا إلى السعودية على أعصابنا وكنا نعتبر ذلك عاديًا وكنا نقول لإخواننا أن ما قبل الاستخلاف خوف دائم ولكن الله عز وجل سيبدلنا بالخوف أمنًا ونذكرهم بالآية: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

كنت أحاول في نفسي وأحاول مع إخواني أن نجعل تحمل الأوضاع الصعبة جزءاً من كياننا فتكون مألوفة لنا فإذا كان غير ذلك كان عجيبًا ولقد اعتدنا ذلك بفضل الله فمنذ دخلنا الإخوان المسلمين ونحن نحمل أرواحنا على أكفنا سواء في الحياة الطلابية أو في الحياة التدريسية أو في الحياة العملية فما من يوم ننزل فيه إلى

مدرستنا إلا ونتوقع صدامًا، وما من يوم ندرس فيه إلا ونتوقع صدامًا، وكل يوم يمر يمكن أن نتعرض لاعتقال.

أنهيت تدريسي يومًا في السلمية وإذا بسيارة مخابرات تنتظرني وأبلغوني أن رئيس المخابرات في حماة يرغب أن يراني وكان ذلك في رمضان، ذهبت معهم حتى إذا وصلت إلى حماة أبلغت بعد ساعات أنني مطلوب إلى دمشق وفي الطريق نزل مطر شديد وتوقفت السيارة عن الحركة ولا أدري هل توقف السيارة مفتعل أو ذلك هو الواقع؟ المهم أنهم أرجعوني إلى حماة وكان الخبر قد بلغ علماء حماة وعلى رأسهم شيخنا الشيخ محمد الحامد فتدخلوا ثم جاءوا وأخذوني معهم وكان استنتاج الشيخ - رحمه الله - أن ما فعلوه كان إشعارًا لي بأن على ألا أدرس في المساجد وكنت بدأت أعطي بعض الدروس بعد الفجر في رمضان في جامع المسعود، وطلب مني الشيخ ألا أدرس، فغيري يكفيني هذه المؤونة وكان ذلك.

المهم أن حياتنا كانت محفوفة بالخطر.

نسأل الله أن يتقبل.

• في الصراع بين العلمانية والإسلامية على سورية

مما ذكره لورانس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» قوله: «كنت أفكر طوال الطريق هل ستترك سورية مثلها الديني إلى مثل وطنية وقومية. أن هذه العبارة تمثل التفكير الاستعماري القديم لسورية، وهو التفكير الذي ما زال مدعومًا من قبل كل الدوائر الخارجية، وتتبناه دوائر داخلية كثيرة في سورية، وأصرح من دعا إلى علمانية سورية زمن الاستعمار الفرنسي هو الدكتور عبد الرحمن شهبندر من دمشق ولكنه قتل مباشرة.

وبهذه المناسبة أروي القصة الطريفة التالية:

حدثني أحد المتدينين أنه كان مرة في دمشق ورأى جمهرة من الناس يستمعون إلى خطيب فدفعه دافع الفضول للسماع، فكان الخطيب هو عبد الرحمن شهبندر،

وكان يتكلم عن ضرورة علمانية سورية، وبعد أن أنهى كلامه وقف هذا المتدين وقال للخطيب: ماذا تقول؟ أن هذا الكلام سيقتلك، ولم يرع محدثي إلا وصحف اليوم الثاني تعلن أخبار اغتيال الدكتور شهبندر وبحثت الشرطة عن الحموي الذي قال ما قال فاعتقلته ولم ينج من الاعتقال إلا بعد فترة طويلة بعد أن عرف الفاعلون الحقيقيون وكانوا ثلة من فتيان دمشق.

حاولت فرنسا أن تفرض العلمانية ولكنها فشلت، صوت النصارى أنفسهم لصالح دين الدولة الإسلام.

وجاءت عهود ما بعد الاستقلال فكانت كلها صراعًا بين الإسلام والعلمانية على تفاوت في حدة الصراع وشدته.

فالديمقراطية الأولى التي انتهت بانقلاب حسني الزعيم لم تكن تعلن العداء للإسلام، ولكنها لم تكن تتبناه، وجاء عهد حسني الزعيم القصير فأدخل تغييرًا جذريًا لصالح العلمانية، ثم جاء عهد أديب الشيشكلي فشجع على عدم الالتزام بالإسلام، ثم جاءت الديمقراطية الثانية، فخطت خطوات غير سافرة نحو العلمانية، وجاء عهد الوحدة فصدر دستور علماني بحت، وجاء عهد الديمقراطية الثالثة زمن الانفصال فتعامل مع الإسلام برفق، ثم جاء انقلاب ٨ آذار (مارس) فبدأ الصراع المكشوف بين العلمانية والإسلامية، ولا زال هذا الصراع مستمراً.

والمشكلة الحقيقية تكمن في الغموض وضعف الحركة المبصرة. فعلى الإسلاميين أن يكونوا واضحين في مفهوم الإسلامية الذي يريدونه وعليهم أن يتحركوا حركة مبصرة نحو ما يريدونه، وقد يكون أول هذه الحركة أن يتحركوا نحو الأقليات غير المسلمة في بلادهم، ونحو الأحزاب فيفتحوا معهم حواراً شاملاً حول مفهومهم التفصيلي للتطبيق الإسلامي، وماذا يعني التطبيق الإسلامي للأقليات؟ وأن التطبيق الإسلامي لا ينفي تعدد الأحزاب ضمن إطار متفق عليه، وهذا الذي نحاوله في هذه المرحلة.

• في هل سيحدث حقا ألا تتدخل القوى الكبرى لتفرض على الشعوب خلاف قناعاتها؟

في العالم اليوم وضع متناقض، فبينما العالم كله معترف بحق تقرير المصير للشعوب، وبعدم جواز التدخل في الشئون الداخلية للدول، فالواقع غير ذلك.

فالصراع بين أجهزة المخابرات وتدبير الانقلابات ووضع المخططات، ودعم حزب على حساب حزب، والأموال المرصدة للتأثير على قناعات الشعوب، واستغلال اضطرار الحكومات للديون، واستعمال الديون كأداة ضغط، وما نراه من وقائع تثبتها الأدلة والوثائق والكتابات الصادرة عن أهلها ذلك يثبت أن فكرة تقرير المصير وفكرة عدم التدخل في الشئون الداخلية لا زالت شعارات تطرح.

ترى هل يوجد قطر إسلامي يطرح على التصويت فيه تطبيق الشريعة ثم يجيء رأي الأكثرية إلا بالموافقة، فلماذا يحال بين المسلمين وبين تطبيق شريعتهم؟

وهذا نموذج فقط.

إنه لابد من حوار عالمي بين مفكري العالم أولاً، لوضع ميثاق إنساني معقول، تقتنع به كل الحكومات وكل الشعوب على السواء، لأنه القدر الذي لا يسع الحياة البشرية غيره ثم يلتزم به الجميع أفرادًا وشعوبًا بحيث يلغي الفارق بين الشعار والتطبيق.

ولا شك أن على الإسلاميين أن يكونوا دعاة لهذا الحوار.

• في تجربة جمعية العلماء في حماة تدل على أن العلماء يتحملون مسئولية نشر الإسلام أكثر من غيرهم

نشأنا في حلقة الشيخ محمد الحامد في مرحلة مبكرة من حياتنا والحمد لله، وانتسبنا إلى جمعية العلماء نحن وثلة من خريجي كلية الشريعة، فحدث بذلك خير كثير -إن شاء الله- للإسلام والمسلمين.

لقد كان كثير من الاحتفالات الدينية تقام باسم جمعية العلماء، وأقامت جمعية العلماء دورة للخطباء كلفتني بأن أعطي دروسها وكان ذلك ارتقاء بكثير من خطباء

الجمعة وأهم شيء أن جمعية العلماء قامت بإنشاء دورات لتعليم فروض العين واستجاب لها خلق كثير. مما ثبت أن تعميم الثقافة الإسلامية منوط بالعلماء أكثر من غيرهم، ومن ههنا فإن على علماء المسلمين أن يجيبوا عن سؤالين إجابة عملية:

ما هي الثقافة الإسلامية التي يجب إيصالها لكل مسلم؟ وكيف نوصلها إلى كل مسلم؟

وأن يتولوا العلماء ذلك فليس هذا بمستغرب ولا مستنكر، وعليهم أن يجنبوا عملهم هذا كل حساسية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؟

واستطرادا، أقول: أن الشيخ محمد الحامد لم يكن منتظمًا في الإخوان في أخريات حياته ولكنه كان يحبهم ويتفهم قضيتهم، ولم نكن نشعر بإزدواجية في كوننا ننتسب إليه وننتسب إلى الإخوان.

وكنا منتسبين إلى جمعية العلماء ولم نكن نشعر بأي تناقض في ذلك مع انتسابنا للإخوان، ثم نبتت فكرة من داخل الإخوان تدعو إلى عدم الإزدواجية بدون تعقيد لهذه الفكرة، فاضطرنا لكتابة رسالتين، رسالة اسمها «إحياء الربانية» ورسالة اسمها «عقد القرن الخامس عشر».

وفي كلتا الرسالتين دكرنا نموذجًا لعمل إسلامي لا يعتبر من الإزدواجية الخاطئة.

فكون الإنسان من الإخوان لا ينفي أن يأخذ الخير حيث وجد، ولا ينفي أن يتعاون مع الآخرين على خير.

والرجل الحكيم يعرف أن يضع الأمور في مواضعها.

***

الباب السابع

من الثانية والثلاثين إلى السابعة والثلاثين

(١٩٦٦ - ١٩٧١م)

درست خمس سنوات فـي السعودية ثنتـان منها في الهفـوف وثلاثة في المدينة المنورة، وكان تدريـسي كله في المعاهد العلمـية وهي تشبـه المدارس الشرعـية في بعض الأقطار وتشمل في المعاهد المتقدمـة المرحلتين الإعدادية والثانوية، وكان أكثر دروسي في اللغة العربية نحواً وصرفًا وبلاغة كما درست الحديث الشريف وأصول الفقه، كـانت علاقتي بطلابي علاقـة مودة ومحبة ومـصارحة وتوجيـه، واحتفظ بأغلى الذكريات لتلاميذي في المعاهد وظني أنهم كذلك.

أنهيت في هذه السنوات الخمس سلسلة الأصول الثـلاثة وأرسلتها للطبع والنشر وكتاب «جند اللـه ثقافة وأخلاقًا» وفـصولاً من كتاب «جند الله تخطيطًا وتـنظيمًا وتنفيذًا» ولم تنشر وقـتذاك هذه الفصول في التخطيط والتنظيم لكني درسـتها لعدد من الأخوة وأعطيتـها لبعض الإخوان في بعض الأقطار وقـد جعل الله فيهـا خيرًا كثيرًا وبركة، ثم أدخلت بعضها في بعض الكتب.

كان الجو مواتيًا لإلقاء محاضـرات، وقد ألقيت عددًا من المحاضرات في أجواء المعاهد العلمـية وبعض الجـامعات وفي بعض الثـانويات ودور المعلمين وفي بعض الأندية وخاصة في الناديين الرئيسيين في المدينة المنورة: نادي الأنصار ونادي أحد، لقد ألقيت فيهما أحب محاضراتي لي.

كانت المنطقة العربيـة حافلة بالمفاجآت، وكنت حريصًا على ألا يحـدث تغيير في السعودية لأن التغيير سيـجعل مكة والمدينة وأرض العرب في مخاطر مجهولة، كتبت تحليـلاً حول الوضع في السعودية وبنيت عليه بعض الاقـتراحات وقد وصل التحليل إلى الملك فيـصل - رحمه الله -، وكانت له آثار طيبة في نفـسه كما نقل لي، وتجاوب مع بعض المقترحات، وبعض هذه المقترحات أصبحت الأن واقعًا في

السعودية، لا أدعي أن مقترحاتي هي التي قد طبقت لكن تطبيقها يدل على أنها كانت في محلها.

وعلى كل الأحوال فقد سبب لي هذا الأمر بعض المشكلات.

في صيف ١٩٦٧ جئت إلى لبنان مع زوجتي وابنتي التي ولدت في الهفوف لتجديد التعاقد ولرؤية الأولاد وقضيت الصيف في عالية وفي صيف ١٩٦٨ جئت كذلك إلى لبنان لنفس الأغراض وقضيت الصيف في «سير الضنية» وأخذت فيما بعد معي الأولاد جميعًا إلى السعودية ومعهم عمتهم «هند» وفي صيف ١٩٦٩ جئت إلى لبنان منفردًا وأجريت فحوصًا طبية فتبين أن معي مرض السكري ولم أخرج من السعودية عام ١٩٧٠ وفي صيف ١٩٧١ جئت مع الأهل إلى لبنان، وأرسلت الأهل مع الوالد إلى حماة وكانت زوجتي حاملاً ثم بعد أيام جاء الوالد وبعد المذاكرة قررت النزول إلى حماة ونزلت ولم تحدث مفاجآت على الطريق، كنت قبل الحركة التصحيحية ممنوعًا من الدخول إلى سورية ولكن بعد الحركة التصحيحية كنت من جملة الذين سمح لهم بالدخول، ومع ذلك فإن السائق تصرف بذكاء حتى لا يمر اسمي على المخابرات وذلك من باب الاحتياط وهكذا عدت إلى سورية من جديد.

كانت الأوضاع الإخوانية تتردى وتسير في منحدر الانقسام، وكانت عوامل الانقسام كثيرة، ولما نزلت إلى حماة كان الانقسام قد تم وأصبحت الجماعة ثلاث فرق، فرقة على رأسها الأستاذ عصام العطار حفظه الله وفرقة على رأسها الشيخ عبد الفتاح أبي غدة حفظه الله وفرقة تعتبر نفسها على الحياد بين هذين الطرفين وتسمي نفسها مراكز الحياد وتشمل حماة وأدلب ودير الزور، كانت عواطف أهل هذه المراكز الثلاثة متباينة فبعضهم أقرب إلى الأستاذ عصام العطار وبعضهم أقرب إلى الشيخ عبد الفتاح وبعضهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ولعله من المناسب أن أقف وقفة حول الانقسام على اعتبار أنه ظاهرة يمكن أن تحدث للأحزاب كلها. فالانقسامات في الغالب تحدث إذا شعر قطاع من أبناء

الحزب أو الجماعة أن هناك بعدًا بين المبادئ والتطبيق أو أنه لا سير صحيحًا نحو الهدف، أو أن هناك جمودًا في تحرك الصف كله وجمودًا في تحرك الأفراد أو أن هناك طموحات للصف لا تستطيع أن تحققها القيادة أو أن القيادة تفتقد قوة المبادرة فلا تسبق المشكلة قبل وقوعها ولا تبادر لحلها بعد وقوعها، أو أن التربية أو النظرية التنظيمية ليست صحيحة أو أن المستجدات لا تأخذ محلها من الدراسة والاعتبار والتحرك، أو أن النبض المركزي من القيادة للأطراف أو للأشخاص ضعيف، أو أن القيادات لا تراعي نضج الصف فعندما يكون الصف كله طلابيًا فذلك غير الصف الذي يمتلك كبار مثقفين.

وأهم شيء هو الثقة بالقائد الأول فإذا تخلخلت الثقة به ولم يستطع أن يتلافى ذلك فأما أن يستقيل أو يقال أو يحدث الانقسام.

خمس سنوات في السعودية تمت فيها أشياء كثيرة: فقد سقط فيها نظام صلاح جديد على يد حافظ أسد بالحركة التصحيحية، وتمت فيها كارثة حزيران (يونيه)، وتمزقت فيها جماعة الإخوان المسلمين، وأصبح وضع سورية أكثر تعقيدًا.

القيادات السياسية المكشوفة، وتأكدت محظورية العمل السياسي، إلا على من كان جزءًا من النظام القائم في سورية والعمل الخفي في غاية الصعوبة، وأصبح حافظ أسد من أمهر اللاعبين في لعبة الأمم وهذا سيفرض نفسه على الجوار وعلى العالم العربي وعلى العالم برمته، وأحلامنا في دولة إسلامية رائدة دخلت في طور التأمل عند الكثيرين.

● في كارثة ١٩٦٧

حدثت كارثة سنة ١٩٦٧ وأنا في السعودية، لا شك أن الكارثة أبرزت تفوق دولة اليهود في أشياء كثيرة، فهي متفوقة في نظامها السياسي ونظامها العسكري وقدراتها السياسية والحركية، فهل يعكف المسئولون عن مستقبل شعوبهم على دراسة صيغة التفوق التي تحتاجها شعوبهم؟

لقد استطاع اليهود أن يجمعوا بين ديمقراطية ونوع من الاشتراكية، واستطاعوا أن يجمعوا بين تعدد الأحزاب وأنواع من الوحدة كوحدة منظمة الهيستدروت ووحدة البرلمان اليهودي العالمي، استطاعوا أن يعبئوا طاقة يهود العالم لصالح دولتهم، وأن يحشدوا وراء هذه الدولة قوى عسكرية وسياسية وإعلامية كبيرة، واستطاعوا أن يأخذوا من تجارب الأمم أحسنها، واستطاعوا أن يجدوا نظامًا للحشد والتعبئة يعتبر متفوقًا، واستطاعوا أن ينجحوا في الصناعات العسكرية والمدنية.

أن أشياء كثيرة جعلت التفوق الإسرائيلى كاسحًا عام ١٩٦٧، والمرجو من المفكرين الإسلاميين أن يفكروا في جملة ما يفكرون فيه كيف يجعلون شعوبهم تسير في طريق التفوق.

● في التركيب السكاني لسورية

في أدق إحصاء لسورية شكل أهل السنة ٧٣٪ من عدد السكان و٢٧٪ عدد الأقليات ما بين نصارى ونصيرية ودروز وإسماعيليين وعباد الشيطان.

وتجد أهل السنة فيهم أكراد وشركس وعرب، وفي سورية بدو الإسلام، فتجد أسماء الآشوريين والكلدانيين والروم، وتجد نصارى سورية موزعين إلى فرق نصرانية كثيرة.

وتجد أهل السنة فيهم أكراد وشراكسة وعرب، وفي سورية بدو وحضر، وقد اجتمعت عوامل متعددة على أن تعطي كل مدينة في سورية طابعها المتميز في الأخلاق والعادات.

ولهذا تأثير في بعض الأحيان على المواقف.

وقد استفادت بعض الجهات من التركيب السكاني لسورية الذي كان يشكل الريف جزءًا كبيرًا منه، فحاولت أن تعبيء أهل الريف ضد أهل المدن وأن تستفيد من التناقضات بين السكان ومن تخوفات بعضهم من بعض، ومن تناقض العواطف ومن طبائع الناس.

وفي هذا الخضم كان يعمل الإخوان المسلمون بعفوية إلى حد كبير، ونرجح أن جهات كثيرة لم تكن تعمل بعفوية، فالتركيب السكاني لسورية كان محل رصد من جهات كثيرة منذ القديم يشهد لذلك ما ذكره لورانس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» حين تكلم عن الشعب السوري وعن خصائصه، وخص الطائفة النصيرية بالذكر ووصفها بأنها طائفة لا يخون أفرادها بعضهم بعضًا، فإذا عرفنا هذه الخاصية، وأن العقيدة النصيرية تقوم على الكتمان، وأن النصيري معتاد على الكتمان، وإذا عرفنا الانقسامات السياسية والدينية أدركنا كيف أن الطائفة النصيرية على صغرها كانت على التدريج تشكل أقوى عصبية متماسكة في سورية، فإذا عرفنا أن هذه الطائفة أما بسبب التخطيط أو بسبب الفقر أو بسببهما معًا بدأت تتمركز في الجيش منذ عهد الاستعمار، وإذا عرفنا أن الجيش في العالم الثالث هو الذي يحكم بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر في الغالب أدركنا لما آل حكم سورية إلى النصيرية عبر الواجهات.

● في الانقسامات السياسية في سورية

يوجد في كل مكان انقسامات سياسية تتمثل بتعدد الأحزاب ثم بانقسام هذه الأحزاب على بعضها، وتشكل هذه الظاهرة في سورية ظاهرة بارزة.

فالكتلة الوطنية التي قادت الصراع ضد الاستعمار انقسمت على نفسها قسمين: حزب الشعب وقوته في حلب، والحزب الوطني وقوته في دمشق.

وظهرت أحزاب كثيرة في سورية: حزب البعث، والحزب العربي الاشتراكي، والحزب القومي السوري الاشتراكي، والحزب التعاوني الاشتراكي، وظهرت في عهد أديب الشيشكلي حركة التحرير العربي، وظهر في عهد عبد الناصر الاتحاد القومي، ثم ظهر بعد الانفصال الاتحاد الاشتراكي، وقد انقسم حزب البعث على نفسه، وانفصل عنه كثيرون، ليشكلوا أحزابًا كثيرة، وانقسم الحزب العربي على نفسه، وانقسم الناصريون على أنفسهم فأصبحوا أحزابًا كثيرة.

كانت هذه الانقسامات كلها تؤثر على وحدة أهل السنة مما استفاد منه النصيريون، وقد أصاب الإخوان المسلمين من الانقسام ما أصاب غيرهم.

والانقسامات الكبرى في الإخـوان المسلمين ثلاثة: انقسام سنة ١٩٥٤، وانقسام سنة ١٩٧٠، وانقســام سنة ١٩٨٦، وكل انقســام لم يتم إلا بعد مـخاض طويل، وكانت العوامل التي تؤدي إلى الانقســام متعددة، مثلاً فـانقسام سنة ١٩٧٠ كانت من أسبابه المباشرة أن التنظيم كان سريًا، والتنظيم السري يبقي على وحدة ما دامت القمة مـتفقة فإذا اختلفت وجـد الانقسام، وأما الأسباب غـير مباشرة فهي طبـيعة الأحداث المتحركة في سورية التي تجعل التطلعات كثيرة وكبيرة ومتعددة، ومن أهم التطلعات التي ساعـدت على الانقسام تطلع كثير من الإخوان إلى نظـرية تنظيمية تناسب الأوضاع في سـورية وتكافؤها، والتطلع إلى نظام ينبـثق عن هذه النظرية، وإلى مناهج فكرية وتربوية مناسبـة، وإلى خطة عمل تستهدى بها الجـماعة، ومع أنه ببـقـاء وحدة الجـمـاعـة يمكن أن تتم هذه الأمـور على التـراخي، ولكن وقع الانقسام، فتمزق الإخوان سنة ١٩٧٠ إلى ثلاث جماعات.

● في دور القوى الخفية في توجيه الأحداث في سورية

ليس هناك تاريخ واضح لدور القوى الخـفية في تاريخ سـورية الحديث، ولكن لا شك أن هناك قوى خـفية كـانت توجه الأحداث، يظهـر هذا من خلال بعض الكتابات، ومن خلال التـجربة والممارسة، ولكنا لا نعـرف إلى أي حد لعبت هذه القوى دورًا في أحداث سورية.

لقد ظهر كتاب «لعـبة الأمم» وكتاب «المخابرات الأمريكية» وكتب كثـيرًا عما فعله كوهـين الجاسوس الإسـرائيلي في سـورية، وكتب فـهمي المعـري أمين سر محــافل الماسونية في سورية كتابًا معلنًا عن الماسونية في سورية وذكر فيه أنه يوجد في سورية ساعة كتابته الكتاب: ثمانية وثمـانون محفلاً ماسونيًا في سورية، ولا شك أن أجهزة المخابرات العالمية كان لها دور في توجيه الأحداث في سورية، ومن ههنا فإن الإخوان المسلمين في سورية كانوا يواجـهون قوى خفية، وقوة ظاهـرة، وقوى داخلية، وقوى خارجية، وتركيـبًا معقدًا. وكانوا لا يعرفون الكثيـر عما يخطط الآخرون، ولم يكن هذا بمقدورهم، فلا عجب أن الحركة لم تستطع السيطرة على الأحداث.

● في استقبال الناس للحركة التصحيحية

رغم أن حافظ أسد كان شريكًا في الحكم منذ ٨ آذار (مارس) ١٩٦٤، وكان هو وزير الدفاع سنة ١٩٦٧، فقد استقبل الناس حركته التصحيحية بنوع من الابتهاج لأنها سبقتها ولحقتها شائعات واتفاقات وكان العهد الذي سبقها محسوبًا على صلاح جديد، وكان الناس متأملين من السياسات الداخلية والخارجية والاقتصادية لذلك العهد، فتأمل الناس بعهد جديد تتغير فيه سياسات سورية الداخلية والخارجية والاقتصادية، ومع أن حافظ أسد من الطائفة العلوية ولم يستلم سورية من قبله إلا مسلم سني، نسوا كل ذلك.

حتى أن حماة المشهورة بتدينها استقبلته استقبالاً رائعًا، وكان بالإمكان وجود شيء من التعقل ألا تحدث المواجهة الكبرى بينه وبين الحركة الإسلامية، لكن الأمور سارت في طريق المواجهة مما له قصته الخاصة به.

● في الثلاثة الذين خططوا لانقلاب ٨ آذار (مارس)

في كتاب «التجربة المرة» لمنيف الرزاز الذي كان الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، ذكر أن الثلاثة الذين خططوا لانقلاب ٨آذار (مارس) كانوا: محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ أسد.

أما صلاح جديد فقد كان العقل المفكر لكل المرحلة التي سبقت الحركة التصحيحية، ثم أنهاه حافظ أسد بالحركة التصحيحية وهو لازال في السجن حتى الان سنة (١٩٨٧).

أما محمد عمران فقد قتل في لبنان وهو يخطط لانقلاب في سورية، وعندما كنت في زنزانتي في السجن كان في الزنزانة المقابلة مجموعة شباب، وكانوا يحدثونني -في غفلة عن الحراس- ببعض أمورهم، ومما حدثوني به أنهم هم المجموعة التي اغتالت محمد عمران بتكليف من النظام السوري، ومع ذلك فقد اعتقلوا وحاكمتهم المخابرات السورية وحكمت عليهم.

● في أول محاضرة لي في الهفوف

دعيت لإلقاء أول محاضرة لي في الهفوف في ثانوية الهفوف في أمسية من أمسيات رمضان، وكان مبنى الثانوية في أطراف البلدة، ولم أكن معروفًا، فكان عدد الحضور قليلاً، مما جعل القائمين على الدعوة يرغبون في تأجيل المحاضرة، وقد اعتذروا إلي بخجل، فأصررت على أن أحاضر بالموجودين، فحاضرت ودعوت إلى محاضرة ثانية فلما جاء موعد المحاضرة الثانية كان عدد الحضور كثيرًا، ومن يومها أصبح الإقبال على المحاضرات والندوات لا بأس به.

كان مذهبي ولا يزال أن الداعية إلي الله لا يهمه أن يحاضر بواحد أو بمئة ألف، ولا يتغير قلبه إذا كان العدد قليلاً أو كثيرًا لأن مهمته الدعوة إلى الله، وهو جندي عند الله والأمر كله لله، فهو مستسلم لله فيما يفعله فيه.

ومن الناحية الدعوية، فإن الداعية إذا كان لا يحاضر إلا في الأعداد الكبيرة فإنه لن ينجح في دعوته، فالمحاضرة في الأعداد الصغيرة توصل إلى المحاضرة في الأعداد الكثيرة، والمهم أن يتقبل الله.

● في طموحاتي في التأليف

صدر كتابي «جند الله ثقافة وأخلاقًا» حوالي سنة ١٩٧١ ذكرت فيه أن الثقافة المتكاملة للمسلم ينبغي أن يدخل فيها إحدى عشرة مادة. والداعية الكامل ينبغي أن يأخذ حظه الكبير من هذه المواد كلها، ويمكن اختصار هذه المواد بعشر هي:

١- القرآن وعلومه.
٢- السنة وعلومها.
٣- علوم اللغة العربية.
٤- علم أصول الفقه.
٥- علم العقائد.
٦- علم الفقه.
٧- علم الأخلاق.
٨- علم التاريخ الإسلامي.
٩- علم الأصول الثلاثة.
١٠- علم فقه الدعوة.

ولم يزل طموحي أن أؤلف في هذه المواد العشر، فليس المهم أن يدل على المادة فقط بل العبرة أن يقدم الشيء المناسب والصحيح في المادة.

وقد كتبت سلسلة الأصول الثلاثة، وكتبت في فقه الدعوة عدة كتب، وانجزت الأساس في التفسير، والأساس في السنة وفقهها (تحت الطبع)، والأساس في قواعد المعرفة (لا زال قيد الإنجاز)، وهو في الأصول والمنطق، وأنجزت ثلاثة كتب في الأخلاق، وأنجزت كتابًا يصلح مقدمة للعقائد والفقه، وذلك كله من فضل الله، وأسأل الله أن يتم نعمته.

وكانت السنوات الخمس التي قضيتها في السعودية فترة مليئة بالخير في جوانب متعددة ومنها التأليف.

• في قصة نظام للإخوان المسلمين في سورية

كان للإخوان المسلمين نظام أساسي قديم منذ عهد الدكتور السباعي - رحمه الله - وكان هذا النظام ملحوظًا فيه أول دستور لسورية عام ١٩٤٨ وكان يناسب العهد الديمقراطي لسورية لذلك كان هناك شبه إجماع داخل الجماعة أن الجماعة بحاجة إلى نظام، ثم بعد أن تطورت الأوضاع في سورية تطورًا كبيرًا أصبح العمل الإسلامي في سورية بحاجة إلى نوع من الخطة ينطلق على ضوئها الإخوان، كانت علاقاتنا مع العلماء والصوفية وأصناف الدعاة إلى الله تسوء شيئًا فشيئًا، كانت نشاطاتنا محدودة، وأكثرها يعتمد على الخطابة، والخطابة تؤدي دورها في مرحلة ديمقراطية، وكانت سورية تنتقل من ديكتاتورية عسكرية إلى ديمقراطية مائعة إلى ديكتاتورية من نوع جديد، فالحاجة إلى القدرات التنظيمية في مثل هذه الأحوال هي الأهم.

ثم إن ما يجري في سورية مرتبط إلى حد كبير بأوضاع الجوار والصراع مع إسرائيل ومرتبط بأوضاع عالمية معقدة، وكل ذلك يقتضي تطويرًا مستمرًا في النظرية والتطبيق، وقد استلم الأستاذ عصام العطار حفظه الله القيادة من الدكتور السباعي بعد مرضه.

وعندما كان الأستاذ عصام العطار مراقبًا عامًا للإخوان المسلمين في سورية كلفني بكتابة نظام أرسلته له حسب الاتفاق على أن يعرض على الأخوة وتجمع الملاحظات حوله، ثم يصاغ ثم يعقد مؤتمر لمناقشته وإقراره، وبعد شهور جاءتني

رسالة منه أن النظام الذي أرسلته له أرسله إلى سورية فمزقه حامله على الطريق وطالبني أن أرسل نسخة منه إلى الداخل، ولكن الإخوان في الداخل اتفقوا على صيغة نظام ومع ذلك تم الانقسام.

كنت مؤمنًا إيمانًا قطعيًا أن العمل الإسلامي في القرن العشرين يجب أن ينطلق على ضوء قواعد ونظريات متصورة متجددة، وإلا فإنه سيبقى يدور في حلقة مفرغة، وكنت أظن أن هذا الأمر من البدهيات، ولكن تجربتي المستمرة أقنعتني أن هذا الموضوع من أكثر الموضوعات تعقيدًا، أو إنه من أصعب الأشياء على الإطلاق، مع أن هذا المليار من المسلمين في العالم لا يسعه إلا هذا التفكير.

• في طباعة الكتب

عندما أنهيت كتابة الأصول الثلاثة وجند الله في جزأيه أبلغت الأستاذ عصام العطار عند ذلك باعتباره المراقب العام، كان رأيه أن هذه الدراسات يمكن أن تكون قسمين: قسمًا ينشر كأي كتاب والقسم الخاص هو الذي يحتفظ به للدراسات الإخوانية البحتة.

حاولت مع أكثر من جهة أن تقرأ هذه الدراسات لتعطي ملاحظاتها، اعتذر الجميع، ما عدا الشيخ وهبي سليمان الغاوجي فقد قرأ ما قدمته له وأعطى ملاحظاته مشكورًا.

كان قد طبع من هذه الدراسات على شكل كراسة مقدمة المنهج التي بقيت لسنين طويلة تقرأ بإمعان في حلقات الأسر وكانت من كتابتي كما طبعت بعض كراسات من كتابنا «الله جل جلاله» ووزعت في مرحلة على بعض الأسر.

جاء أحد الإخوان إلى الحج، وكان مكلفًا بالعمل في معسكر تدريبي أعطيته هذه الكتب، وقلت له إنني لا أريد شيئًا من ريعها، وليخصص ريعها للمشروع الذي أنت بصدده، وأنت حر في أن تطبع هذه الكتب أو تجد ناشرًا، وإذا احتجت لمال فبالإمكان أن يمول المشروع ههنا ناس على أن يكونوا شركاء في الربح، طبع الأخ كتاب «الله جل جلاله» فلقى رواجًا فشجعه ذلك، ثم طبع كتاب «الرسول ﷺ»، ثم كتاب «الإسلام»، ثم كتاب «جند الله» ولقيت رواجًا كبيرًا بفضل الله.

***

الباب الثامن

من السابعة والثلاثين إلى التاسعة والثلاثين

(١٩٧٢-١٩٧٣م)

من العودة إلى سورية حتى دخول السجن

رجعت إلى سورية وتابعت إنهاء الإعارة للعودة إلى التدريس وطالت مدة المعاملة وأخيرًا عينت مدرسًا في ثانوية المعرة وعينت أم محمد زوجتي في إعداديات بنات حماة، ولقد درست العام الدراسي ١٩٧٢ في المعرة ودرست في العام اللاحق فيها واعتقلت بسبب أحداث الدستور منها.

كان تأثر الطلاب واضحا وتجاوبهم مع الفكر الإسلامي كبيرا، وهذا أزعج جهات متعددة لأن المعرة محسوبة على الفكر اليساري، وأكثر طلابها حزبيون.

كنت حريصا على أن أظهر بالمظهر الإسلامي المجرد دون أن أثير أي انتباه لعلاقاتي الإخوانية ولولا أحداث الدستور لكان بالإمكان أن أستمر على وتيرة متصاعدة في العمل الإسلامي والإخواني دون أن ينتبه إلى ذلك أحد.

كان مركز حماة في الظاهر واقفا في الصراع الإخواني على الحياد بين دمشق وحلب ولكن عواطف أهله كانت موزعة، وكان الاحتفاظ بوحدة المركز في تلك الظروف من أصعب الأمور، وكان الجنوح إلى أحد الطرفين يوصل إلى كارثة، وكانت عيون كبار المركز مفتحة على الصغيرة والكبيرة، والسير الحكيم وحده بعد توفيق الله هو الذي يضبط الأمور وكانت هذه مهمة القيادة.

بعد عودتي من السعودية جرت انتخابات من قبل أهل الحل والعقد في المركز وهم مجموعة منتخبة بناء على النظام الأساسي الذى تقدمت به قيادة مؤقتة، ونجحت في الانتخابات وكانت قيادة مركز حماة خمسة: أربعة منهم من مدرسي التربية الإسلامية.

انطلقنا في العمل وبدأت تظهر ثمرات ذلك طلابيا وعماليا وعسكريا ومثقفين جامعيين وخريجين، وقد بذلنا جهودا كبيرة حتى سيطر المركز على كل عناصره بمن في ذلك الطلاب الجامعيون الموجودون في جامعتي دمشق وحلب ولم يكن ذلك سهلا.

تعاملنا مع كل أبناء المركز بروح واحدة مهما كانت عواطفهم على أن تكون طاعتهم النهائية لقرار المركز الجماعي وكانت سياستنا مع كل الطرفين المتنازعين واضحة وحليمة وحازمة وعادلة ومقنعة، لذلك لم نعط لأحد من داخل المركز أو خارجه حجة علينا.

كتبنا تحليلا للأوضاع في حوالي أربعين صفحة ليطلع عليه الخاصة من مركزنا وتقدمنا لكل من الطرفين بعدد من المشروعات لإنهاء الخلاف وكان خلاصة تفكيرنا ما يلي:

١- أن كلا من الطرفين ليس وضعه شرعنا من الناحية النظامية فكل من الطرفين منتخب بناء على نظام لم يقر ولكي يقر النظام فإنه يحتاج إلى جلسة ذات نصاب خاص ولم يتوافر هذا النصاب حتى تلك اللحظة.

٢- إن الأسباب المباشرة للخلاف ليست هي الأهم وإنما الأسباب غير المباشرة هي الأهم.

حاولنا أكثر من محاولة لإصلاح ذات البين فلم ننجح

استقال أحد إخواننا من قيادة المركز فتحرك بعض أصحاب العواطف حركة عنيفة أشاعوا أن المركز يقوده اثنان فقط، ففجأنا الجميع بأننا قبلنا أن ندعو أهل الحل والعقد لاجتماع نتقدم فيه باستقالتنا ثم نتفق على سياسة للمركز تنتخب على أثرها قيادة وقد كان ذلك.

حضر أهل الحل والعقد وفوجئوا عندما علموا أننا وسعنا القيادة فأصبح يحضر مع القيادة مسئولو القطاعات فكان عدد الذين يناقشون سياسة المركز سبعة، أطلعنا الموجودين على سياساتنا فوافقوا عليها، جرى تصويت على هذه السياسة فأقرتها الأكثرية المطلقة بنسبة كبيرة انتخبت قيادة جديدة كنت أحد أعضائها.

كان أقوى مشروع للوفاق هو الذي تمت صياغته في بيت الشيخ مروان حديد - رحمه الله -، كان الشيخ مروان رحمه الله حريصا على الوفاق بأي ثمن وكان إذا رأى عنادا من أحد الطرفين طالب الطرف الآخر باللين، وقصة هذا المشروع هي:

جاء وفد يمثل الطرف الدمشقي، ونزل في بيت الشيخ مروان، استدعى الشيخ مروان عددا من كبار المركز، وكنت أحد المدعوين، فحضرت، تكلم الجميع وأنا ساكت، وبعد ذلك استأذنت بالكلام وبعد مقدمة طويلة تقدمت بمشروع وافق عليه الجميع، فوضعناه كتابة، وأعلنا نحن في مركز حماة أننا سنقف مع من يقبل هذا المشروع، هذا مع أن زملاءنا في مراكز الحياد غائبون وطرف حلب غائب، تعهد الشيخ مروان حديد بمتابعة طرف دمشق، وتعهدت أن أتى بموافقة طرف حلب، كان المشروع يقوم على فكرة بسيطة: هي أن هناك مراكز متفقا على شرعيتها النظامية، ومراكز هي محل خلاف، فالمراكز التي هي محل الخلاف يفوض رئيس القيادة المؤقتة باختيار الصيغة التي يراها مناسبة للوصول إلى الشرعية النظامية فيها، وبعد ذلك تجتمع الاطراف فتقر النظام الأساسي ثم تنتخب على أساسه مراقبا عاما جديدا للجماعة في سورية.

تحركنا بسرعة: سافر الشيخ مروان حديد - رحمه الله - إلى دمشق لمتابعة الأمر، وسافر أحد الإخوة إلى رئيس القيادة المؤقتة، وسافرت إلى حلب لآخذ الموافقة، أعطتنا حلب موافقة خطية، ووضع رئيس القيادة شرطا بالنسبة لحلب أن يسلم المركز لشخص بعينه، ورجع الشيخ مروان حديد برفض نهائي من جهة دمشق.

عقدنا اجتماعا لمراكز الحياد ووصلنا إلى فكرة المراكز المتفقة ومضمونة أن من قبل قرار مركز الحياد من الطرفين فستتحد نحن وإياه، ضغطنا على مركز حلب فقبل مبدأ التسليم للشخص المعين.

وهكذا وجدت المراكز المتفقة التي قبلت فيما بعد الحل الذي وضعه الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله لمشكلة سورية فيما بعد.

واجهتنا خلال هذه المرحلة أحداث كبيرة، وتعاملنا مع بعض الأحداث بأن عالجناها علاجا غير مباشر، وكان أن أدت بنا الأحداث إلى السجن بسبب موقفنا من الدستور وها نحن نعرض عليك هم أحداث هذه المرحلة، وتعاملنا معها.

• في موقفنا من انتخابات الإدارة المحلية

كان حافظ أسد يريد أن يقدم جديدا، وأن يضفي على حكمه مظهر الديمقراطية، وكان حريصا أن يجس اتجاهات الرأي العام، من خلال انتخابات تجريبية، فأوجد فكرة الإدارة المحلية وهو نوع بسيط من أنواع الحكم المحلي للمحافظات، وقد كنا خائفين من هذه التجربة لأنها محاولة لتوريط أكبر قدر ممكن من الناس في التعامل مع النظام، ثم هي يمكن أن تكون تمهيدا لانقسام سورية إلى عدد من الدويلات، لقد خشينا أن تكون مقدمة لدولة علوية ودولة درزية ودويلات داخلية في المستقبل.

وكان الوضع الإخواني المفكك وقتذاك لا يسمح بموقف موحد على مستوى سورية، كان قرارنا في حماة أن نقاطع الانتخابات، لذلك كان الحماس للانتخابات فاترا فلم ينتخب من مجموع الشعب إلا عدد قليل، أما حمص فقد أسقطت قائمة الحزبين وأنجحت قائمة أخرى، وهكذا كان الموقف من انتخابات الإدارة المحلية مؤشرا إلى أن اتجاهات الرأي العام ضد النظام.

• في إدارتنا لاحتفالات المولد النبوي قبل الدخول إلى السجن

لم يزل المولد النبوي في سورية مظهرا من المظاهر التي يعبر فيها الشعب السوري عن أصالته الإسلامية وتعلقه برسول الإسلام ﷺ، وأنه ضد الذين يتنكبون هذا الطريق فيحتج على أهل ذلك بطريق غير مباشر وكان أبلغ احتجاج بواسطة المولد ما جرى في عهد فرنسا، ثم كان ذلك فيما بعد أن سيطر النصيريون على سورية، وأخذ هذا الموضوع ذروته في عام ١٩٧٢، وأحس الجميع أن تظاهرات الشعب بالفرحة موجهة بشكل ضمني ضد النظام. خاصة وأنه قد تقارب الاحتفال بمولد الرسول ﷺ مع احتفال النظام بمرور خمسة وعشرين عاما على

ميلاد الحزب فعبر الشعب عن ابتهاجه بالمولد النبوي تعبيرا أراد به أن يقول: هذا هو الميلاد الذي نعترف به.

عبرت المحافظات السورية كلها عن هذه المعاني بقوة وكان تعبير حماه وحمص هو التعبير الأقوى.

لم يبق مسجد من مساجد حماة تقريبا إلا وأقام حفلة للمولد النبوي اجتمع فيها النشيد والكلمات المعبرة المؤثرة.

وكانت هناك حفلات ضخمة في بعض المساجد الرئيسية.

وعمت الاحتفالات قرى حماة كذلك.

غطت الزينات الشوارع والأسواق والأحياء والأزقة والبيوت والمدارس، كان الصغير والكبير في البلد فرحا مبتهجا.

عبر الأولاد عن فرحتهم بأنواع من المسيرات: مسيرات على الدراجات مسيرات ابتهاجية. نظمنا أن يكون في كل مسجد كلمات عقب بعض الصلوات تتحدث عن السيرة وعن الشمائل النبوية.

وكانت قيادة الإخوان في حماة تدفع في هذا السبيل دون أن يظهر أي فرد منها على الساحة تقريبا، فأنا مثلا لم ألق كلمة واحدة وسط هذا الحماس الهائل.

تفننت المساجد في التعبير عن الفرحة، استدعى خطباء من خارج حماة ليتكلموا، حدث في أحد المساجد أن طالب أمام المسجد وخطيبه: أن تقدم الهدايا للإسلام بهذه المناسبة: الهدية الأولى: أن يعم الحجاب. الهدية الثانية: أن يرسل الناس أبناءهم إلى حلقات القرآن في المسجد، الهدية الثالثة: أن يكثروا من الخروج مع جماعة الدعوة والتبليغ في الدعوة إلى الله.

قرر الشيخ مروان حديد أن يقيم احتفالا في حيه في مسجده الصغير وأن يلقي فيه بيانا شاملا يتحدث فيه عن موقف الإسلاميين وعن كل ما يجري حولهم لكن كانت سياسة قيادة مركز حماة تقوم على تعميق الإسلام في المحافظة وتحويل المتعاطفين إلى التنظيم دون أن تظهر على الساحة أو تدخل في مواجهة، وكان

الشيخ مروان يحسن بحرارة الحركة فيطمئن ويسلم، وكان من طبيعته أنه لا يسلم إلا إذا وجد عملا، زارته قيادة المركز وطالبته بأن يعدل عن قراره في الحديث عن رأي الحركة في الأحداث، وأن يكون المولد حافلا بالمعاني والتعليقات والإنشاد وقد كان ذلك.

كانت مناسبة المولد وانتخابات الإدارة المحلية ثم أحداث الدستور مؤشرات كاملة على توجهات شعبنا ضد النظام وعلى رغبته في الوصول إلى نظام بديل تتوافر فيه شروط معينة.

لقد استطعنا بفضل الله في هذه المرحلة القصيرة أن نحافظ على وحدة الإخوان المسلمين في حماة، وأن نخفف من تمزق الإخوان في سورية إلى أقصى حد ممكن واستطعنا أن نطور العمل الإخواني والإسلامي في محافظة حماة إلى ذروة رفيعة، وحددنا المسار في أمور كثيرة، وأثبتنا أن القيادة الحكيمة للمسلمين عبر الحركة المستمرة هي الطريق الأمثل لاستخراج الطاقات الإسلامية، وأن العمل الإسلامي عبر نكران الذات يعطي المردود الأجود فقد كنا في حماة نعمل سرا، ولم يكن يبالي أحدنا أين موقعه، وحيثما يمكن أن ينجح أحدنا فقد كنا ندفعه للنجاح وندعمه، وحيثما يمكن أن يفشل أحدنا أو عندما لا يكون مقبولا فإنه كان يتوارى باختياره. كانت مرحلة قصيرة ولكنها ملأى بالتجارب.

***

● في أحداث الدستور

لم يزل الإسلاميون في سورية منذ الاستقلال يصارعون من أجل دستور إسلامي أو دستور يعترف بأن دين الدولة الإسلام، وكان أشد أنواع الصراع الذي قام في أوائل أيام الاستقلال وقد بذل الدكتور السباعي - رحمه الله - جهودا هائلة، وفعل ما لا يخطر بالبال من تعبئة الجماهير وإقامة الحجج والإقناع والإنذار، ولكنه لم يصل إلا إلى أن دين رئيس الدولة الإسلام وأن الإسلام مصدر من مصادر التشريع وأن هدف التعليم إيجاد جيل مؤمن بالله، ثم تتابعت الأحداث والانقلابات على سورية.

فلما استلم حافظ أسد عزم على إصدار ما أسماه بالدستور الدائم لسورية، وكان يريد أن يجعله إنجازا من إنجازاته، ويركز السلطة فيه بيده بشكل دستوري، وكان يريد أن يمرر الدستور بنوع من المظاهر الديمقراطية وأن يرضي كل الأطراف، وكان يأمل من خلال الدستور أن يوجد وضعا جديدا في سوريا.

أنجز الدستور مجلس الشعب المؤقت وطرح الدستور على المناقشة العامة وأعلن أنه سيصوت عليه من قبل الشعب كله وكان حافظ أسد يخطط لأن تأتيه برقيات التأييد على الدستور من كل جهة.

قرأت الدستور وشعرت بالخطر فالدستور كان علمانيا محضا، وكان أول محاولة من النظام الحاكم في سورية، مبادئه من الإطار الحزبي الخاص إلى الإطار الدستوري العام، وكان واضحا أن الدستور سيكون مقدمة لإنهاء التعليم الديني في البلاد فهدف التعليم في الدستور إيجاد جيل علماني ومقدمة لإنهاء قانون الأحوال الشخصية الإسلامية وهذا كذلك واضح من بنوده، وتجاهل الدستور دين رئيس الدولة وأشار إشارة ما إلى أن الإسلام مصدر من مصادر التشريع، وقيد حرية العبادة بما لا يخل بالنظام، وجعل السلطات التشريعية والتنفيدية والقضائية بيد الرئيس، فكان واضحا أن سورية مقبلة على مرحلة ديكتاتورية لم نعرفها من قبل، وأن الإسلام سيصفى تصفية تامة، وأن المرأة المسلمة لن تعطى أي فرصة للمحافظة على شيء من إسلامها وعفافها، والحق أقول: إنه لولا أحداث الدستور لحدث هذا كله، ولكن أحداث الدستور خففت أو أجلت أو ألغت الكثير من هذه التوجهات.

لقد طرح حافظ أسد فيما بعد فكرة تعديل قانون الأحوال الشخصية وفكرة التجنيد الإجباري للمرأة، كما مرق الحجاب في شوارع دمشق، ومنع المتحجبات من دخول المدارس بحجابهن، ونقل كل من عنده تدين خارج ملاك التعليم، كل هذا قد تم فيما بعد ولكن الدستور كان المقدمة لهذا كله، وأحداث الدستور هي التي أخرت هذه الإجراءات وخففتها، كما كانت أول هزة عنيفة لحافظ أسد، فقد كان حافظ أسد يطمع في تصاعد مستمر ليرث عبد الناصر في زعامة العالم العربي

أن لم يكن يطمع في ما هو أكثر من ذلك، فجاءت أحداث الدستور فهزت هذا كله، فكانت نكسة كبيرة.

وقف الشعب ضد الدستور، صوتت بعض قطع في الجيش نفسه ضد الدستور حتى أن نسبة الرافضين للدستور في سلاح المدفعية كان أكثر من خمسين بالمئة قاطع قسم كبير من الشعب التصويت على الدستور، أثبت الشعب أنه حريص على إسلامه، عرف حافظ أسد أن هذا الإسلام عميق الجذور وأن عليه أن يراعيه في كل تصرف.

لكن هذا كله كلف كاتب هذه السطور غاليا، فقد كان حافظ أسد مصمما على إعدامه ثم صمم على أن يبقيه مدى الحياة في السجن ولكن لله مرادا آخر.

ولنبدأ عرض الأحداث:

عندما قرأت الدستور وجدت أنه لابد من عمل، وأن هذا العمل يجب أن يكون باسم علماء سورية، ورأيت أن طوائف كثيرة ستتجاوب مع هذا التحرك، فالناصريون والاشتراكيون وحتى مجموعة صلاح جديد وكل الناقمين سيلتقون حول هذا التحرك، وما دام التحرك باسم العلماء فستظهر الحركة كلها بالمظهر الإسلامي وهذا سيجبر حافظ أسد على تنازلات أو يعطيه درسا للمستقبل في وجوب مراعاة الإسلام، ورأيت أن علينا نحن الإخوان المسلمين أن نوصل الناس من وراء ستار إلى وضع يندفعون فيه دون أن يكون هناك أي ممسك علينا، وعلى هذا الأساس تحركت وأنا أداوم على تدريسي في المعرة، وقد سارت الأمور كلها على ما يرام وبالشكل المخطط له ولكن لله مرادا.

كان خوف الناس من النظام كبيرا وكان على أن أهتك عقدة الخوف، وعلماء سورية بطبيعتهم حذرون فكيف بالإمكان أن نجمعهم على موقف سياسي موحد؟ ومن هو الذي يجرؤ على أن يكون هو البادئ؟ كان الأمر في غاية الصعوبة، ولكن كنت استشعر خطورة أن يقول المسلم لدستور حافظ أسد نعم، كان واضحا لدي أن من يقوم ذلك بعلم يرتد، والمسلم الذي لا يعلم سيغرر به وسيوقع على ذبح إسلامه وهو لا يعلم، لذلك صممت على الحركة.

وكان زملائي في قيادة مركز حماة كلهم أصحاب عقل نظيف، بعد أن قررت العمل كتبت بيانا عاما في مناقشة الدستور وكتبت صيغة فتوى قصيرة في شأنه، بين يدي محاولتي إقناع من أستطيع إقناعه من العلماء بالتوقيع على هذا وهذا.

والعجيب أنني لم أكد انتهى من ذلك إلا وجاءني أحد الشباب يقول لي: إن مجموعة من علماء حلب قد مرت على حماة وطلبت أن يجتمعوا بعلماء حماة وحددوا لذلك وقتا وأنهم سافروا إلى حمص ليجتمعوا بعلمائها ثم يعودوا، وأنه قد اتصل بالشيخ خالد الشقفة والشيخ عبد الله حلاق رحمهما الله فطلبوا منه أن يدعوني مع آخرين لحضور هذا اللقاء فوعدته أن أحضر.

***

كان الشيخ محمد الشامي رحمه الله معروفا عند الجميع أن له صلاته القوية بالنظام، وكانت فلسفة الرجل تقوم على أساس الخدمة من خلال الصداقات مع الحاكمين، والناس في شأنه منقسمون فمنهم من يحسن الظن به على أنه لا يفعل ذلك إلا لمصلحة إسلامية هي خدمة الناس ومنهم من يسيء الظن به.

المهم أنه لم تكن هذه القضية خافية على وكنت أشعر أن الشيخ محمد الشامي قد أعطى ضوءا أخضر لنوع من التحرك بين المشايخ للمطالبة بشيء ما.

كنت أشعر أن الشامي يتحرك ضمن حد وبضوء أخضر من الدولة وقررت أن استفيد من ذلك ثم اندفع بعملية خاطفة لتحقيق ما أريد متجاوزا الحد الذي يريد.

وكان من المهم عندى أن يبدأ أحد العلماء بالتوقيع الأول ولم يكن في سورية أجرأ من الشيخ محمد النبهان - رحمه الله - في حلب وكان الشيخ الشامي هو مفتاح الشيخ محمد النبهان.

حصرت مساءا وفي نفسي أن أوجه الأمور بالشكل الذي خططت له.

حضر شيوخ حماة مساء وتأخر شيوخ حلب في حمص، تذاكرنا مع شيوخنا بخطورة الدستور وضرورة أن نفعل شيئا ما، حللت الوضع السياسي أمامهم ومناسبته للتحرك، وبقيت ضمن هذه الحدود، تأخر وفد حلب كثيرا، انتظرهم شيوخنا فترة طويلة ثم ملوا، رغبوا أن ينصرفوا أعلنت أننى على استعداد للبقاء

منتظرا الآخرين، سر الشيوخ لذلك، وانصرفوا على أن أبلغهم ماذا عند الآخرين، سررت لانصرافهم لأن هذا يعطيني حرية الكلام باسم شيوخ حماة وتجعلني أكثر حرية في النقاش.

جاء الوفد الحلبي، لم يكد الوفد يسمع آرائي ووجهة نظري حتى اقترحوا أن أسافر معهم إلى حلب لعرض وجهة نظري على شيوخها وأخبروني أن هناك اجتماعًا في حلب لمثل هذا. استجبت للعرض مباشرة وركبت في سيارتهم وتوجهنا إلى حلب.

ووصلنا إلى المسجد، كان الاجتماع منفضا إلا من قلة كان أحدهم الشيخ محمد الشامي، ذاكرتهم في الأمر، عرضت وجهة نظري في إخراج بيان وفتوى، أعطيتهم نسخة البيان والفتوى اللذين كتبتهما، طلبت من الشيخ الشامي أن يوقعها من شيوخ حلب، ثم يرسلها إلينا في حماة لنعمل على توقيعها من شيوخ حماة ثم ننطلق إلى حمص فدمشق فوافق على ذلك رجعت مباشرة إلى حماة وفي اليوم التالي كنت في مدرستي أدرس في المعرة، اجتمعت بقيادة المركز في حماة وحدثتهم عن وجهة نظري فوافقوا على المنحي العام للعمل.

تأخر جواب شيوخ حلب عدة أيام ثم جاء أحدهم ومعه الفتوى والبيان موقعين من حوالي ثلاثة عشر شيخا هم أكابر شيوخ حلب وكان الذي جرأهم على التوقيع هو اسم الشيخ محمد النبهان عندما رأوه على البيان والفتوى، كان ذلك بتأثير الشيخ الشامي وقناعة من الشيخ النبهان - رحمة الله - عليه بضرورة العمل ضد النظام.

كان ذلك نجاحا فوق ما كنت أتصور، كتمت عن كل الناس أن البيان والفتوى كانا من كتابتي.

كنت أعلمت شيوخ حماة بالحديث الذي جرى بيني وبين وفد حلب وأن هناك وجهة نظر ترى أن يصدر العلماء بيانا، وبقى علماء حماة ينتظرون الجواب فلما جاء الجواب دعونا لاجتماع، قرأ المجتمعون البيان والفتوى فوجدوهما شديدين، فقرروا أن يكتبوا بيانا ألين لهجة ويوقعوه وأن يتركوا للشيخ حسن حبنكة

- رحمه الله - في النهـاية حق وضع الصيغة النهائيـة للبيان وذلك من باب الأدب مع الشيخ حسن وكنت حريصا على أن يصاغ البيـان وأن يوقع مهما كانت الصيغة لينة.

وكتب البيـان وبدأ الشيخ خالد الشـقفة - رحمه الله - فـوقع وكان هو رئيس جمعية العلماء في حماة وقال وهو يوقع: سيعيد التاريخ نفسه فكما أنه حكم على ثلاثة من علماء حـماة في أواخر الدولة العـثمانيـة بالإعدام فسـيحكم على بعض علماء حماة بالإعدام من جديد، ثم تتـابع من وقع من العلماء على التوقيع، وقد رأي الشيوخ ألا يوقع على البيان الإخوان حتى لا يأخذ طابعا إخوانيا وكان هذا ما نريد ولذلك لم أوقع على البيان مع إعلان استعدادي وإ خواني للتوقيع.

كلف أحد الشيوخ أن يذهب إلـى حمص ومعه صيغة البـيانين الحلبي والحموي ليعرضهما على شيوخ حـمص وكان رأى شيوخ حمص أن بيان حلب شديد وبيان حماة لين والحكمة الوسط، وقرروا أن يكتبوا بيـانا بين بين ويوقعوه، ومبدئيا اتفق على توقيعه حوالي خمسة عشر عالما من حمص وبذلك نكون قد حصلنا توقيعات علماء حلب وحماة وحمص، وكنا دائما نطـرح فكرة أن الصياغة النهائية يجب أن تكون للشيخ حسن وكل ذلك قبل أن نلقى الشيخ رحمه الله.

البيان رقم ١

وفى هذه الأجواء قـررت قيادة مـركز حمـاة أن تقوم بخطوة سـرية تدفع نحو الأمام، وتشـجع الناس، وتشعر الشيـوخ أنهم ليسوا وحـدهم في الميدان، وتلفت نظر الدولة إلى أن هناك قـوى جديدة ستـتحـرك بعنف، وقد حقـقنا هذا كله من خلال بيان اسميناه بيان رقم واحد أعتـقد أنه أقوى بيان ظهر في سورية مدة حكم حافظ أسد.

كان البيان مناقشة مركزة لكل أوضاع سورية وقد حرصنا أن يمثل وجهات النظر السياسـية التي يتجاوب مـعها الشعب مما جـعل كل فئة تظن أن قيـاداتها أصدرته بشكل سري وقد وزعناه بالبـريد من أكثر من مكان في سورية كما وضـعه إخواننا في صناديق بريد البيـوت وكان ذلك في وقت واحد فلم تشعر الـسلطة إلا والبيان

موزع على قطاعات كبيرة، وبدأ الناس يقرأون البيان ويتجاوبون، وكثيرون من الناس بدأوا ينسخونه ويعممونه. وبدأت تعليقات كثيرة تظهر ونسمعها ونتجاهل قال الشيخ الشامي: ظهر بيان مثل السم الناقع وقد استدعتني المخابرات وسألتني عنه. قال الشيخ عبد الله الحلاق.: لقد دخلت قوى جديدة إلى الساحة، قال بعض الإخوان: انظروا ماذا فعل جماعة أكرم الحوراني أنهم بهذا البيان فعلوا أكثر مما فعله الإخوان دون أن يمسهم أذى. سألني فيما بعد أثناء التحقيق ناجي جميل عن البيان رقم واحد، فقلت له: أي بيان؟ فتجاهل السؤال وطوى الموضوع وبقي سر هذا البيان مطويا إلى مد بعيد.

خطب الجمعة قبيل أحداث الدستور

وزعنا بيان علماء حماة على خطباء الجمعية مطالبين باسم جمعية العلماء أن يشير الخطيب إلى الدستور مهما كانت الإشارة صغيرة، وكان الهدف من هذا هو أن يألف الناس الهجوم على الدستور فتهتك بذلك عقدة الخوف عند الناس، تكلم الخطباء فأصبح جو حماة مشحونا ولم تعد المدينة بحاجة إلا إلى دفعة حتى تنفجر، وههنا تحمس الاشتراكيون وأشاعوا أن يوم الثلاثاء يوم إضراب، وكان هذا الذي نريد، أن يتخذ قرار الحركة غيرنا ليشاركنا في تحمل المسئولية، تحمس الناصريون وأصدروا بيانا وهكذا بدأت الأمور تتوالى بالشكل الذي نريده.

سافرنا إلى دمشق ومررنا على حمص، وهناك حضرنا لقاء لمجموعة من العلماء في مقر الجمعية بحمص أعلمناهم أننا ذاهبون للشيخ حسن، أخبرونا أن ما يقوله الشيخ حسن فهم معه، أعلمونا أن هناك خمسة عشر عالما موافقون على التوقيع، أعطونا نسخة من بيانهم، تابعنا طريقنا إلى دمشق، بدأنا مع أحد أشياخها وأطلعناه على مهمتنا وأخذناه معنا وذهبنا إلى شيخ آخر واطلعناه على مجريات الأمور فأعلمنا أنه شريكنا، قلنا له: إننا ذاهبون إلى الشيخ حسن وسيسألنا عن رأيك فماذا نقول؟ قال: قولوا له: إنني أرى العمل.

ذهبنا نحن وعدد من الأشياخ إلى الشيخ حسن فاستقبلنا استقبالا حارا، وبدأ حديث وحوار من أصعب أنواع الحوار، فلقد كان الشيخ حسن في وزن الجبال

ورزانتها، مع علم ووقار وبيان وحنكة وتجربة وقوة شـخصية، كان الكبار والصغار والحاكمون والمحكومون عنده تلاميذ.

وأخيرا وافق على العمل، درس البيانات الثـلاثة رجح بيان حماة بعد أن أجرى عليه ثلاثة تعديلات ووعدنا إذا وافق علماء سورية على البيان في صيغته النهائية أن يقدم لنا سبـعين توقيعا، ومن قـبل كنا قد مررنا على الشيخ عـبد الكريم الرفاعي فقال: ما يقـوله الشيخ حسن فأنا أقوله، وهكذا ضمنا توقيـعات كل علماء سورية على بيان مشـترك وأظن أنه لأول مرة في تاريخ سورية الحـديث يقف علماؤها في كل المحافظات موقـفا سياسيـا مشتركا فـيه مواجهة، رجـعنا من دمشق في الليلة نفسها وفي صبيحة اليوم التالي كنت في ثانوية المعرة أدرس وكان شيئا لم يكن.

كان قرار الوصـول إلى المراكز المتفقـة حديثا، ولذلك لم تكن هناك جـهة عليا مركزية نستشيرها قيادة حمـاة في تصرفاتها، ومع ذلك فقد كان هناك لقاء قد يكون اللقاء الأول لمجلس شورى المراكز المتفقة وكان موعد اللقاء في حلب، حضرت أنا وأحد أعضاء القيادة هذا اللقـاء، تغيب عنه بعض الإخوة، أطلعنا الموجودين على خطواتنا، لم يبدوا اعتراضا لكنهم حذروا من الشيخ الشامي.

في يوم الثلاثاء وهو موعد الإضراب ذهبت إلى حلب واطلعت الشيخ الشامي على ما جرى معنا، وهنا اعلمنا أن حافظ أسد قد أصدر بيانا مطولا يتحدث عن الإسـلام ويعلن عن أنه يطلب من مـجلس الشعب أن يدخل مـادة في الدسـتـور تنص على أن دين رئيس الدولـة الإسلام، وكـان الشامي يتـكلم بصوت مـرتفع ظننت أنه يسجله ليعرضه على بعض الجهات ليحمي نفسه وأبلغنا الشامي أنه يرى أن نكتفي بهذا الانتـصار، وتكلمت بصوت منخفض حول ضرورة إخـراج البيان واتفقنا على ذلك ورجـعت إلى حماة، وكـان فيمـا جرى فيـها سر البـيان الذي أصدره حافظ أسد.

لقد خرج طلاب حماة في مظاهرات عنيفة وهم يهتفون: لا دراسة ولا تدريس حتى يسلم الـرئيس، ومزقوا صـور حافظ أسد، وأهانوها بـأبشع الإهانات، كان

ذلك يوم ثلاثاء، وكـان أخطر من ذلك مـا جـرى في حـماة يوم الأربعـاء، لقـد خرجت البلد عن بكرة أبيها، هاجمت مركز الحزب وأحـرقت مركز شبيبه الثورة، وأحاطت بالاتحاد النسائي وسيطر الشـعب على الشارع، وحطم الخمارات والمقاهي التي تقدم الخمـر وكان في المدينة مقهى يرتاده بعض الفجار على «الـعاصي» اسمه مـقهى الغـزالة، دمره الـناس تدميـرا وبقي الشعـب آخذا حـريته كـاملة دون أي معارضة، وكـادت السلطة في دمشق نتيجة للبيـان رقم (١) تظن أن قطعا عسكرية ستتحرك، ولذلك لم تفعل شيئا ضد الشعب في حماة، فتفرق الناس وهم فرحون بانتصارهم، نزل رذاذ نظيف لطيف على المدينة أحس الناس به أن الله راض عنهم بما فعلوا.

خشي حافظ أسد أن يسري ما جرى فى حمـاة إلى بقية المحافظات فأصدر بيانه سريعـا وعمـمه على القرى والمدن والمخـافر وبدأت أجـهزة الدولة تطنطن بالبـيان وتستدعي الناس من أجل الاطلاع عليه وأخذ توقيعاتهم على تأييده.

ونتيجة لإضراب حمـاة واحتمالات متابعتها الإضراب خـشيت أن تحاصر حماة فتنقطع عن بقيـة المحافظات فأرسلت إلى أحد أشياخ حمص رسـالة أعلمه بها بما حدث وأن الاشـتراكـيين والناصريين فـجروا الوضع في حـماة، وقـد أصبح من المصلحة أن نصدر البيان فالرجاء إرسال أسماء العلماء الذين وقعوا عليه فأرسل لي حوالي ثلاثة وعشرين اسما.

استدعيت أحد الإخوان وكلفتـه أن يطبع لي البيان على ورقة حرير ويضع عليه توقيعات علماء حلب وحماة وحمص والشيخ حسن رحمه الله.

ولقد نسـخنا هذا البيـان على قطعة خـشبيـة يصنعهـا الطلاب كنوع من أنواع النشاط المدرسي، ووزعنا الـبيان في حمـاة وأرسلنا منه نسخـا إلى حلب وحمص ودمشق، استطاع طـلابنا الجامعيون الحـمويون في دمشق أن يوزعوا ويعـمموه فى دمشق أربع مـرات خلال أربع وعشـرين ساعة دون أن يعـتقل واحـد منهم، لقد أنشأوا جهاز عمل مصغر لكنه قوي وفعال استطاع أن يفعل الكثير.

قال أحد إخـواننا الدمشقيين لأحد هؤلاء: إن مـا يــجـري الآن لا يـسـتـطيعـه إلا المخابرات الأمريكية. وبقي الأخ صامتا.

تهيج الوضع في دمـشق، خطب كثيـر من خطباء الجمـعة ضد الدستـور، قرأ الكثيرون البيان على المنـابر، سئل الشيخ حسن عما إذا كان توقيعـه صحيحا على البيان، كان الجواب غامضا لا تدينه به الدولة فشعر الناس أن له علاقة في الأمر.

كـانت رجل ابنتي فاطمـة تحتـاج إلى علاج عـلى أثر حادثة بسـيطة، أخذتهـا للعلاج إلى دمشق.

وهناك فكرنا في أن نجـعل دمـشق تضرب، وخططنا لـذلك، ولكن علقنا هذا على حدث كبير كان يعتقل الشيخ حسن حبنكة مثلا.

كنت حريصـا على ألا انقطع عن مدرستي بلا عـذر، لأنني كنت أطمع أن تمر المسألة دون أضرار كبـيرة طمعا في أن أستطيع الاستمرار في العـمل الجهري وكان بالإمكان أن يحدث هذا فعلا، لكن سارت الأمور في طريق أخر.

اعتقل من علماء سـورية أحدهم وكان إخوانيا لأن اسمه كـان في البيان، وكان واضحـا أنه أصبح بالإمكان أن أوتي من أكـثر من جهـة، قررت أن يكون ٥ آذار (مارس) ١٩٧٣ آخر يوم عندي في التدريس فـأصفي أموري في الثانوية من إعطاء أوراق وعلامات وغيـر ذلك ثم أتوجه منها إلى حلب، لكن جاء أمر اعـتقالي وأنا في التدريس ومع ذلك كنت مطمئنا إلى أنني أستطيع الخروج من المأزق لأن دوري في الأحداث كـان سهـلا في الظاهر والمأخذ على قليلة، لكن الاعـتقـال جر إلى اعتقال وأخذت المسألة طابعا آخر وكان حافظ أسد يريد أن يرهب الناس وهكذا دخلت محنة السجن الطويل الذي استمر حوالي خمسـة سنوات كان ذلك من ٥ آذار (مارس) ١٩٧٣ إلى نهاية كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨.

● في طريقتي في العمل الدعوى

إني أومن أنه لابد من التـفكير الاستـراتيجي للعـمل الإسلامي الذي يقـتضي حركة يومية على ضوء تدبر النتائج، فإذا توفرت النظرة الاستراتيجية فإني أومن أنه

لا يصح للداعية أن تمر عليه دقيقة إلا في عمل دعوى، وإلا يترك فرصة يخدم فيها دعوته إلا ويفعل، وإلا يترك فرصة تمر يستطيع فيها أن يوصل الإسلام إلى مواقع متقدمة إلا وعليه أن يستفيد منها، وهذا الأسلوب المتحرك الذي أصبح جزءا من طبيعتي جعل الكثيرين من إخواني يتهيبون من مواقفي ومن آرائي وهم معذورون، فما أصاب الحركة الإسلامية يجعل القائمين عليها أقرب إلى الأناة والحذر، فإخواني معذورون وأرجو أن أكون معذورا، وأسأل الله أن يتقبلنا جميعًا.

***

الباب التاسع

من التاسعة والثلاثين إلى الثالثة والأربعين

(١٩٧٣-١٩٧٨م: السجن)

كان هناك أكثر من منفذ للسلطة على تستطيع من خلاله أن تعرف أنني متحرك ضد الدستور، فأي عمل عام لا يخفي على سلطة حذرة ذات أجهزة مخابرات نامية، لكن السلطة تظاهرت بأنها مستعدة لسماع الرأي في الدستور، وكانت تصرفاتي ضمن حدود وأقوالي ضمن حدود والمطالب التي اتفقنا مع الشيخ حسن - رحمه الله - عليها محدودة، ووجيهة وقد حرصنا أن تكون ذات طابع ديني بحت، كان البحث عني من قبل السلطة مركزًا مما يدل على أنه قد بلغت السلطة معلومات عنى، فاعتقلتني مخابرات «أدلب» في المعرة ثم نقلت إلى أدلب ثم إلى حلب ثم إلى دمشق في مبنى مخابرات الحلبوني فقضيت فيه ساعات تعرفت بها على بعض المعتقلين ثم نقلت إلى سجن المزة العسكري وبقيت فيه حتى خرجت منه.

لم تكن عندي تجربة سابقة بالتحقيق المخابراتي، في الوقت الذي أصبح فيه التحقيق المخابراتي يمتلك من التجارب والقدرات والوسائل والإمكانات وطرائق التعذيب والإرهاب والضغط النفسي والتأثير الفيزيولوجي على الأعصاب بالأدوية والتحكم مما يجعل أسير المخابرات في بلد لا يأبه بدستور وقانون يدخل في عذاب هائل.

أن مجموعة من الوحوش والأفاعي والعقارب تهاجم إنسانًا لا تفعل إلا بعض ما يفعله وحوش المخابرات الذين تتفتق أذهانهم عما هو أكثر ألما في وضع لا حماية فيه للضحية لا من قانون ولا من دستور.

وكنموذج على عدم حماية الدستور للإنسان في بعض الأنظمة ما حدث لي، فحافظ أسد يعتقلني لأنني طالبت بذكر بعض المواد في دستور ينص على أنه يمنع

التعذيب الجسدي، فها أنا أعذب جسديًا، وقد تم التصويت على الدستور في الأيام الأولى للتحقيق وعرضوا علي أن أدلي بصوتي فرفضت، وبعد أن تم التصويت على الدستور وأصبح مقرا قلت للمحققين في إحدى جلسات التحقيق: أنكم تحاسبونني على موقفي من الدستور، وهذا يقتضي أنكم مؤمنون بالدستور إيمانًا مطلقًا، والدستور ينص على منع التعذيب الجسدي، فالمفروض أن يتم التحقيق بلا تعذيب، فما كان من بعضهم إلا أن سب الدستور، ثم زادوا الضغط علي ليقنعوني أن الدستور لا يعطيني أي حماية.

لم تكن لي تجربة مع التحقيق لكن ثقافتنا كانت نامية فيه بسبب كثرة الاعتقالات في صفوفنا، لذلك كنا متفقين سلفا مع إخواننا العاملين في مركز حماة عن ماذا نتكلم لو حدث اعتقال بحيث يكون كلامنا متطابقًا ونقتصر على الحد الأدنى من الكلام الذي لا يسبب ضررًا للمعتقلين ولا يؤدي إلى كشف التنظيم، ومع أن مثل هذه القضايا أصبحت لا تفيد في سورية لكنها بفضل الله وستره أفادتنا يومذاك ومر اعتقالنا واعتقال إخواننا والضرر قليل وقد حفظ التنظيم إلى حد كبير.

بقيت في السجن خمس سنوات، قضيت فيها من الزنزانات الانفرادية حوالي سبعة أشهر ونيفًا، نصفها منفردًا، ونصفها الآخر مع ضابط دمشقي كان من مجموعة الضباط الأحرار الذين خططوا لأحد الانقلابات وكشف أمرهم.

قضيت فترة ما بعد الزنزانة في عدد من المهاجع:

مهجعين ضما إخوانًا مسلمين وناصريين في الغالب، ومهجعا ضم إخوانا مسلمين وبعثيين قوميين وفيهم مجموعة ضباط كانت تخطط لعمل فكشف أمرها.

والمهجع الأخير ضمني مع مجموعة الشيخ مروان حديد - رحمه الله - وكان معنا آخرون.

والسنوات الخمس قضيتها في سجن المزة العسكري، وقد كان مديره ابتداءً «رسمي العيد» وهو نصراني، ثم جاء بعده «بهجت الصالح» وهو نصيري وقد

خرجت من السجن في عهده، وكان سجن المزة العسكري يتبع من الناحية الإدارية شرطة الجيش، وكان على رأس شرطة الجيش إلـى أمد طويل «العميد علي مدني» ثم أصبح مسئولاً عن أحد أجهزة المخابرات، وهو حموي من حينا وجمعتنا مع بعض سني الدراسة في المرحلتين الإعدادية والثانوية، لذلك فهو يعرف عن مرحلة صباي الكثير ويعرف حماسي للإخوان المسلمين وأنا شاب.

كانت محنة السجن من أعظم منح العناية الربانية، فقد أنجزت فيها من المؤلفات ما لم أكن لأنجزه لولا السجن، وأعنت تجربتي، وعمقت إيماني، وأعطتني دروسًا كثيرة، وطورت مفاهيمي السياسية كثيرًا من خلال التماس والحوار مع كل شرائح العاملين في الحقل السياسي في سورية، لكن كان هناك شيء واحد يقلقني، أن الضربة أتت صفنا في وقت مبكر، وأن المراكز المتفقة كانت في أول نشأتها فكنت قلقا على مصيرها، ولكن الله تولاها، فلما خرجت من السجن كانت من القوة بمكان، وكانت أصعب مراحل السجن مرحلة التحقيق والزنزانة، وهذا كلام مختصر عنها:

استمر التحقيق معي أكثر من أربعين يومًا، والتحقيق في سجون الظلمة من أصعب ما يواجه الإنسان في حياته وخاصة إذا كانت علاقاته واسعة أو مرتبطا بتنظيم، فكل كلمة يمكن أن تجر كارثة على إنسان أو أسرة أو مجموعة أو جماعة على مستوى القطر كله وعلى مستوى الداخل والخارج، ولقد اعتبر فقهاء الحنفية أن من الإكراه الملجيء سجون الظلمة فهى كالقتل أو كقطع الأعضاء تبيح للإنسان أن يقول ما لا يجوز.

كان همي في الابتداء إلا أعترف بشيء عن أي شيء مهما كلف الأمر، وبقيت مصرًا على موقفي حتى أتوا بأحد الأشياخ من وراء الباب ووجهوا له أسئلة وأجاب عليها فعرفت أنه قد أسقط في يدي وأنه لابد من الاعتراف بشيء حول التحرك ضد الدستور، وصممت ألا أتجاوز ذلك إلى غيره وكان ذلك، واستطعت أن أبقى في هذه الدائرة بفضل الله لكني تحملت مسئولية التحرك ضد الدستور كاملة بمفردي ولكن اعتقال أحد الإخوان -من دير الزور وهو يسكن حماة- كشف

عن بعض التنظيم الإخـواني في حمــاة، فكتب كمــا روى لي مرافقــه في الزنزانة حوالي أربعين صفحة، وكانت حـجته أني اعترفت عليه ولم يكن شيء من ذلك، فلما فوجئت بذلك وفـوجئت بذكر عدد من الأسماء الذين هم في مركـز المسئولية وأنهم قد اعتقلوا وجدت أن الأمر اتسع وأصـبح يحتاج إلى تصرف حكيم، قررت أن أتحدث بالقدر الذي يحصر الدائرة في حماة ولا يتجاوزها خارج حماة وقد كان ذلك.

لقد استطاع المعتقلون الحمويون أن يتحدثوا ضمن المتفق عليه وضمن ما توقعوه أنه مكشوف فأحسنوا التصرف وتحملوا العذاب فلم يكشف من تنظيمنا الحموي إلا قليلاً، ولكن اثنين من الإخـوة أحدهما حموي والآخـر غير حموي أوجـدا خرقا على إخواننا خارج حماة فتوسعت الدائرة.

كانت السلطة قـد اعتقلت قـبلي أحد الأشيـاخ ووضعته فـي ظروف قاسية كـما أخبرني بعض من شاهدوا تعذيبه، وكان الشيخ يعرف أسرار الجماعة تفصيلا، وتحت التعـذيب الشديد أعطاهم رؤوس خيـوط سواء بالنسبـة لقضيـة الدستور أو بالنسبـة للإخوان المسلمين، وقـد تحرك علماء سورية بســرعة لمناقشة حافظ أسـد في الدستور وللمطالبة بالشيخ المشــار إليه. ولكن الجلسة استمرت سـاعات دون طائل كان حافظ أسد هو المتكلم الـوحيد تقريـبًا، وكان جو الإرهاب مـسيطرًا على الجـميع لذلك لم يخرجوا بفائدة من اللقاء.

المهم أن رأس الخيط كان بأيديهم قبل اعتقـالي، ولقد كنت مصمما على الموت على أن يحـدث خرق من قبـلي ولكن عندما يحـدث الخرق يجـد الإنسان نفـسه مضطرا للتـعامل معه بقـدر لأنه لا فائدة ترجى في تلك الحالة من التـصلب ولقد كانت سيـاستي أثناء الاعتقـال أنه إذا وجد خرق وكان باستطـاعتي أن أخفف من آثاره أو أن أوجهه وجهة تصرف النظر عن جهته فعلي أن أفعل.

كان مركز حمــاة يرتبط به المئات من كل أصناف الناس فخرجوا نتيجـة التحقيق أننا في حمــاة لا شيء، وأننا مبـتدئون بالعمل وأنه لا عـلاقة لنا بأحـد في خارج

حماة، فلما حدث الخرق خارج حماة تكلمت بما أشعرتهم فيه أن وضع الإخوان المسلمين أتفه من أن يفكر فيه وأن تمزقاتهم تجعلهم لا يفكرون بشيء وأنه لا شيء من الناحية التنظيمية إلا بدايات لا تساوي شيئًا وقد أعطي ذلك للمعتقلين فرصًا وخفف من حدة التعذيب والعقوبة، لذلك انتهت أزمة بعضهم بعد شهور فأفرج عنهم وانتهت أزمتهم جميعًا بعد سنتين، والوحيد الذي بقي في السجن بسبب أحداث الدستور هو الفقير فقد قضيت كما ذكرت حوالي خمس سنين.

لقد تعاون على التحقيق معي ناجي جميل، وحكمت الشهابي، وعدنان الدباغ، وعلى دوبا، وعلي مدني، ورسمي العيد، ومحمد الخولي، وغيرهم، وقد كان انطباعهم الأول أنني إنسان متزمت غرر بي محمد الشامي وأنني إنسان عادي، ثم تطور التصور فأحسوا أنهم أمام إنسان قدراته الحركية واسعة، ثم تطور التصور عندما بدأوا في دراسة كتبي وخاصة «جند الله»، ثم تطور التصور عندما اعتقل بعض الإخوان.

لقد كان استمرار التحقيق مع المعتقلين يعطي عني تصورا متغيرًا حتى وصل الأمر إلى أن حافظ أسد صار يعتبر إعدامي بدهية ثم تنازل فقرر إبقائي في السجن مدى الحياة، ثم لظروف انتخابه لفترة رئاسته الثانية أفرج عني.

استطعت أنا وإخواني في حماة أن نؤكد أننا لا نشكل خطرًا، وأننا مبتدئون بالعمل التنظيمي داخل حماة وأن أقصى ما يمكن أن يصل إليه عدد الإخوان المسلمين في حماة حوالى خمسة وعشرين أخا، بينما كان يرتبط بمركز حماة ما لا يقل عن ثلاثمائة أخ جامعي، وكان يرتبط بالمركز مئات الطلاب الثانويين والإعداديين، وكان يرتبط بالمركز أعداد جيدة من الخريجين والمعلمين والعمال، وجاءت مصادفة كان لها تأثيرها على تفكير أجهزة أمن الدولة إلى سنوات، ولقد حاولت أن أستغلها إلى أقصى حد:

اعتقل أخ لبناني متدين ومتحمس وكان يتردد على حماة كثيرًا وله صلة بالإخوان وبالعلماء، وقد جاءني مرة يروي لي تصرفًا قام به الشيخ مروان ومجموعة من

الإخوان، فقد ذهبوا إلى مفتي حماة الشيخ بشير المراد وتحدثوا معه بشيء من الخشونة وكان رده طيبًا، فذكرت للشيخ المشار إليه أن مثل هذه التصرفات تؤثر على توجهاتنا، وأن مخططنا في الحركة على حسب اجتهاد الأستاذ البنا غير ذلك، فعندما اعتقل الشيخ ذكر هذه التفصيلات أمام المحققين ففتحت عليّ بابًا صعبا من ناحية ونفعتنا من ناحية، فقد استقر في أذهان المحققين بسبب ذلك أنه لا علاقة لي مع الشيخ مروان وأولها بأن بيننا تنافسا على الزعامة، ولكنهم بدأوا يركزون ويسألون عن تفصيل مخططنا، فأصررت على أنه لا توجه عندنا إلا نحو العلم والدعوة، وأن من يقول غير ذلك كذاب، واجهوني بالشيخ المشار إليه فأصررت على ذلك وأسمعته كلامي بدقة وبسرعة، فهم منحي كلامي، ويبدو أنه بعد أن أخرجوني تكلم بنفس الروح التي تكلمت بها وانتهت الأزمة، لكن خرجوا بانطباع أن الإخوان المسلمين ليسوا جميعًا على نفس واحد في المواجهة.

كشف الشيخ السوري الذي اعتقل قبلي أنني أرسلت له رسالة ثم أرسلت له البيان الذي فيه توقيعات العلماء، وهذا أفاد من ناحية وأضر من ناحية أخرى، كنت ذكرت له في الرسالة أن الاشتراكيين والناصريين هم الذين قاموا بالحركة في حماة وكنت صادقًا في ذلك، وهذا القدر أفاد كثيرًا، فإنهم صدقوه لأنه رسالة من شيخ إلى شيخ قبل الاعتقال فلا مجال للتهمة، ولكن من ناحية أخرى أثبت أن لي علاقة في العمل وفي البيان، فلم يكن أمامي إلا أن أتحمل مسئولية البيان، ولما عرفوا أن البيان نسخ بين خشبتين أدركوا أن الأمر سهل وأنه في منتهى البساطة، فلقد كانوا قبل ذلك يسألونني عن التمويل والتسليح والاتصالات بين القوى السياسية في البلد ثم سكتوا عن هذا كله.

كانت زنزانتي الزنزانة رقم ٨ داخلية وهي مشرفة على مدخل السجن، ولقد وضعوني بها فيما يبدو لأكون تحت الإشراف المباشر لإدارة السجن فلا أتصل بأحد، لكن كنت أستطيع من خلالها أن أرى القادمين الجدد إلى سجن المزة، وفي اليوم المخصص للحمام كنت أستطيع أن أرى كل نزلاء السجن ولكن إدارة السجن كانت تراقبني ولا تسمح لي بالوقوف حيث أستطيع الرؤية.

من العادة في السجون أن يعطوا السجين فرصة للتنفس خارج زنزانته أو مهجعه، بقيت حوالي شـهرين دون أن أعطى هذا الحق، وبعد ذلك صاروا يـخرجونني تحت المراقبة الشديدة وبعد إخلاء منطقة التنفس حتى لا أرى أحدًا ولا يراني أحد، وكانت المدة المخصصة لي دقائق معدودات.

من المعلوم أن السجن الانفرادي من أشق أنواع السجـون ولكن الله خففه علي بالصلاة وتلاوة القرآن.

أذنوا لي بعد فترة من التحقيق أن أخذ مصحفي وقد أعطاني هذا فرصة أن أعيد حفظي للقـرآن بعد أن كدت أنسى الكثير منه بسبب ظروف العـمل، وكانت هذه أكبر نعمة من نعم الله على في السجن.

أتيـحت لي فرصـة التأمل الواسع في القـرآن فتـيقنت من نظريتي في الـوحدة القرآنية التي بنيت عليها تفسيري فيما بعد.

قضيت أكثر أيامي في الزنزانة صائمًا قائمًا وكنت لا أدخل عليَّ من الطعام إلا أقله مما أعادني إلى حيويـتي الأولى وشبابي وقد خف وزني كثيرًا بـسبب ذلك وكاد مرض السكري أن يتلاشي ولكن نقلنا إلى المهاجع بعد ذلك أعادنا إلى وضعنا الأول.

كان بعض قاطني الزنزانات تطرأ عليهم طواريء فكنا نسمع أصواتهم في بعض نوباتهم الجنونية، ذلك كله كنت منه في عافية بفضل الله.

لا أذكر الإهانات والتـعذيب فذلك نحـتسبه عـند الله إلا أن المشرف على هذا والذي كان يعتبر جلاد سجن المزة قد قتله الإخوان فيما بعد.

كنت أرى من زنزانتي حـفلات السلخ والجلد والتـعذيب للـقادمين الجـدد إلى سجن المزة، وكان أكبـر فوج دخلها بعد فوجنا فوج الضباط الأحـرار الذي أعتبره أجرأ تنظيم عسكري سياسي وجد في سورية.

وقد أدخلوا واحدًا منهم على بعد حوالي أربعة أشـهر من اعتقالي، ومن خلاله عرفت أشـياء كثـيرة مما حدث في سـورية بعد دخولي السـجن، كنت في الابتداء

حـذرا منه وكان حـذرا مني، فـقد تعـلمنا أن من أساليـب المخابرات أن يضـربوا أحدهم ضـربا مبـرحًا ثم يدخلوه على بعض المتـهمـين لينتزعـوا بعض الأسرار، وكانت خطتي التي التزمت بها مع أقرب المقربين وعممتها على الإخوان ألا يتكلم الإنسان مع أحـد إلا في الحدود التي تكلم بها مع المحـققين، ولقـد خالف بعض الإخوة فندموا كثيرًا عندما فتح تحقيق جديد.

وهكذا قضيت مع ذلك الضابط بقية أيام زنزانتي، لم يكن يصلي أو يصوم من قبل، وكان كثـير السكر قبل التزامه بتنظيم الضبـاط الأحرار الذي كان يحرم على أعضائه أن يسكروا كي لا يدلوا بمعلومات، صلى وصام فترة وجودنا معا لكنه عاد إلى وضعه الأول بعد أن افترقنا، كان أبواه صالحين كما حدثني.

كان يتضايق من كـثرة صلاتي وقراءتي القرآن لأنني بذلك أحـرمه المسامرة ولم يكن عندي قـدرة على تعطيل برنامـجي، كنت أسـهر الـليل وهو نائم، وأنام في النهار وهو مستـيقظ، وكنت أعطيه الكثير من وقتي ولكن لا على حـساب عبادتي وتلاوتي.

قـامت حرب تـشرين (أكـتـوبر) ونحن في الزنزانة، قـصف سـجن المزة لكن الصاروخ نزل قـريبًا منه بفضل الله، أخرجـونا من الزنزانات لأنهم احتاجـوا إليها لوضع الأسرى اليهـود فيها، ولولا ذلك لبـقينا في الزنزانات سنين، وهكذا نقلت إلى مهجع فـيه ناصريون سجنوا بسبب أحـداث الدستور وأحداث لحقتـها، كانوا يظنون أن سـجن الإخوان المسـلمين مع الناصـريين مـفيـد في تعـميق الهـوة بين الطرفين، ولـكن الواقع أن كلا من الطرفيـن كان نموذجيًـا في حسن التـعامل مع الآخر مدة السجن.

تبين لي أن بـعض الإخوة في مهـجعنا ثم في المهـجع الآخر كانوا يحـملونني أخطاءهم وضعفهم مـستغلين غيابي في الزنزانة، فلما اجتمـعت بالإخوان وعرفوا الحقـيقـة سخط بعضـهم على هؤلاء وأراد بعضـهم أن يؤذيهم ولكني صـبرتهم، وعرف الإخـوان الحقيـقة من أين أتوا، لقد أتوا من خـلال اثنين أو ثلاثة ولكنهم

جميعًا معذورون، وكنت أكرر عليهم قصة الغلام في حادثة الأخدود، لقد كان صديقًا ولكنه أقر على الراهب تحت التعذيب حتى أعدموه.

ولنتكلم قليلاً عن تنظيم الضباط الأحرار..

هذا التنظيم يقوم على أفكار رئيسية، وبعض أفراده لهم صلة بليبيا ولبعضهم صلة بالعراق، وأفكارهم الرئيسية في التنظيم أنه يجب أن يكون لهم ضابط في كل كتيبة، فإذا وجد في كل كتيبة ضابط وغطى ذلك قسما كبيرًا من الجيش وأصبح لكل ضابط من خلال فراسته من يمكن أن يتحركوا معه في اللحظة الحاسمة عندئذ يعتقلون كل من ليس سنيًا في الجيش، ثم يحركون العناصر السنية في انقلاب يستلمون على أثره الحكم، وكان عدد من هؤلاء الضباط حمويين، ويبدو أنه بسبب من أحداث الدستور تصاعد عدد المتسببين لهذا التنظيم، ولولا أن تنظيمهم انكشف لأمكنهم خلال فترة محدودة أن يسيطروا على سورية فالجو مهيأ والضباط على استعداد.

ولنعد إلى السياق..

نقلت إلى مهجع ضم الإخوان والناصريين، والانتقال إلى المهجع بعد الزنزانة عيد عند أصحابه، لذلك ملأت البهجة نفسي ونفس إخواني وكانت أحاديث مطولة.

عرفت أن الناصريين المعتقلين وكلهم من الساحل تقريبًا اعتقلوا بعد أحداث الدستور لتحركين:

تحرك انتخابي وتحرك مواجهة، فقد حدث في الحي الرئيسي لأهل السنة في اللاذقية واسمه «حي الصليبة» نوع من المواجهة بين الشعب والسلطة، وحدث إطلاق نار كثيف واعتقلت أعداد هائلة من اللاذقية وعذبوا تعذيبًا شديدًا وأهينوا وأهين الإسلام كثيرًا، وكان في السجن بقية من هؤلاء المعتقلين.

عرفت أن التحرك الكبير لأهل اللاذقية كان بمناسبة المولد النبوي وكان في ذلك العام في آذار (مارس)، وكانت هذه الاعتقالات من آثاره، كما علمت أن تحركا

كبيرًا حدث في حمص في المناسبة نفسها فأطلقت السلطة النار على الناس فقتل أكثر من ثلاثين شخصًا.

وجدت بعض الكتب الشرعية في المهجع فأبهجني ذلك، طلب مني بعض الإخوة أن أنشيء دروسًا، فبدأت دروسًا خاصة في التفسير ودروسًا في الفقه، وكانت دروس التفسير هي بداية اشتغالى في التأليف في التفسير، اقترح بعضهم جلسة ثقافية لكل المهجع وكان ذلك، لكن الحساسيات كانت كثيرة، فإذا ما طرق أي موضوع يمس العمل السياسي آثار حساسيات، لذلك لم تنجح الجلسة، كانت علاقاتي طيبة مع الأفراد جميعًا، لأن أدب السجين كما يفهم من قصة يوسف عليه السلام الإحسان إلى السجناء، ولو كانوا كفارًا، فلقد قال صاحبًا يوسف وهما وقتذاك كافران: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] وهذا الأدب كنت دائم المطالبة فيه، أطالب نفسي وإخواني به.

كانت وجهة نظري في الحياة داخل المهجع أن يقلل الإنسان الخلطة ما أمكن، ففرضت على نفسي نوع عزلة إلا فيما لابد منه، وهذا أعطاني فرصة للمطالعة والكتابة فكانت إنجازاتي في مرحلة السجن كثيرة وكبيرة بفضل الله.

ومن أجل العمل كنت أسهر الليل حيث الناس نائمون وأنام في النهار حيث الناس مستيقظون، وقد ألزمت نفسي أن أشارك بخدمات المهجع، وكان إخواني يحبون ذلك، مع أن أهل المهجع جميعًا متفقون على إعفاء بعض النزلاء من الخدمة.

وقررت السلطة بعد عشرة أشهر من أحداث الدستور أن تفرج عن بعض المعتقلين، وأوعزت إلى بعض المعتقلين أن يكتب كتاب استعطاف وأشعرت الجميع بأن الطريق مفتوح أمامهم لذلك.

كان إخواننا يعيشون على تطلعات الاقتداء بإخوان مصر في ثباتهم ورفضهم الاستعطاف، وكنت أرى أن وضعنا يختلف، فإخواننا في مصر حققوا القدوة إذ أخذوا بالعزيمة أما نحن فتسعنا الرخصة.

وكان وضعي هـو الوضع الحرج، فالإخوان يتطلعـون إلى موقف صلب مني، وبعض الإخـوان ممن ثقتـه في ضعـيفـة كان يرى أنني أريد أن أدفع الإخـوان إلى الرخصة لأسجل لنفـسي منفردًا موقفًا بطوليًا، مع أنني أكـره لنفسي دائمًا أن آخذ مثل هذا الدور، أمام هذا الوضع قلت ما يلي:

أنا أرى أن يكتب الإخوان جـميعًا طلبـات استعطاف، أما أنا فـأضع أمري بين يدي إخواني، فما قرروه فإنني سأنفذه.

رأى الإخوة أن نكتب بلا استثناء، فكتبوا وكتب أحد الإخوة على لساني بعض كليمات، ورغم أنني قليل البكاء فقد بكيت لهذا الموقف.

كانت النتيـجة أن أفرج عن بعض الإخوة، وعن بعض النـاصريين، وكان ذلك عيـدًا عندي، فكلما خـرج أخ كنت أفرح، لأنني اعـتبـرت نفسي المسئول عـما حدث، عـرفت فيما بعـد أنه أفرج عن بعض الناس في المهـجع الآخر الذي يضم أمثالنا، جمع الباقون من المهـجعين في مهجع واحد، فاجتمعت البقـية المتبقية من الإخوان والناصريـين في مهجع واحد، ونقل إلى هذا المهـجع خليل بريز صاحب كتاب «سقوط الجولان» فتمت بهجتنا، وكنت أعرفه من قبل.

عكفت على كتابة التفسير بقوة فأنجزته في أقل من سنتين، وأنجزت خلال سجني عددًا من الكتب إلا أن بعضها ضاع وبعضها حولته إلى كتب أخرى أو أدخلته فيها، ومن تآليف السجن:

من أجل خطوة إلى الأمـام، وجولات في الفقـهين الكبيـر والأكبـر، وتربيتنا الروحية، وكتاب أسميتـه القواعد في البناء، ورسالة برسم التنفيذ، ورسالة نظريتنا الأمنية -وهي رسالـة مشتركة-، ومع أنه من الناحـية الرسميـة لا يسمح لأحد أن يخرج شيئًا مكتوبًا خارج سجن المزة فقد يسر الله أن يخرج معظم ما ألفناه ونسأل الله أن يعم به الفائدة.

أصطدمت مع أكثر من إنسان داخل السجن بسـبب موقفه من الإسلام، وكانت الأمور تحل بسلام، غلب على مهجعنا الثاني العلم والعبادة.

كثرت مآخذ بعض الإخوة على بعض بسبب ضيق الصدر وكثرة الخلطة، كان بعض الإخوة يرى أن علي مسئولية أن أفعل شيئًا ما لانقاذهم فاتفقت مع أحد الأشياخ أن نكتب كتابين إلى حافظ أسد، تحملت في رسالتي مسئولية أحداث الدستور وتعجبت أن يوجد سجين غيري من أجل هذا، وبطبيعة الحال كانت اللغة لينة لاقتضاء الحال ذلك، فلقد كان الهدف الافراج عن إخواننا، وعلى رأس السنتين تقريبًا أفرج عن أكثر الإخوان ولم يبق إلا أفراد قلائل ثم فرج الله عن الجميع وبقيت وحدي.

أقبل بعض السجناء المحسوبين على الناصرية على حفظ القرآن وكنت أسمع لهم.

كانت المراسلة السرية بيني وبين إخواني في الخارج قائمة، فكنت أتعرف على بعض مجريات الأمور وأرسل لهم وجهة نظري في بعضها الآخر.

من عجيب الرؤى أنني قبل السجن رأيت كأن قائلاً يقول لي: «أنت مع العشرة» ولم أعرف مضمون هذه الرؤية لكني عندما كنت في المهجع الثاني كنت أعد الحمويين المعتقلين فأجدني عاشرهم.

كما أن من عجيب الرؤى أني رأيت رؤيا في الزنزانة فهمت منها أن مدة سجني ستكون خمس سنين إلا قليلاً فكانت كذلك.

اعتقل بعد أكثر من سنتين مضتا على اعتقالي الشيخ مروان حديد رحمه الله وإخوانه وتسرب إلينا النبأ وأفرج على أثر ذلك عن بعض كبار الناصريين فالسلطة كانت تحب أن توحد معاركها، وكان تعذيبًا رهيبًا يسلط على إخواننا من مجموعة الشيخ مروان حديد ولم نكن نستطيع إلا الدعاء.

بعد خروج إخواننا والناصريين أصبحنا في مهجع جديد يضمني وخليل بريز وجمال الصوفي أحد وزراء عبد الناصر في عهد الوحدة وبعض البعثيين المحسوبين على العراق، ومجموعة من الضباط اتهموا بالإعداد لتمرد على رأسه شاب أريحي التفكير.

كانت حياتنا روتينية، وكان هناك شيء من حوار سياسي معقول، وكانت علاقاتنا مع الجميع حسنة لأني كنت أتجنب إثارة العصبية الحزبية، كنا وأكثر السنيين على اختلاف مذاهبهم السياسية وكأننا قلب واحد، وكان هذا يؤلم غير السنيين عندما يرون الإسلام أقوى من التربية الحزبية، وكانت الدروس مستمرة لكن إدارة السجن أشعرت الجميع أن هذه الحلقات ليست لصالحهم فخففت منها.

كنت حريصًا طوال مدة السجن ألا أتهجم على أحد وأن أشعر الجميع أني لا أشكل خطرًا على أحد، وكان هذا حتمًا يصل إلى مسامع السلطة، وكان هذا عاملاً من عوامل الإفراج عني فيما بعد، وكدت أن أخرج من السجن في نهاية السنتين والنصف، وقصة ذلك فيما يلي:

فكرت السلطة أن تفرج عني على أثر اعتقال الشيخ مروان حديد كمحاولة لتخفيف حدة التوتر في حماة وكنت أكره أن أخرج من السجن في مثل هذه الظروف، استدعتني إدارة السجن وطلبت مني أن أكتب كتابًا إلى حافظ أسد أستعطفه فيها للإفراج عني، فكتبت كتابًا طالبت فيه بالإفراج عني وعن الشيخ مروان حديد وإخوانه وكلفني ذلك أن أبقى في السجن سنتين وخمسة أشهر أخرى.

لم يكن يفوتني ماذا تعني كلمتي، ولكني لم أكن راغبًا في أن أخرج على جثث إخواني، كان التأليف شغلي الشاغل في المهجع الجديد واستمر وجودنا في هذا المهجع حتى وفاة الشيخ مروان حديد رحمه الله في مستشفى السجن.

في اليوم الذي توفى فيه الشيخ مروان حديد - رحمه الله - نقلت أنا وخليل بريز وجمال الصوفي وآخرون إلى مهجع آخر ولم نعرف السبب، وكان المهجع فارغًا عندما دخلناه، وبعد قليل بدأت تتوافد علينا العناصر التي اعتقلت مع الشيخ مروان - رحمه الله -، وكلها كانت في الزنزانة لأكثر من سنة، كانت فرحة اللقاء عامرة غامرة، وقدرنا السر فيما حدث بعد ذلك، لقد كانوا يخشون من مغبة معرفة المجموعة بوفاة الشيخ مروان، وكانوا يخافون من ردة فعل، فجمعونا في

مكان واحد وأتوا بنا لنقوم بدور مهديء بحكم سننا وتجـربتنا، كانت مجموعة من الشباب اجتمع فيهم دين وقوة نفس والتفوا حول الشيخ مروان على الجهاد، كانت أجسامهم قوية ونفوسهم قوية وعقولهم نظيفة وشعرت أنه إذا ما أردنا أن نبقي لهم ألفتهم في جـو السجن فلا بد من ملء الفراغ بما هو منتج ومفـيد، وبدأت دروسًا صباحية ومسائية، وكنت أعـالج أي مشكلة عامة في الدرس الصباحي أو المسائي، ثم بدأت بالدروس الخاصـة، وكان الشبـاب في زنزاناتهم قد بدأوا حـفظ القرآن، وهكذا بدأ المهجع وكأنه مدرسة، فهناك نحو وصرف وبلاغة وفقه وتفسير وحديث وفقه دعوة وقراءات وسلوك، وبعض الإخوة بدأوا يشتغلون في التأليف.

واستقر الأمر على أن تكون هناك جلسات عامة لمناقشة أمور المهجع، فكنا نبقى الساعات لمناقشة الصغيرة والكبيرة واتخاذ قرار في شأن المهجع.

أبعدنا أنفسنا والإخـوة عن أية مناقشات لها علاقة في الخـارج إلا لما ما وضمن الحدود التي لا تسيء إلى وحدة المجموعة أو إلى أمنها.

رأى الإخوة أن يقيموا خطبة الجمعة -عـلى عدم توافر الشروط لإقامة الجمعة- فكانوا يخطبون ونصلي الظهـر جماعة. كـان طعامنا جماعـيًا وهي سنة لم ينجح فيهـا مهجع لمدة طويلة وتركنا لكل أخ خصـوصياته وحريتـه في أن يأكل ما شاء، وإذا جاءت زيارة كـان الأخ يأخذ ما يريد والبـقية للمهـجع كان الجمـيع يواسون بعضهم وكأنهم أسرة واحدة فليس هناك من أخ يشكو حاجة أو تحيزا.

حتى الأمكنة في المهـجع كانت متنقلة كل شـهرين بحيث لا يبـقى أحد في مكان متميز، وطبـقت هذا على نفسي مع مرضي وخص من ذلك خليل بريز وزهير الشلق بعد أن انتقل إلينا وجمال الصوفي وبعض الضيوف وكذلك المرضي، وكان نجاح ذلك كله منوطًا بأن أطبق هذا على نفسي، حدثت بعض المزعجات فكنا نطوقها بسرعة كأن يختصم اثنان من الإخوة أو ينفرد أحد بوجهة نظر أو يسيء أخ التصرف.

بذلت جهود كثيرة من أجل حسن التعـامل مع أضياف المهجع، لقد كان جميع أهل المهـجع ومن يدخل إلـيهـم يصلون ويصـومـون، وأتتنا مـرة إدارة السـجن

بشيوعـيين أحدهما نصراني والآخـر نصيري، وكان واضحـا أنها تريد أن تزعجنا بذلك، لكن الرجلين أدركا الوضع بسرعة وشاركانا دون طلب في صيامنا وصلاتنا ثم طلبا الانتقـال فنقلا، فتحنا معـهما حواراً مطولاً، أدركا الكثـير عن تصوراتنا، وكانا من رابطة العمل الشيوعي.

كان شـريكنا في المهجع أحد الإخـوة، وكان عصبي المزاج جـدًا، فاصطدم مع الإخوان كثيرا وكنت أحاول أن ألطف الأجواء، وقد أصابني الكثير من حدته لكنه أدرك في النهاية أن أسلوبي هـو الأسلوب الوحيد الممكن داخل السـجن، ثم فرج الله عنه بوساطات.

كانت حـياتي مع هؤلاء الشـباب مـتعة لكـن ارتفاع الضغط وارتفـاع السكري ووضعي الخـاص كل ذلك جعلني أتطلع إلى خروج من السـجن ودعوت الله في ذلك واستجاب الله الدعاء.

فقد كان حافظ أسـد مقدما على تجديد رئاسته وكان بعض الشـيوخ يلحون عليه في شـأني ومنهم الشـيخ حـسن حـبنكة - رحـمـه الله -، وكـان يريد أن يرضي المتدينين، وإطلاق سراح واحـد في أي لحظة يستطيع اعتقـاله لا يضره، وهكذا قرر الافراج عني، اسـتدعيت وطلب مني أن أكتـب كتابًا أستـعطف فيه كالعـادة، كان أصعب شيء على أن أطالب بالانسحاب من الإخوان أو أعطي تعهدا وعهدا، وكنت أدعو الله أن أخرج بلا عهد ولا عقد، كتبت كتابًا تخيرت فيه كلماته وأطلعت عليه أخوين من مجموعة الشيخ مروان فلم يريا فـيه شيئًا، لقد تجنبت في الكتاب ما أريد أن أتجنبه، كان قرارهم جازما في الافراج عني، أبلغوني ذلك، خرجت إلى الإخوان وأبلغتهم، ووزعت عليهم كتبي، كانت ساعة فراق صعبة، كنت لهم كالوالد والأخ والخادم، لكنهم كانوا يعرفون أنني لن أنـساهم، أخرجت من السجن وذهبوا به إلى آمرية الطيران، كان هناك ناجي جمـيل، وعلى دوبا، ورسمي العيد، وعلى المدني، كان حديثي مطولاً، وأردت من خـلاله أن آخذ فرصة عمل دعـوى، حدثتهم عن تفكيرنا نحن الإخوان المسلمين في سـورية وأدراكنا للأوضاع الدولية، وحدثتهم عن وضعي الصحي، وأظهرت عجبي كيف يعتقل أمثالي هذه السنين الطويلة.

ثم وضعوا تحت تصرفي سيارة لتصل بي إلى حماة، بل لتسلمني هناك لأحد فروع المخابرات، أخبرتهم أنني أرغب في زيارة الشيخ حسن حبنكة فوافقوا، قرعت باب الشيخ حسن فعلمت أنه ذهب إلى القصر الجمهوري، كتبت إليه وريقة أعلمه بالإفراج عني وأنني سأزوره، كان حافظ أسد قد استدعاه ساعة الإفراج عني ولم يبلغه بالإفراج عني، لذلك طالبه الشيخ حسن بي بشدة سأله حافظ أسد: هل تكفله، قال: لا أحد يستطيع أن يكفل أحدا، خرج من المقابلة ولم يعلمه بما كان فعل.

كنت في جلستي مع ناجي جميل وزملائه قد طالبت بأوراقي في السجن وطالبت بالإفراج عن من لم تثبت في حقه تهمة وحددت بعض الأسماء، وأعلنت عن استعدادي لكفالة الجميع إذا كان بالإمكان الأفراج عنهم، وعدت بدراسة الأمر، أفرجوا بعد ذلك عن بعضهم وحاولوا اعتقاله مرة أخرى وبعضهم درسوا قضيته وأجلوه ثم أفرجوا عنه.

عرفت بعد خروجي من السجن مباشرة أنهم عاملوا الإخوان معاملة قاسية وشتموهم ثم فتحوا التحقيق مع بعضهم مرة أخرى، وقد أعدموا الكثير منهم.

الذين يدخلون السجن يحلمون أحلاما كثيرة وندر من يحاول تحقيق أحلامه، فمن أحلام السجناء أن يتغير نظام السجون بحيث يكون أكثر إنسانية للسجين وأهله، وأن تكون العقوبة بالسجن ملاحظا بها كف شر السجين حيث لا يجدي غيره، لقد كنت أحلم في السجن أن يأتي يوم تحترم فيه حقوق الإنسان في سورية، لقد قضيت خمس سنوات في السجن من أجل موقف لو حدث في أي بلد يحترم حقوق الإنسان لما ترتب على ذلك أي شيء يذكر، إلا ما أقسى ما يعامل الإنسان حيث لا تحترم حقوق الإنسان، ألا ما أكثر الوقت المهدر وما أقسى عذاب الإنسان في بعض أنظمة هذا العصر.

أنني لا أحمل مسئولية هذه الأوضاع الأنظمة الديكتاتورية وحدها بل أحمل القوى الكبرى والصغرى هذه المسئولية، فقد ألفت هذه القوى أن تسكت عن مثل

هذه الأنظمة ما دامت تحقق لها مصالحها أو تعتبرها خيراً من غيرها في تحقيق هذه المصالح، أن أي نظام يستطيع أن يقدم رشاوى لأصحاب المصالح فيستبد رغم طغيانه ولا يوجد في هذه الحالة من يقول له شيئًا؟ ترى لو كان العالم حقًا يحاسب على حقوق الإنسان سواء في ذلك الشعوب والحكومات والدول الكبرى والصغرى أكانت حقوق الإنسان تهدر هذا الإهدار؟! فلا يجد الإنسان أي نوع من أنواع الحماية له إذا ما أراد أن يتصرف ضمن حقوقه الأساسية!.

• في أن العمل المسلح كان رد فعل

بدأ العمل المسلح الإسلامي ضد النظام في سورية سنة ١٩٧٦ وكان رد فعل على أشياء ثلاثة بشكل مباشر، أما الأسباب غير المباشرة فكثيرة.

السبب الأول: أن السلطة قتلت ثلاثة من الإخوان أحدهم الأخ حسن عصفور رحمه الله الذى قتل تحت التعذيب، وأحمد زلف رحمه الله، وغزوان علوانى رحمه الله.

السبب الثانى: الاعتقالات المتعسفة التي كانت مستمرة، فكان من جملة المعتقلين الشيخ مروان حديد وإخوانه.

السبب الثالث: الإهانة التي كانت توجه من بعض رجالات السلطة للإسلام والقرآن وكل المقدسات، فكان رد الفعل الأول هو أن مجموعة من الشباب قتلت محمد غرة مدير المخابرات العسكرية في حماة، والذى بدأ بالقتل في الحقيقة هي السلطة، وبعد ما تكررت حوادث القتل، رد بعض الشباب دون أوامر من قيادات الإخوان على ذلك، ثم تتابعت الأحداث.

• بدأت الثورة المسلحة وأنا في السجن

كان مقتل محمد غرة مدير المخابرات العسكرية أول عمل مسلح ضد النظام، وكان ذلك سنة ١٩٧٦، أي قبل خروجى من السجن بسنتين وكنا نسمع ونحن داخل السجن بأنباء العمليات التي كانت توجه ضد رجال السلطة.

وكان بالإمكان لو وجد تعقل أن يسيطر على الوضع، ولكن وفاة الشيخ مروان حديد - رحمه الله - في السجن واستمرار الاعتقالات والإهانات والتعذيب والمناخ الذي أوجدته الأسباب غير المباشرة، جعل الأمور تتصاعد حتى أصبحت ثورة حقيقية ضد النظام.

● في الأسباب غير المباشرة التي أوجدت المناخ المواتي للعمل المسلح المضاد للسلطة في سورية

أن الشعب السوري بطبيعته ينتقد أي حكومة تحكمه، وهو شعب يحرص على الحرية السياسية، وهو شعب مسيس بطبيعته، وسورية بلد خيرات، وشعبها معتاد على السعة، ودين الإنسان في سورية غال عليه في الحقيقة وإن ظهر أنه ليس كذلك.

والشعب السوري أصبح يحس أن الدين والحرية والخبز قد انتقصت، ومع هذا الانتقاص وجد عدم توازن في السياسات والممارسات فزاد الطين بلة، وكان بالإمكان بشيء من التعقل أن ينال رضا الناس، ولكن كل شيء كان يتصاعد على غير ما يرام، فأوجد هذا مناخًا مواتيًا للمواجهة.

***

الباب العاشر

من الثالثة والأربعين إلى السابعة والأربعين

(من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ إلى أواخر نيسان (أبريل) ١٩٨٢)

عندما خرجت من السجن كانت الأجواء العامة في سورية رخية، فحافظ أسد يريد أن تمر الانتخابات بشيء من الانفتاح على الشعب، لذلك زارني الناس بسبب خروجي من السجن بكثرة، كان مدير المخابرات العسكرية في حماة شاب متعقل وهو المسئول عن متابعة نشاطاتي فقد أرسلت إليه ابتداءا، مما يدل أنه هو المسئول عن متابعتي ومراقبتي، فكان يزورني إذا أحس بوضع غير عادي في البلد ليبقي أجواء البلد قارة.

جاءت بعد خروجي من السجن بقليل مناسبة المولد النبوي وبدا وكأن كل شيء هادىء، وإذا بالبلد فجأة تشتعل نارًا فقد خرجت تجمعات للاحتفال بالمولد من هنا وهناك وفجأة شكلت أمواجًا من البشر تهتف وتتحدى فاعتقلت السلطة بعض الأفراد، فقررت أن أتحرك بسرعة قبل أن يجر التحقيق إلى أشياء لا تحمد عقباها، اتصلت بمدير المخابرات العسكرية وكلمته بضرورة عدم جرح البلد فوعدني خيرًا، فقررت السفر إلى دمشق في الظاهر للمطالبة بأوراقي الموجودة في السجن وفي الباطن من أجل إطلاق سراح المعتقلين الجدد والكلام في المعتقلين القدامى.

وكانت جمعية العلماء قد أعلنت عن احتفال بمناسبة المولد وكلفتني أن أكون أحد المتكلمين وكان الجو قد أصبح مشحونا في البلد واهتمت السلطة لذلك، وسرت شائعة أن الثورة ستعلن في هذا الاحتفال واستقدمت الدولة قوى من خارج المحافظة، وحاولت السلطة إلغاء الاحتفال أو إلغاء كلمتي على الأقل، وكنت أجد في الاحتفال فرصة أن آخذ وضعًا عاديًا في علاقتي مع الشعب أو العلماء، وهذا يقتضي أن أتكلم في الاحتفال كما هو مقرر، لكن الموقف كان في غاية الدقة فالشباب متحمسون، وفي السلطة والحزب تياران: تيار يقول: أن حماة لا تعامل

إلا بالحسنى، وكان على أن أقوي هذا التيار، وتيار يقول: أن حماة لا تصلح معها إلا الشدة، والوضع متفجر، ومكان الاحتفال محاط بقوى الأمن.

وجاءت كلمتي بفضل الله عز وجل ملطفة للأجواء، قبلها المتحمسون وارتاح لها العلماء والعامة، وفرحت بها أجهزة الأمن وهلل لها المعتدلون في السلطة والحزب، وكانت عاملاً من عوامل الإفراج عن المعتقلين الجدد، دون أن يكون فيها كلمة ضعف أو مجاملة.

تحدثت في هذه الكلمة عن عمق الإسلام في بلاد الشام، وعن طبيعة حماة، وأن حماة تهزها المعاملة الطيبة والتصرف الأريحي وهذا هو مفتاح التعامل مع حماة، وأن الذي لا يتعامل مع حماة كذلك مخطيء، ثم تحدثت عن الشغب الذي يرافق الاحتفال بالمولد وأن ذلك خطأ فلا يصلح أن يصبح هناك ارتباط بين مناسبة المولد والشغب، وشكرت المتعقلين من رجال السلطة الذين تعاملوا مع المتظاهرين بلطف، وكان بعض أهل الفتنة قد رجموا بيت نصراني بالحجارة أثناء الاحتفالات، فذكرت كيف أنه مع إيماننا بالإسلام ودعوتنا له وحرصنا على أن تكون البلاد إسلامية فنحن لا ننسى أن لنا جوارا، هؤلاء الجوار عشنا معهم قرونا طويلة وعاشوا معنا فكانوا شركاءنا في السراء والضراء هم المسيحيون، ثم تحدثت بمناسبة المولد عن بعض المعاني الإسلامية، وكانت عناصر كثيرة من الشرطة والجيش خارج المسجد تسمع الخطاب فارتاحت أعصابهم، وارتاحت أعصاب الناس، خرج الجميع مرتاحين، واعتبر بعضهم هذه الخطبة من أنجح الخطب السياسية وحققت هذه الخطبة مجموعة أغراض كنت أريدها.

سافرت بعد ذلك إلى دمشق.

اتصلنا بالعميد على مدني فرحب بنا وذكر أنه مشغول في ساعته تلك، لذلك يرجو أن نزوره مساءًا، ورتب لي خلال ذلك أن أذهب إلى سجن المزة لاستلام أوراقي التي كنت موعودًا بها، ذهبنا إلى السجن وقابلنا مدير السجن، وطلبت منه أن يدعو لي بعض الإخوة لأعرفهم على الأوراق التي أريدها، وكان ذلك، جاءتني أوراقي إلا قليلاً.

وفي المساء تمت مقابلة العميد على مدني وصار حديث مطول، تحدثنا فيه عن المعتقلين القدماء فوعد خيرًا، وصار حديث عن المعتقلين الجدد فوعد خيرًا وفعلاً فقد أفرج عنهم بعد قليل، أما القدماء فلم يفرج إلا عن ثلاثة تقريبًا ثم اعتقل اثنان منهم فيما بعد وفر الثالث.

زرنا الشيخ حسن حبنكة وكانت جلسة طويلة مباركة تمت فيها أحاديث شتى عن سجننا وعن جهوده التي بذلها من أجلنا، وعدنا إلى حماة.

وبعد أيام جاء الأستاذ عدنان سعد الدين إلى حماة وكان قد انتخب مراقبا عامًا للإخوان المسلمين أثناء وجودي في السجن، جلسنا سوية يومًا تقريبًا أطلعني فيه على مجريات الأمور اطلاعا تامًا، فهمت منه أن الإخوة في الخارج يكادون يكونون مجمعين على خروجي من سورية، أعلمته أنني لن أخرج مهما كلف الأمر وعندما رأى أصراري على هذا الموضوع، طلب مني أن أخرج للعمرة فأنشط في رحلتي هذه الإخوة في الخارج، وكان مصرا على هذا القدر فوعدته أن أفعل.

وفعلا بدأت الإجراءات لأخذ تأشيرة خروج وصادف ذلك مجيء أحد الإخوة الذين يدرسون في السعودية ومعه سيارته فساعد على استكمال الإجراءات.

ومن عجائب الرؤى أنه في يوم سفري جاءني أخي الشهيد محمود رحمه الله على أثر رؤيا رآها، قال لي: رأيت في المنام أننا في جلسة تضم عددًا من الناس وأن شيخا اتجه إليك وقال: عمان سهل لك، أو أسهب لك، عجبت من هذه الرؤيا ولم أفهمها وقتذاك، ومن قبل ونحن في السجن رأى أحد الإخوة -وهو أخ دمشقي صالح يحفظ كتاب الله- في المنام أنني أتحدث من التليفزيون الأردني وأنا ألبس عمامتي وجبتي، وكان قدر الله كما سنرى أن تكون عمان هي وطن الإقامة، مع أنني كنت عازمًا على المكث في سورية ابتداءًا ثم العودة إليها ولكن لله قدرًا.

وقبيل سفري اتصل بي أحد الإخوة الناشرين فأعطيته مسودة كتاب «من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»، وقلت له: أن يعرض الكتاب على

الإخوة وهم مفوضون أن يحذفوا منه ما شاءوا، فالكتاب لم يكتب في صيغته المكتوب فيها للنشر، وكان لنشر هذا الكتاب دخل في بقائي خارج سورية كما سنرى، خرجت من سورية بعد شهرين من خروجي من السجن تقريبًا كان ذلك في ٣٠ آذار (مارس) سنة ١٩٧٨ وكان خروجي من السجن في أواخر كانون الثاني (يناير). .

استمرت رحلتي حوالي شهرين ونصف، خرجت من الأردن في ٣١ آذار (مارس) وعدت إليها في ١٤ حزيران (يونيه) وجاء أهلي إليّ من سورية في ١٨ حزيران (يونيه)، ومن يومها حتى كتابة هذه السطور وطن الإقامة عمان.

زرت في جولتي هذه السعودية والإمارات وقطر، وتعطل سفري إلى الكويت في آخر لحظة، وقد ألقيت عددًا من المحاضرات في جولتي هذه، كانت لها آثارها الطيبة، ألقيت أكثر من محاضرة في المدينة المنورة وكذلك في مكة وألقيت محاضرة في كلية الشريعة في الرياض وزرت الإخوة في الطائف، وأما في الإمارات فقد ألقيت خطبة جمعة، واجتمعت بالإخوة أكثر من اجتماع ورأيت بعضهم على انفراد، وألقيت في قطر أكثر من محاضرة منها محاضرة في المسجد ومحاضرة في مركز ثقافي.

وقد حاولت أن أقطع رحلتي أكثر من مرة للعودة السريعة إلى سورية فكان الإخوة يمنعونني من ذلك، وكان أدبنا يفرض علينا أن نبقى تصرفاتنا ضمن حدود، كان الجميع يلحون على البقاء في الخارج، وأرسل لي الوالد يطلب مني ذلك، وكانت رغبتي أن أدخل سورية مهما حدث، وبعد مناقشات طويلة مع الأخ عدنان سعد الدين اتفقنا على النزول، وأخيرًا علقنا الدخول على استشارة أخوة الداخل، وكان أخوة الداخل مجمعين على دخولي ولكن ظهور كتابي «من أجل خطوة إلى الإمام. . .»، جعل الجميع يجمعون على عدم الدخول فقد كان في الكتاب عبارات، كما أن في الكتاب شدة على كل التوجهات السياسية غير الإسلامية، وعرضا لبعض وجهات النظر الإسلامية سياسيًا لم يكن على حجة فيما حدث لأنني أذنت للإخوان أن يحذفوا ما شاءوا، ولما سئل الأخ المراجع كيف أجاز هذه

الأشياء قال: وجدت أن ما يحتاج إلى الحذف كثير وقرأت قول المؤلف: ورؤوسنا يارب فوق أكفنا.. فأجزته وهكذا اتخذ قرار البقاء خارج سورية.

عكفت بعد إقامتي في عمان على التأليف وتنقيح بعض المؤلفات وإرسالها للطبع، أرسلت في هذه المرحلة للطبع «تربيتنا الروحية» و«المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين» وعكفت على تبييض التفسير الذي ألفته في السجن واستغرق معي تبييضه حوالي سنتين.

كانت علاقتي مع إخوان الأردن ضعيفة جدًا وقد حرصت أن تكون رسمية.

دعتني رابطة الطلاب العرب في أمريكا لإلقاء محاضرة هناك، فذهبت وكانت فرصة طيبة أن أتعرف على النشاط الإسلامي في أمريكا كما كانت فرصة أتعرف بها على الإسلاميين، وكانت أجواء الحوار طيبة، وفي عودتي من أمريكا كان للطائرة وقفة في مطار دمشق ولم أكتشف ذلك إلا في مطار لندن ساعة الإقلاع، ولكن الله سلم، دعيت لإلقاء محاضرات في لبنان فوافقت وسافرت، وكنت مريضًا جدًا، ومع ذلك تحاملت على نفسي، وزاد مرضي فكنت أبقى في الفراش حتى ساعة المحاضرة لألقيها ثم أعود إلى راحتي وقد عدت إلى عمان وأنا في غاية التعب واستمر المرض حتى اضطررت أن أفطر في رمضان على غير عادتي في المرض أو في السفر.

جاءت القيادة السورية إلى عمان، اجتمعت بها، وصار هناك نقاش ودي غير رسمي، عرضوا على أن يدفعوا لي راتبًا، كنت أمل أن أسدد نفقاتي من خلال التأليف، وعدتهم أنني إذا احتجت سأخذ.

كان هناك مؤتمر شعبي إسلامي في أوروبا، وكانت هناك بعض لقاءات للتنظيم العالمي وكان ينبغي أن يحضرها اثنان من سورية، وكان هناك احتمال أن يغيب أبو عامر، فذهبت بصحبة على البيانوني، شاركنا في محاضرات المؤتمر، وقد غلب على الجو الحب والمودة، وكان في الاجتماعات عدد من كرام الإخوان وكانت حرارة المودة بيننا وبينهم عالية ولقد اشتركنا في الجلسات الهامة، وكانت

هناك أسئلة وأجوبة عمقت الخط الإخواني عامة وخط حسن البنا خاصة، وبالجملة كان هذا المؤتمر ناجحًا.

حضر الأخ أبو عامر إلى مكان الاجتماع في أوروبا فأصبح هو كمراقب عام وعلى البيانوني كنائب مراقب عام هما الأحق في حضور جلسات التنظيم العالمي، وقد أصررت على عدم الحضور كممثل عن سورية، وحضر الاثنان دوني، لكن المجتمعين اتخذوا قرارا بحضوري.

تقدمت بمشروع مكتوب يقضي بأن تجدد الأجهزة التي تحتاجها الجماعة وأن ينقسم المجتمعون إلى مجموعات، كل مجموعة تضع اقتراحاتها في شأن جهاز من الأجهزة ثم يلتقي الجميع لمناقشة المشاريع واقرارها والانطلاق على ضوئها. وقد تم ذلك كله وخرج المجتمعون بإنجاز ضخم ارتاحوا له جميعًا، ومن قبل كان المراقبون العامون للإقطار يجتمعون مع من يحضر من مكتب الإرشاد، وكانوا قد وضعوا إطارًا للحركة لمدة خمس سنوات في آخر اجتماع لهم، وقد كلفت لجنة لوضع هذا الإطار موضع التنفيذ، وقد اخترت لأن أكون واحدًا من أعضاء هذه اللجنة، واجتمعنا، ولم تكن آراؤنا موحدة حول ما ينبغي فعله وأخيرًا اتفقنا على أن أكتب مقدمة الخطة ويكتب أحدهم في الأهداف والآخر في وسائل التنفيذ، وأن نلتقي فيما بعد لمدارسة انتاجنا، ولم أسافر من المكان الذي أنا فيه إلا وقد أنهيت مهمتي فوضعت كراسة في أكثر من سبعين صفحة وقد طبعت فيما بعد ووزعت على بعض الأقطار.

ثم بعد ذلك عدنا إلى الأردن، وكان قد وصلنا ونحن في سفرنا نبأ اعتقال بعض الإخوة القياديين في سورية، وهذا يفيد أننا على أبواب محنة شاملة في سورية، وتطورت الأحداث بعد ذلك تطورًا سريعًا.

وفي هذه المرحلة سافرت إلى السعودية، وألقيت في هذه الرحلة محاضرة في جامعة البترول في المنطقة الشرقية من السعودية.

وفي هذه المرحلة اتفقنا مع أصحاب القرار أن تنتقل قيادة العمل في سورية إلى الخارج.

وطلب مني الأخ أبو عامر أن أشارك في أعمال القيادة، ولم تكن المرحلة تبيح الاعتذار، وكان مجلس شورى سورية قد أعطى أبا عامر ونائبه تفويضًا أن يستكملا القيادة إذا حدث شيء. وكان الأخ أبو أنس قد حضر في أوروبا بسبب ضياع محفظته التي فيها جوازه، وكان هناك اثنان من أعضاء القيادة قد اعتقلا، وخرج ثلاثة منهم أديب الجاجة ومحمد الحسناوي وقد طلب أبو عامر من الجميع أن يلتحقوا بمقر القيادة الجديد، وأعيد تشكيل القيادة. وكانت مهمة القيادة شاقة، فالخيوط مقطعة، والضربة صاعقة، والإخوة في الخارج في أزمة نفسية ولا مال ولا أعلام ولا اتفاقات مع أحد، وكانت علاقات النظام في سورية قوية مع البلدان العربية، وكانت مهماتنا المباشرة:

أولاً: إعادة ربط الخيوط في الداخل.

ثانيًا: ترميم التنظيم.

ثالثًا: تقوية علاقاتنا مع إخواننا في الخارج وأحكام الصلة مع التنظيمات الإخوانية.

رابعًا: مساعدة المعتقلين والمطلوبين ورعاية أسرهم.

خامسًا: تأمين المال اللازم لكل هذه العمليات.

لقد كانت الضربة التي وجهها النظام في سورية للتنظيم ضربة قاتلة.

وكان بالإمكان أن تنهينا الضربة فعلاً ولكن بدلاً من ذلك حدث ما لا يخطر بالبال، والذين لا يعرفون الحقائق، يهاجمون قيادة المرحلة بألسنة حداد، ولكن لو قارن كل إنسان إنجازات تلك القيادة التي كنت شريكًا فيها بإنجازات أي قيادة لاحقة، لرأي الفارق.

أقسم عدنان دباغ وهو يحقق معي أنه سيصفي الإخوان المسلمين من العالم العربي وقد أصبح فيما بعد وزيرًا للداخلية وهو الذي أعلن من راديو دمشق أنه سيصفى الإخوان المسلمين.

هم بدأوا ونحن رددنا..

تحرك أبو عامر حركة قوية لتأمين المال اللازم ثم انهال علينا المال من كل جانب، حدد أبو عامر تصوراته عن المرحلة القادمة وأرسلها لنا وكانت خلاصة رأيه أن ردنا على السلطة ينبغي أن يكون التعبئة والمواجهة.

راسلنا إخواننا في الداخل فتجاوب معنا عدد منهم، استطعنا من خلالهم إعادة ربط الخيوط، وفي هذه الأجواء ونحن في العمل حدثت حادثة المدفعية التي أوجدت أجواءا جديدة وقلبت الاستراتيجيات رأسًا على عقب، وأعطت السلطة مبررات لتصرفاتها المقبلة، وقد أصدرنا بيانا نعلن فيه أنه لا علاقة لنا بهذا الموضوع.

وزرنا باكستان في هذه المرحلة أكثر من مرة.

كانت زيارتنا الأولى لباكستان فرصة طيبة فقد زرنا الأستاذ المودودي وكانت الزيارة الثانية لباكستان زيارة تشييع لجنازته - رحمه الله -، وكانت جلستنا معه جلسة مباركة فإن القلة من الناس هم الذين إذا اجتمعت إليهم تشعر أنك أخذت مع العلم عقلاً، كان حديثًا شاملاً عن الدعوة إلى الله في العالم العربي، عن وجهة نظره في التعامل مع الخارجين على الصف وأن أفضل شيء عدم الرد عليهم، ولقد داعبنا في الجلسة وآنسنا - رحمه الله -، ومن لاهور انطلقنا إلى بشاور وهناك اجتمعنا ببعض قادة الثورة الأفغانية، استمعنا للجميع وتقدمنا بعد ذلك بمشروع مشترك نحن والجماعة الإسلامية بعد أن عدنا للاهور.

كان المشروع ينص على إيجاد قيادة عليا لحركة الجهاد الأفغاني فما اتفقوا عليه ينفذ وما اختلفوا فيه يحكمون فيه الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين، وقد قبلت الجهات كلها هذا المشروع ولكن كان علينا أن نكون بجانبهم بشكل دائم، ولقد وعدهم بعضنا أن نرجع خلال شهر ولكن لم يحدث ذلك مما أوقف المشروع، ولقد عاتبونا على ذلك يوم زرناهم مرة أخرى بمناسبة وفاة الأستاذ المودودي رحمه الله.

ومن باكستان انطلقنا إلى إيران وكان ذلك في أواخر آيار (مايو) سنة ١٩٧٩، كنا على صلة دائمة مع أحد إخواننا وكان هو صلة الوصل، وكان قد أبلغهم عن قدومنا، لذلك وجد من استقبلنا في المطار وسهل لنا الدخول ثم الخروج، وقد رغبنا أن ننزل على حسابنا وكان ذلك فدفعنا نفقات النزول في الفندق، مع أنهم عرضوا علينا أن ننزل ضيوفًا وأن نعامل معاملة رسمية. رتبوا لنا زيارتين رئيسيتين إحداهما للخميني والأخرى لإبراهيم يازدي وزير الخارجية وقتذاك، وكان الذي يتولى شأن الترتيب وكيل وزارة الإعلام.

كانت أحاديثنا مع إبراهيم يازدي مطولة فهو على صلة وثيقة من بعض الإخوان عندما كان يدرس في أمريكا فهو يعرف الإخوان من قرب ويستطيع أن يفهمهم ويفهم تطلعاتهم.

كان من حديثه أن هناك سنيين محمديين وشيعة علويين، فهؤلاء وهؤلاء لا يختلفون، كان هناك حديث مطول عن العلاقات الخارجية الإيرانية، كما كانت هناك مصارحة في ما نريده من الثورة الإيرانية ولها.

وفي زيارتنا للخميني وجدنا أنفسنا أمام طوفان من البشر كل يريد أن يقابل الخميني وأخبرنا منظمو برنامجه في «قم» أن الموعد المحدد لنا قد فات بسبب تأخرنا ورغبوا إلينا أن نصبر لعلهم يجدون لنا مدخلا، وقد أدخلونا على الخميني مع وفد لتتاح لنا فرصة الجلوس معه مرتين، مرة مع هذا الوفد ومرة بعد خروج الوفد.

حدثنا الخميني عن معرفته بما يجري في سوريا، وأنه سيتكلم مع حافظ أسد، وحدثنا أن الثورة الإيرانية قامت بالإيمان وباليد الخالية وأن الطريق الوحيد لإنقاذ المسلمين هو توعيتهم، فمتى وعى الشعب لا يستطيع أن يحكمه أحد.

وكنا نأمل ألا تتورط الثورة الإيرانية فيما يجعلها لا تتلاقي مع الفكر الإسلامي الصحيح، ولكنها تورطت.

شاركت في أعمال القيادة ثلاث سنين إلا قليلاً، سنتان منها قبل ما سمي بالوفاق وسنة تقريبًا بعد الوفاق.

كان الخط البياني للثورة خلال هذه السنوات في تصاعد حتى نهاية آذار (مارس) سنة ١٩٨٠ فقد استقطبت الثورة الجماهير كلها، وكان من آثار ذلك تحرك النقابات العلمية حركتها الشهيرة، ثم بدأ مد الثورة يتقلص، كان الشعور بذبول الثورة أحد العوامل التي دفعت نحو الوفاق بين فصائل الإخوان المسلمين على أمل تقوية الثورة ووضعها في طريق النجاح، ولقد قام الوفاق بعد تعثرات، وتنازلنا إلى أقصى حدود التنازل، وبدأت قيادة الوفاق تتحرك على أرض من الألغام ومن خلال تناقضات كبيرة.

كانت تناقضات قيادة الوفاق كبيرة، وتمخضت خلافات القيادة عن خروج بعضهم من الوفاق، ولقد اعتزلت قبل أحداث حماة أكثر من شهر، ثم عدت إلى القيادة، وفي هذا الجو جاءت أحداث حماة، فقررنا الحركة وأعلنا النفير.

وانتهت أحداث حماة ولم نفعل شيئًا، وأعلنا فك النفير في جو متأزم، وكانت النفوس في غليان وتوجهت كل الألسنة لتضع اللوم على القيادة في تقصيرها وأمام هذا الجو العاصف، قررنا إجراء انتخابات لمجلس الشورى وتمت الانتخابات وحضرنا تحضيراً جيداً لمجلس الشورى، هيأنا مسودة نظام داخلي، وتقدمت القيادة بتقرير عام، وتقدمت أجهزة الجماعة بتقاريرها وكنت مسئولاً عن هذه التحضيرات كلها بغياب أبي عامر، اجتمع مجلس الشورى وسمع التقارير، وأثر ذلك في الروح العامة، وبدأت المناقشات، وظهر بعض الإخوة في القيادة وكأنهم لا علاقة لهم في المرحلة كلها وتبنيت الدفاع عن كثير من النقاط، وكنت مقرراً من قبل أن استقبل، وفي اليوم الثالث للاجتماعات طلبت الكلام وأصررت عليه وكان الإخوان يظنون أنني سأهاجم بعض الإخوة ولم يكونوا مرتاحين لذلك، فغضبوا لإصراري وانسحب ثلاثة من الإخوة من مجلس الشورى، وواحد من القيادة، وكانت مفاجأة للجميع أن أتحدث بلغة أخرى، إذ أعلنت أنني أتحمل مسئولية المرحلة، وأخطاءها وأنني قررت الانسحاب من العمل القيادي وتركت الجلسة وانسحبت.

وهذه المرحلة تحتاج إلى تاريخ مستقل، وليس من المناسب أن أخوض في تفصيلاتها الآن.

● في مدرسة إعداد الموجهين

المسلم المعاصر بحاجة إلى تعليم ديني، وإلى تكوين، وإلى توجيه، وقد لحظنا أن هناك نقصا في واحدة من هذه الثلاثة بين كثير من الإخوة الذين هاجروا من سورية، فأنشأنا مدرسة إعداد موجهين، وكانت مدرسة تجمع بين العلم والعمل والحياة الإسلامية المشتركة، كانت المدرسة تقوم على فكرة دورة كل أربعين يومًا، كنا نقبل في المدرسة لكل دورة ما بين العشرة إلى خمسة عشر أخا، استأجرنا شقتين متجاورتين، شقة لمدير المدرسة، وشقة لروادها، كانت الإقامة مدة الالتحاق في الدورة في المدرسة ليلاً ونهارًا، كنا نعطي المتزوج إجازة في أن يبيت عند أهله مرتين في الأسبوع، حشدنا للمدرسة أقدر الإخوة على التدريس والتربية والتوجيه، كانت مواد الدراسة متعددة لكنها مختصرة، تلاوة، علوم القرآن، علوم الحديث، العقائد، الفقه، الأصول الثلاثة، أصول التدريس، كيف تدار الأسرة، علوم اللغة العربية، قراءة في كتاب لتصحيح النطق، السيرة والتاريخ الإسلامي، وحاضر العالم الإسلامي.

كان البرنامج اليومي: الاستيقاظ قبل الفجر لقيام الليل، صلاة الفجر، قراءة المأثورات، درس التلاوة، ثم صلاة ركعتي الضحي، ثم الرياضة، فالأفطار، ثم الدروس والمحاضرات، ثم صلاة الظهر فوجبة الغداء، فاستراحة، فصلاة العصر، ثم مطالعة مشتركة، فصلاة المغرب وقراءة المأثورات فتلاوة القرآن، فصلاة العشاء، فمطالعة حرة موجهة، فقيام ليل، فنوم.

وكان الإخوة يصومون صيامًا مشتركًا يومي الاثنين والخميس، وكانوا مع خدمتهم لأنفسهم قد هيأنا لهم من يقوم على رعايتهم في المطعم والخدمة.

تخرجت من المدرسة دورات متلاحقة كان الإخوة يرون الفارق الكبير بين الأخ حين دخوله إلى المدرسة، وبين خروجه منها، حتى أسموا المدرسة مدرسة تخريج الأولياء، ولم تزل فكرة مدرسة لإعداد الموجهين فكرة هادية لتصرفاتنا، فكنا نقيم

مدرسة لإعداد الموجهين بالقدر المتاح والممكن، فأحيانا نقيمها بلا مبيت، وأحيانًا نقيمها بساعات محددة في وقت يسع الإخوة.

وأحيانًا ندخل في برامج المدرسة بعض الساعات للتوجيه الإعلامي والسياسي وغير ذلك، وأصبح مألوفًا في بعض المراكز أن الأخ ينبغي أن يمر على دورة عامة، ثم على دورات تخصصية، وبعض المراكز حاولت أن تجعل مجموع الدورات التي يلتحق بها الأخ حوالي خمس عشرة دورة ما بين عامة وتخصصية.

فالدورة العامة تخصص للمطلوبات العينية، والدورات التخصصية تشمل مواد الثقافة الإسلامية العشر وتشمل النشاطات الدعوية من إعلام إلى سياسة إلى تدريب جهادي إلى أمن إلى دورة على الأنظمة والخطط.

• في أن المواجهة السياسية غيرت كثيراً من مفاهيمنا

الإخوان المسلمون حذرون جدًا من كل اتصال مع الآخرين عامة، ومع بعض الدوائر والجهات خاصة، وبعضهم أشد حساسية من بعض لكنا بعد خروجنا من سورية وهجرتنا منها اضطررنا من أجل حماية إخواننا ورعايتهم (وخاصة بعد صدور المرسوم ٤٩ الذي يقضي بإعدام كل منتسب للإخوان المسلمين في سورية) إلى كثير من الاتصالات والتحالفات، وقد هضم الإخوة السوريون الوضع الجديد بسرعة، لأنهم يرون الحاجة إليه، وأصبحت الاتصالات التي تأذن بها قيادة ما وتعرفها هي الفاصل بين الاتصالات المسموح بها وبين الاتصالات غير المسموح بها. وكثيراً ما يجد بعض الإخوة أنفسهم في ظروف اضطرارية كانوا يتعاملون معها والقيادة تقدر ظروفهم.

وقد أصبح جزءًا من واجبات القيادة تنظيم الاتصالات بالآخرين والبحث عن القواسم المشتركة، والحركة السياسية على ضوء ذلك، وهذا موضوع واسع قد أتعرض لبعض من جوانبه في كتاب آخر عن الذكريات التي لا يسعها هذا الكتاب.

فهذه التجربة جديرة لأن تكون محل دراسة وتأمل لاستكشاف الخطأ من الصواب، واستكشاف الجائز من غير الجائز، ولا شك أن التحرك الذي يحقق مصلحة إسلامية ولا يسبب ضرراً لمسلم أو ضرراً للإسلام الأصل فيه أن يكون مباحًا.

***

الباب الحادي عشر

من السابعة والأربعين إلى التاسعة والأربعين

(سنة ١٩٨٢ - ١٩٨٤م)

بعد خروجي من القيادة عدت إلى العكوف على التأليف، وكان للتنظيم العالمي قيادة مؤقتة لها حكم مكتب الإرشاد، وكانت هذه تعد لاجتماع مجلس شورى التنظيم العالمي، وكان هذا المجلس على أبواب تشكيل جديد، إذ طولبت الأقطار أن تقدم ممثليها له، وكانت لائحة هذا المجلس تنص على أن لمكتب الإرشاد أن يرشح ثلاثة يوافق عليهم مجلس الشورى، فيكونوا أعضاء فيه، وقد وقع الترشيح في جملة من وقع عليَّ وعرض اسمي على مجلس الشورى فقبله، فأصبحت بذلك عضواً في مجلس الشورى العام، وصادف ذلك اللقاء الأول لمجلس الشورى العام، فدعيت إليه، وكان ذلك في نيسان (أبريل) الشهر الذي خرجت فيه من قيادة الإخوان المسلمين في سورية، كان الاجتماع مباركًا، وكان المفروض أن تبحث فيه أمور ذات بال، فلم يسع الوقت، فاتفق على لقاء استثنائي، ولكن لم أستطع الحضور، واختارني مجلس الشورى العام لعضوية مكتب الإرشاد في غيابي ودون استشارتي.

اجتمع مكتب الإرشاد اجتماعه الأول ودعيت إليه فقدمت اعتذاري عن العمل وذكرت جملة أسباب:

١- إن هذا الثوب فضفاض عليَّ فلست مؤهلاً للباسه وسني لا يصلح لهذا المقام.

٢- أن لي خصوماتي الكثيرة وهذا المقام لا يصلح له من كان كذلك.

٣- أن طبيعتي وأخلاقي وتركيبي النفسي لا تجعلني مؤهلاً لهذا العمل.

٤- وأخيرًا فإن تجربتي في العمل في القيادة السورية أوصلتني إلى أن المجموعة العاملة إذا لم تكن متفاهمة متلاحمة فالعمل يتعرض في كل لحظة للانكسار.

لم يقبل اعتذاري وشاركت في الاجتماع الأول.

كانت انجازات اجتماع المكتب جيدة واتفق على لقاء لاحق، وكان الاجتماع إيجابيًا، وتم اجتماع ثالث لمكتب الإرشاد قبل شباط (فبراير) موعد اجتماع مجلس الشورى العام، وفي هذه الاجتماعات الثلاثة توضحت معالم السياسة للمرحلة المقبلة إلى حد كبير، وتوضحت معالم البناء الذي على مكتب الإرشاد أن يقيمه. وأهم شيء في السياسات الإخوانية الجديدة موقف الإخوان من الحكومات، فالمناصحة هي الوسيلة التي ينبغي أن تعتمد مع كثير من الحكومات.

الذين يعملون في العمل الحزبي السياسي مضطرون لمسايرة كثير من الأمور التي لا يرتاحون إليها، وقد يضطرون للصمت على أخطاء أحزابهم والدفاع عنها لأن هذا جزء مما يفرضه الانضباط الحزبي، ثم هم يضطرون لمسايرة أهواء الرؤساء والمرؤوسين وأصحاب القرار وأصحاب الأصوات الانتخابية للاحتفاظ بمواقعهم. ولم أكن اهتم لذلك. وكنت أرى أن وضع الإخوان المسلمين كتجربة رائدة في العمل الإسلامي لا يصلحه ذلك لأنه إذا أصبح العضو في الإخوان المسلمين أسير ذلك فإن الجماعة معرضة للجمود والانغلاق ثم الموت، ولكن لابد من صيغة أجمع فيها بين كل ما أعتبره مصلحة للإخوان المسلمين وبين انضباطي الحزبي داخل الجماعة.

كنت أرى أن الحل في نقطتين، واحدة في الجماعة وواحدة في نفسي، أما الجانب الذي له علاقة في الجماعة فهي أن تكون الجماعة في مؤسساتها وأشخاصها ونظرياتها التنظيمية ومراتب العضوية فيها وخططها العملية على المستوى المطلوب.

وأما الجانب الذي له علاقة بي هو أن أبتعد عن المنافسات الإدارية وأن أقول بحرية كل ما أرى أن للجماعة مصلحة فيه مهما كلفني ذلك، وقد حاولت بالنسبة للجماعة الكثير من أجل تطويرها أن في مناهجها الدراسية التربوية أو في محاولة تطوير نظرياتها التنظيمية أو أنظمتها أو مؤسساتها، فمثلاً حاولنا كثيرًا أن نربط بين درجات العضوية والثقافة والالتزام والخصائص والتخصص. أما اعتزال الإداريات -والإداريات هي التي تسبب المماحكات والحساسيات والتخوفات والمنافسات-

فكثيرًا ما وجدتني في وضع لا مفر لي منه من أن أشارك، وإذا شاركت فلابد أن أعطي المقام حقه.

كانت السنتان اللتان أعقبت أحداث حماة حاسمتين في مستقبل سورية الإسلامي.

وكان أدبي في هذه المرحلة النصيحة، لكنني اضطررت لموقفين لم يكن لي منهما بد:

الموقف الأول: أن المفاوضة للمصالحة مع حافظ أسد تجاوزت حد المصلحة.

الموقف الثاني: عندما قررت القيادة السورية قطع المساعدات عن بعض من قذفت بهم ظروف المعركة إلى خارج سورية فلم أستطع السكوت، وكانت محصلة هذين الموقفين تأزم الوضع بينيْ وبين القيادة السورية، وتجاوزنا هذه الأزمة بصعوبة.

كنت في هذه السنة عاكفًا على التأليف مع شيء من الرعاية للإخوة الحمويين خاصة.

قبلت استقالتي في سنة ١٩٨٤ -من مكتب الإرشاد- من مجلس الشورى للتنظيم العالمي، وكانت معلقة.

• في مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ

الأصل عند الإخوان المسلمين أن يلتقوا على قراءة الوظيفة الكبرى أو الصغرى صباحًا ومساءً، فإن فاتهم ذلك، فإنهم يلتقون صباحًا أو مساءً، فإن فاتهم ذلك، فإنهم يلتقون أسبوعيًا أو شهريًا على جلسة ذكر أو تلاوة قرآن، وقد حرصنا ولازلنا نحرص على جلسة أسبوعية يقرأ كل من الحاضرين فيها جزءًا من أجزاء القرآن بشكل سري وعلى انفراد، ثم يقرأ أحدهم الآيات القرآنية المذكورة في الوظيفة والآخرون يستمعون، ثم يقرأ الجميع الوظيفة فيذكرون الله بما ورد فيها، ثم تكون قراءة في كتاب مذكر، ثم تكون مذاكرة صالحة، ولو أن الإخوان

المسلمين أعطوا حرية لكانت هذه الجلسات هي الأصل في اجتماعهم على الذكر، أما وقد فقدوا الحرية في بعض الأقطار فصار ما يدل عليهم يعتبر جريمة، فقد صرنا نعتمد صيغا أخرى في الاجتماع على الذكر. ونحن نرى أهمية كبرى لاجتماع المسلمين على الذكر أسبوعيًا أو أكثر لما في ذلك من آثار كثيرة ذكرتها النصوص، وذكرناها في كثير من كتبنا.

وكان قد أنشئت في سورية مجالس للذكر تلقاها العلماء والخاصة والعامة بالقبول وسميت مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ، وهي تقوم على فكرة أن يخصص وقت في مسجد يجتمع الناس فيه فيصلى كل من حضر على رسول الله ﷺ سرًا حوالي ألف مرة بصيغة مختصرة: «اللهم صل على محمد وآله وسلم». ثم يكون شيء من إنشاد وشيء من الذكر بصيغة «لا إله إلا الله». ثم يكون دعاء وختم للمجلس فيخرج الناس وقد حصلوا بركة الاجتماع على الذكر.

والاجتماع على الصلاة على رسول الله ﷺ، قد رجح ابن حجر العسقلاني -رحمه الله - في كتاب «فتح الباري» جوازه وأنا أرى أن الاجتماع على الذكر -أيا كان- مندوب إليه بل هو جزء من معالجة أمراض العصر.

وقد جاءني بعض الإخوة في المهجر، فأشرت عليهم بإقامة مجلس صلاة على رسول الله ﷺ، فلعل الله يرفع به البلاء وأوصيتهم أن يتخيروا من الإنشاد ما لا ينكره الفقيه، وأن يقرأوا في نهاية المجلس شيئًا من رياض الصالحين، فلقى هذا النوع من المجالس قبولاً، فعممناه فكان نوع علاج، ثم ضاقت علينا الأمور فأهملنا فكرة الاجتماعات الدورية كلها خوفًا على إخواننا.

في حركة إحياء الربانية التي أسيء فهمها

كنا نرى أن الإجازة في العلم أو في التربية يجب أن نعممها وذلك إحياء لسنة من سنن العلماء، وكنا ولازلنا نرى أن الإجازة الكاملة هي الإجازة التي تكون أثرًا عن نضج علمي وروحي بآن واحد، وهذا لا يتحقق في الإجازات الرسمية عادة، ولا يتحقق في إجازات المشايخ إلا لماما، وكنا ولازلنا نرى أن إنشاء مدرسة في كل

مسجد تعطي هذه الإجازات باسم المسجد على ضوء برامج علمية وعملية وبإشراف وامتحان وذلك إحياء وتعميم للفكرة التي أوجدت جامع الأزهر وجامع الزيتونة، ليكون ذلك بداية الإحياء للإسلام في عصرنا في القلوب والعقول على مستوى العالم.

كنت حريصًا على أن توجد حركة رائدة في هذا السبيل تعطي مناهج علمية وتربوية وتعطي إجازة فيها، ولم تكن الظروف تسمح بإعطاء إجازات باسم الإخوان المسلمين لما يثيره ذلك من حساسيات، ويسببه من مخاطر فاقترحت أن تنشأ حركة لإحياء الربانية تعطي الإجازة باسمها، واعتبرت هذا العمل مكملاً لأي عمل إسلامي وليست بديلاً عنه.

فتعميم الثقافة الإسلامية والتربية عليها لا يصلح في عصرنا أن يكون مرتبطًا بحزب سياسي يتخوف الناس منه، لكن هذه الفكرة قد أسيء فهمها، وحاولت بعض الجهات أن تشوش عليها وأنا لا أزال مقتنعًا بها وداعيًا إليها. فإن شاءوا حركة رائدة لتعميم الثقافة الأنموذج، والتربية الأنموذج، وإن شاءوا مدرسة في كل مسجد تعمم الثقافة والتربية والإجازة ضرورة معاصرة.

وقد يكون في عصرنا سبيلاً وحيدًا للارتقاء بكل مسلم ومسلمة على مستوى العالم، ولازلت أطمع أن توجد الحركة الرائدة وأن يوجد المسجد الأنموذج الذي يعج بالحركة العلمية والروحية للصغار والكبار والعامة والخاصة، الرجال والنساء، والطلاب كل بما يناسبه وأن يكون هذا العمل تطوعيًا ما أمكن حتى يبقى فيه سر الإخلاص.

في استقالتي من مكتب الإرشاد ومجلس الشورى العام

عندما يصبح الإنسان انفعاليًا كثير الغضب فإنه يفقد صلاحيته للعمل العام والخدمة العامة. وقد لاحظت أني أصبحت كثير الانفعال منذ سنة ١٩٨٠، ولا أدري هل كان ذلك بسبب الأمراض أو بسبب ضغط العمل، أو هو ابتلاء رباني، ليرجع الإنسان إلى ربه مستشعرًا فقره -(اللهم أنا فقراء إليك)-.

المهم أنني أصبحت أرى أنني لم أعد أصلح للخدمة العامة وكان هذا أحد الأسباب التي استقلت فيها من القيادة السورية، وحاولت أن أعتذر عن قبولي العمل في مكتب الإرشاد فلم يقبل اعتذاري، ثم جاءت ظروف مساعدة، قدمت فيها استقالتي، وقد تعامل مكتب الإرشاد مع هذه الاستقالة بحكمة، وأخيراً قبلت استقالتي من مؤسسات الجماعة كلها.

وأرجو أن يكون في ذلك الخير، فالجماعة من فضل الله مليئة بأصحاب الكفاءات.

***

الباب الثاني عشر

من التاسعة والأربعين إلى الخمسين

(أهم أحداث سنة ١٩٨٥)

١- انتخابي لرئاسة اللجنة الاستشارية لمركز حماة.

٢- المشاركة في المؤتمر الشعبي لعلماء المسلمين الذي انعقد في بغداد للبحث في الحرب العراقية الإيرانية.

١- انتخابي لرئاسة اللجنة الاستشارية لمركز حماة

كان الإخوان في سورية قد أحدثوا شيئًا اسمه اللجنة الاستشارية وجعلوا لكل محافظة لجنة وهذه اللجان مسئولة عن عدد من المهمات منها تعميق الإخاء بين أبناء المحافظة الواحدة، والسبب الذي ألجأهم إلى ذلك هو أنه بعد خروج الإخوان من سورية بسبب الظروف الصعبة التي واجهوها لم يعد هناك جهة تمثل المحافظات وهذا المعنى ألجأ القيادة أن تتخذ قرارًا، هذا القرار يقضي بأحداث اللجان الاستشارية للمراكز ليبقى لكل محافظة كيان ما، هذا الكيان يعمل ضمن حدود ضيقة جدًا وهو أشبه بالرمزي، وكانت اللائحة الداخلية للجان الاستشارية تنص على أن أبناء اللجان الاستشارية يختارون من بينهم رئيسًا ونائبًا له وأمينًا للسر، وكانت الجلسة الأولى للجنة الاستشارية رسميًا بحضور ممثلين عن الجهة المختصة في أجهزة الإخوان المسلمين، وقد جرى في هذه الجلسة انتخاب لرئيس اللجنة الاستشارية لحماة، ووقع الاختيار عليَّ لأن أكون رئيسًا لهذه اللجنة، وانتخب أحد الإخوان نائبًا للرئيس وانتخب أحد الإخوة أمينًا للسر، وهكذا بدأت اللجنة الاستشارية في حماة سيرها الرسمي، وهذا السير بحد ذاته لا يعدو أن يكون سيرًا رمزيًا إلا أنه مهم من الناحية المعنوية، ولعل هذا الموضوع يقتضي مني أن أتحدث عن حماة والحمويين.

إن التركيب النفسي لمحافظة حماة تركيب أثرت فيه عوامل متعددة، ويغلب على البلد في تركيبها النفسي طابع العزة والأنفة والكرامة والأريحية، فتجد الواحد من أبنائها تحفزه الكلمة حتى ليكاد من خلال الكلمة الحماسية أن يندفع ولو كلفه ذلك حياته كما أن كلمة واحدة كافية لأن يفعل الشيء الكثير.

المهم أن لحماة تركيبًا خاصًا من آثاره أن أبناء البلد كثيرو الاندفاع كثيرو التضحيات لا يتحملون ظلمًا يقع عليهم أو على غيرهم، ولذلك فإنك تجدهم في تاريخ سورية الحديث هم مؤشر المستقبل السياسي لسورية بحكم تركيبهم النفسي الذي يجعلهم دائمًا في المقدمة والذي يجعلهم دائمًا يقدمون على التضحيات بأنفس مرتاحة، ولذلك كله كانت إدارة الحمويين ورعايتهم وسياستهم تحتاج إلى خبرة واستشراف، فإنهم بهذا التركيب النفسي أن وجدت لهم رعاية خاصة يستطيعون أن ينتجوا وأن ينجزوا وأن يحققوا الأهداف العظام، ومن المعروف أن الجيش الخاص لصلاح الدين كان فيه ألف من الحمويين يختارهم له خاله شهاب الدين الحارمي حاكم حماة في حينه، وإذا لم توجد لهم الرعاية الكافية والتوجيه المناسب فقد يستجرون لمواقع يخسرون بها بعض معاركهم، ولذلك قبلت أن أتحمل مسئولية اللجنة الاستشارية لمحافظة حماة لعلمي بالمخاطر التي تحف بهم. كل ذلك جعلني أقبل هذا العمل على ما فيه من احتمالات صعبة بالنسبة لي.

وكان الهم الأكبر لي داخل اللجنة الاستشارية هو أن تستمر الخدمات والمساعدات للإخوة الذين اضطرتهم ظروف البلد بالهجرة.

٢- المشاركة في المؤتمر الشعبي لعلماء المسلمين الذي انعقد في بغداد للبحث في الحرب العراقية الإيرانية

سافرت في عام ١٩٨٥ إلى السعودية لإقامة مناسك العمرة وللاجتماع مع الإخوة الحمويين بوصفي رئيسًا للجنة الاستشارية لمحافظة حماة، وبينما أنا في السعودية جاء هاتف يطلب مني الحضور فورًا للمشاركة في المؤتمر الشعبي لعلماء المسلمين الذي سيعقد في بغداد.

عدت إلى عمان ومنها إلى بغداد، حضرت والمؤتمر منعقد. تعرفت صباحًا على وزير الأوقاف العراقي، وكان يمتلك شخصية مهذبة محببة نشيطة.

كانت أحاديث الخطباء وأكثرهم من أثقل علماء العصر، ودعاته في غاية الصراحة والموضوعية، حضر الرئيس صدام حسين وألقيت بين يديه كلمات قوية أسالت دموعه، وطالبه أحد الخطباء بأن يحيي معالم الحق التي بعث بها محمد ﷺ، وكان أكثر الخطباء يتكلمون عن القضية الإيرانية العراقية، ويشيرون إلى مثل هذه المعاني، خرجت قرارات المؤتمر في غاية القوة، كان المؤتمر تظاهرة إسلامية حقيقية ضد الحرب، وأدان إيران وطالب الأمة الإسلامية أن تقف وقفة واحدة ضد البغي الإيراني، وسجل ذلك كله تفصيلاً، قابلنا بعد ذلك أنا وعدد من الإخوان منهم أبو الطاهر وأبو عامر نائب الرئيس لرئاسة الوزراء طه ياسين رمضان قال أبو عامر: أن الأمة الإسلامية حيتكم وعليكم أن تردوا التحية بخطوات إسلامية عملية.

تركزت كلمتي في المؤتمر على النقاط التالية:

أولا: أن الصراع الصفوي العثماني تاريخيًا أضعف الأمة الإسلامية لصالح أعدائها لذلك فإن التوجه الإسلامي الحديث كان يرى أنه لا يصح أن ينتقل الحوار الفكري بين شيعة وسنة إلى صراع سياسي أو عسكري، وأن ما فعله الخميني لا نرى له نهايات منظورة، فهو سائر في طريق لا نهاية له إلا ذبح السنة والشيعة، فيجب على العقلاء من السنة والشيعة أن يوقفوا هذا التوجه الخطير.

ثانيًا: أن ما يحدث على الأرض الإسلامية هائل من تصفية للإسلام في أمكنة كثيرة توجب حركة، ولكنا نجد أن شعوب الأمة الإسلامية وحكوماتها وأبناء هذه الأمة مثبتون في مواقعهم لا يأتون حراكا.

ثالثًا: كنا نطمع أن تكون الثورة الإيرانية لكل المسلمين وإذا بها تظهر أغرب أنواع التعصب المذهبي فلا مسجد للسنة في طهران، ولا وزير من السنة في إيران مع أن ثلث سكان إيران من السنة، والدستور وغيره وكل شيء أصبح مذهبيًا متعصبًا.

رابعًا: أن الوضع العالمي في غاية التعقيد، والحرب العراقية الإيرانية لا زالت مستمرة، لهذا كله فإنني أقترح:

أولاً: أن يصبح هذا المؤتمر مؤتمرًا دائمًا يأخذ على عاتقه تعبئة الطاقات الإسلامية في العالم لتقف الأمة الإسلامية مواقف موحدة أمام قضاياها المصرية، ومن أول ما ينبغي فعله أن يوجد الجيش الإسلامي الحاجز الذي تشارك فيه كل شعوب الأمة الإسلامية وحكوماتها بين العراق وإيران حتى إذا اعتدت إيران على هذا الجيش أعلن العالم الإسلامي كله الحرب عليها.

ثانيًا: أن على الحكومات الإسلامية أن تضع برنامجًا لإعمار العراق وإيران وأن تعوض على أسر القتلى من الجانبين.

ثالثًا: أن يفتح حوار مع المعارضة الإيرانية لوضع ميثاق يحكم العلاقة بين إيران وبقية الدول الإسلامية في المستقبل.

رابعًا: أن يخرج هذا المؤتمر بكتاب مفتوح للشعوب الإيرانية يناقش كل إدعاءات الإيرانيين.

كانت هذه أهم بنود كلمتي، وكان الحديث الصريح عن السنة والشيعة صعبًا، لأن المؤتمر يحضره شيعة وسنة، ولذلك علق بعض إخواننا على كلمتي فقال: لقد دخلت مدخلاً صعبًا ولكن استطعت أن تخرج منه، والفضل لله وحده.

بمناسبة زيارتي هذه لبغداد زرت معسكر الإخوان هناك وألقيت فيهم خطبة الجمعة كما اجتمعت بالإخوة الحمويين اجتماعًا قصيرًا باعتباري رئيسًا للجنة الاستشارية، وحثثتهم فيه: على المحافظة على النظام وحسن الترتيب كما أوصيتهم فيه باللطف مع أنفسهم ومع الجميع وأن عليهم في هذه المرحلة أن يؤدوا الواجب دون أن يطالبوا بالحقوق.

نسأل الله أن يتقبل. .

● **في ظهور كتابنا في التفسير هذا العام**

ظهر كتابنا «الأساس في التفسير» هذا العام مع أنني قدمته للنشر منذ سنين طويلة، ولكن عصفت به الأحداث وانتقل من ناشر إلى ناشر، وجزى الله الجميع خيراً.

من التقويمات التي نشرت عن هذا التفسير ما نشرته جريدة المدينة المنورة في السعودية في عددها (٧٢٩١) في ١١ شعبان سنة ١٤٠٧هـ، وهو تقويم أعتز به وهذا نص المقال:

الأساس في التفسير.. كتاب يحتاجه الربانيون

أنا قارىء مسلم عثرت على كتاب اسمه الأساس في التفسير للأستاذ سعيد حوى قرأت فيه فلم أتمالك إلا أن أكتب هذا المقال:

إذا جاز لنا أن نعتبر كتاب في ظلال القرآن كتاب القرن الرابع عشر الهجري في المكتبة القرآنية فإني بعد أن أطلعت على كتاب الأساس في التفسير أخذت به وأدهشت فقلت بحق أنه:

كتاب القرن الخامس عشر الهجري في المكتبة القرآنية -ذلك القرن الذي يأمل فيه الكثيرون أن يكون قرن إعادة الخلافة الإسلامية. وهذا التفسير اللبنة الأولى في طريق الخلافة ولا عجب فإن مؤلف هذا التفسير الأستاذ العلامة سعيد حوى صاحب الكتب المميزة المتسمة بطرح القضايا الكلية والنظريات المتينة المتكاملة لتكون قاعدة الانطلاق والبناء. ألف هذا التفسير وهو سجين فكان سجنه خطوة على طريق القدوة وكان من ثمراته كتاب الأساس في التفسير كما كانت مؤلفاته لبنات ترصع البناء الإسلامي وتسد ثغرات فيه.

أقول هذا قبل الخوض في ذكر دوافع تأليف هذا الكتاب ومميزاته وخصائصه وثمراته المرجوة، أن هذا الكتاب جزء من سلسلة الأساس في المنهج التي تتألف من أقسام ثلاثة:

الأساس في التفسير، والأساس في السنة، والأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص، فالحديث عن دوافعه يندرج ضمن الحديث عن دوافع تأليف السلسلة جميعها التي هي:

١- أنه في عصر الامتحان لكل شيء والسيطرة المادية على العالم وتصدير الأفكار المختلفة وصياغتها بالقالب الذي يريده الماديون مع وجود طاقات هائلة مسخرة لهذا وعمل دؤوب مخطط من قبل القوى المادية في العالم لتغير كل المسلمات القديمة، أمام هذا لابد من استعراض شامل للنصوص الإسلامية التي هي بالدليل والبرهان تشكل مسلمات صحيحة في هذا العالم.

٢- وفي هذا العصر طرحت كثير من الأمور نفسها بشكل حاد فأصبح لابد من إجابة شافية، واختلط الأمر واختلطت الإجابات، فكان لابد من عملية تميز كاملة متكاملة للإجابة الصحيحه ولابد أن نفهم النصوص في إطارها الصحيح، وأن كل تساؤل لا يحتمل في عصرنا تأخير الإجابة عليه، والإجابة الصحيحة الشاملة لا تتم إلا من خلال عرض شامل للنصوص.

٣- ومن واقع عصرنا أن ما يخدم قضية الحق أبعد لصالح الهوى وما يخدم قضية اليقين أبعد لصالح الظنون تحت غطاء العلمية والموضوعية وعندما يصل البعض إلى حقائق تخدم قضية الإيمان تجده يرفضها ليوصل إلى تخريب أو ضلال في العقل والوجدان والسلوك فآن الأوان للمسلم أن يقول كلمته الحاسمة وبداية ذلك العرض الشامل لنصوص الإسلام وإقامة الحجة في شأنها على أنها الحق الخالص.

٤- القرآن حجة الله على خلقه وحجة الله أن محمداً عبده ورسوله فلابد من إبراز كمال الحجية فيه وما أكثر الحجج ولابد من الإجابة على شبهات الخلق في شأنه ومن أعجب هذه الشبه ما تنشره بعض دوائر الكفر حول الوحدة القرآنية والصلة بين سور القرآن بعضها ببعض وكذا آيات القرآن فكان هذا الكتاب إبرازاً لمظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن من خلال هذه القضية.

٥- أن هذه السلسلة محاولة للفهم الصحيح لكلمة الله ورسوله ﷺ في عصر أصبحت فيه كثير من النصوص تفهم فهمًا خاطئًا ويبني على هذا الفهم الخاطيء أحكام خاطئة فقد وجدت عقليات حرفية لا تراعي طرائق العرب في الخطاب والفهم وعقليات تأويلية تنطلق بالتأويل دون ضوابط وعقليات تفهم الأصل على ضوء الفرع أو تنسى الأصل وتستيقظ على الفرع وكل ذلك لا يسع المسلم.

هذه النقاط الخمس تشكل الدوافع الأقوى لإصدار هذه السلسلة التي منها التفسير كما ذكر المؤلف في المقدمة.. وبعد فما هي خصائص ومميزات هذا التفسير؟

نذكرها بإيجاز فنقول:

١- أنه قدم لأول مرة نظرية جديدة متكاملة في موضوع الوحدة القرآنية تبين هذه النظرية قضية الربط والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين سور القرآن بعضها مع بعض على ضوء نظرية شاملة مستوعبة لآيات القرآن وسورة وهذه التغطية تروي من ظمأ الباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن كما أنها تضع لبنة في صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته وتجيب على تساؤلات كثيرة من جملتها موضوع فواتح السور إلى ما هنالك من قضايا وأسرار تترتب على هذه النظرية عددها المؤلف.

٢- ومن ميزاته الاستفادة من أوثق ما توافر من المراجع من كتب دينية قديمة والنقل عنها مباشرة والعزو إليها مع نقد ما ينبغي نقده مع تبيان نقاط الضعف فيها والاستفادة من علوم عصرنا وتخصصاته وما أنتجه ذلك من قضايا تبرز معجزات في القرآن تتأكد بها الحجة القائمة على الخلق.

٣- من ميزاته أن لا حشو فيه وليس فيه إلا ما له علاقة بصلب التفسير مع استبعاد كل قضية لا تعتبر علمية عملية.

٤- حاول التبسيط والتقريب مع الاحتفاظ إلى حد كبير بعبارات المفسرين أو بدقة طرائقهم في الأداء وهذا أمر لا يدرك صعوبته إلا من عاناه فإن كثيرًا من

العبارات لم تستقر على ما هي عليه إلا بعد عمليات تنقيح أجريت عليها خلال العصور.

٥- حاول ربط المسلم بقرآنه وتبصيره بواقعه وإذا كان للمسلم الحق في عصرنا معارك متعددة لابد أن يخوضها على أساس القرآن فلا يحسن بكتاب معاصر في التفسير أن يغمض مؤلفه عينه عن هذه المعارك وهذا يقتضي تربية مكافئة لهذه الأمور كلها على ضوء القرآن ومن ثم فقد راعى المؤلف هذه الناحية بشكل بارز.

٦- محاولة بيان من هم أهل السنة والجماعة وما هي مدارسهم الاعتقادية والفقهية والروحية والسلوكية والأصولية ومن يقرب من ذلك ومن يبعد.

٧- حاول أن يبين أن القرآن أعطي الجواب على كل شيء أما بشكل مباشر أو بما أحال عليه من السنة أو بما حال القرآن والسنة على طرائق ووسائل يعرف بها حكم الله.

٨- أنه كتاب علم ودعوة وتربية وجهاد بآن واحد.

٩- أن من مزايا هذا التفسير أنه عمل على أن يكون أداة لرفع درجات اليقين والارتقاء به مع تصحيح التصورات وزيادة العلم وخدمة قضية زيادة الإيمان وإصلاح الاعتقاد والعمل.

١٠- من مزايا هذا التفسير أنه استفاد من أهم كتب التفسير وقد نقل من الظلال ما يعتبر زبدته وأرقى ما فيه وانتقى أزاهيره مع الابتعاد عما يمكن أن يكون فيه ملحظ لعالم راسخ وبالتالي فإن قاريء هذا التفسير يكون قد أخذ من الظلال أرقى ما فيه.

والمؤلف -كما يقول عن نفسه- لا يكلف نفسه عناء صياغة شيء يحتاجه الكتاب إذا كان غيره قد صاغه الصياغة التي يرضاها أو التي تقصر عنها عبارته أصلا حيث أن الهدف وجه الله ليس إلا.

ومن ملاحظاتي على هذا الكتاب: أن القاريء فيه لا يمل بل يجد نفسه مسترسلا مأسوراً مأخوذاً لا يريد تركه وكأن روح الإخلاص فيه تشد القاريء إليه والتأثير في القاريء نتيجة ذلك أمر بدهي وهذا التأثير له جوانب متعددة قلبية وسلوكية وفكرية وعلمية.

ويولد هذا التفسير روح العمل للإسلام والإخلاص في ذلك ومعرفة ما يجب على المسلم وكيف يسلك الطريق الصحيح للوصول إلى الهدف الصحيح.

ومن آثاره المرجوة بناء الشخصية الإسلامية العالمية العلمية الجهادية الربانية كما أنه يولد عند القاريء روح الدقة في التعبير والحساسية اللازمة تجاه أي شذوذ عقدي أو فقهي.

والتفسير بعد ذلك ذخيرة علمية وعملية ذات صبغة إيجابية وتربية روحية راقية.

وبعد، فإن الإطراء ليس هدفنا ولكن الإعجاب بالكتاب والتقدير له جعلنا نكتب هذه الكلمات أ.هـ.

***

الباب الثالث عشر

من الخمسين إلى الواحدة والخمسين
(أهم أحداث سنة ١٩٨٦)

١ - الرحلة إلى باكستان والأفغان

زارنا بعض الإخوة من المهتمين في القضية الأفغانية، وحدثونا عن أن الرعيل الأول من أبناء الحركة الإسلامية الأفغانية، كاد يستشهد كله وأنه يجب أن تعطي عناية للتعليم الإسلامي في صفوف المهاجرين الأفغان فلعل ذلك يعوض، وأخبرونا أنه قد أنشئت عدة معاهد لهذا الغرض، وطالبوا بعض الإخوة أن يذهبوا لدراسة هذا الموضوع، كما طالبوا أن نرسل بعثة تعليمية من المهاجرين السوريين لهذا الغرض، وتطوعت للذهاب في هذه الرحلة التي ضمتني مع الأخ أبي الطاهر فقط إذ اعتذر أحد المشايخ عن الذهاب في آخر الموعد، تمت الترتيبات وذهبنا إلى باكستان، وكانت رحلة متعددة الأهداف، فكانت حركة نحو اتحاد طلبة المسلمين والقينا عندهم عدة محاضرات، واتجهنا نحو المعاهد التعليمية فألقينا فيها عدة محاضرات، واتجهنا نحو مكتب الخدمات العرب، فكانت مذاكرات ومحاضرات، واتجهنا نحو قادة الجهاد الأفغاني فقابلناهم جميعا، وركزنا على نقطتين: أن عليهم أن ينضجوا أحزابهم وأن يوجدوا صيغة يستطيعون فيها أن يتعاملوا مع بعضهم وأن يفكروا في المستقبل، ولم يكن عندنا وقت كاف لنضع أنفسنا تحت تصرف كل حزب على حدة، فخصصنا حزب رباني وحزب حكمت يار، وحزب سياف، بأن خصصنا لكل حزب يومين ألقينا فيهما عدة محاضرات على أعضاء كل حزب من هذه الثلاثة، وقابلنا شخصيات متعددة، وزرنا الهيئة التدريسية للجامعة الإسلامية في إسلام آباد، وكانت مذكرات طيبة معهم، وخرجنا من هذه الجولة الميدانية بانطباع عما ينبغي فعله، وكان من آثار هذه الرحلة أن كتبنا دراسة تحت عنوان «القضية الأفغانية والتحرك المكافيء المطلوب» وأرسلناها بواسطة الأستاذ برهان الدين رباني إلى قادة الأحزاب الأفغانية جميعا.

٢- الرحلة إلى مصر

سافرنا مع الأخ أبي عامر وآخرين إلى مصر بتاريخ ٦/ ١٢/ ١٩٨٦ وكان الهدف من هذه الرحلة متعددا:

أولا: اظهار موقفنا من الخمينية التي أصبحت تشكل خطرا فكريا وحركيا.

ثانيا: مقابلة المرشد العام الجديد للإخوان المسلمين وتحيته وإعلامه أننا لا زلنا أصدقاء وأحباب، وقد حققت الرحلة مقصديها.

قابلنا جهات كثيرة في مصر وشرحنا لهم وجهة نظرنا في الخمينية، وكان التجاوب كاملا.

وقابلنا فضيلة المرشد العام وكانت مقابلة لطيفة كما قابلنا عددا من الإخوان وخرجنا بما كنا نأمله، إذ أكدنا أنه إذا فاتتنا العلاقات التنظيمية، فلا تفوتنا العلاقات الآخوية.

● في الانقسام الثالث الخطير الذي حدث بين الإخوان المسلمين في سورية

لعل أخطر انقسام واجهته جماعة الإخوان المسلمين في سورية هو الانقسام الذي حدث في سنة ١٩٨٦.

والأمل معقود بفضيلة المرشد العام الجديد -بعد الله تعالى- في تدارك هذا الأمر، ولكن قد يكون من المفيد أن نشير إلى بعض الأسباب التي أدت إلى هذا الانقسام.

إن الأسباب الجوهرية التي أدت إلى هذا الانقسام تكمن في ثلاثة أمور:

أولا: خرق الأنظمة المعتمدة.

ثانيا: تعطيل مؤسسات.

ثالثا: الاختلاف في التوجه السياسي.

وقد حسم هذا الموضوع أخيرا وذلك يساعد على العلاج.

وتوضعت حول الأسباب الجوهرية أسباب ثانوية: كنمو الروح الإقليمية والمماحكات الشخصية، والآراء السلبية لبعض الإخوان ببعض، وفهم بعض الأمور فهما مغلوطا، وعدم الوضوح في النظرية التنظيمية الصالحة لحزب إسلامي معاصر.

الباب الرابع عشر

من الواحد والخمسين إلى الثانية والخمسين

● (أهم أحداث سنة ١٩٨٧)

١- الرحلة إلى السعودية.

٢- العزلة الاضطرارية.

١- الرحلة إلى السعودية

كانت أسباب الرحلة إلى السعودية متعددة منها مرض العيون الذي أصبت به، فقد قيل لنا أن في الرياض مستشفى تخصيصيًا للعيون.

ومن أسباب هذه الرحلة الرغبة في لقاء بعض المهتمين في الشئون الإسلامية.

كان مرضنا مستعصيًا فلم نستفد شيئًا، لكنا قابلنا أعدادًا كبيرة من الأحباب وجددنا الصلة بهم، وحضرنا، اجتماعات متعددة، ذكرنا أو ذكرنا[١]، أو قدمنا خلاصة آرائنا فيما اقترح أمامنا، وعدنا إلى مقرنا وأوضاعنا الصحية ليست على ما يرام.

٢- العزلة الاضطرارية

تعددت أمراضنا من قبل، وكنا نصابر ونكابر حتى أصبنا بشيء من أعراض الشلل، ابتدأ ذلك بتاريخ ١٤/ ٣/ ١٩٨٧، فدخلنا المستشفى ثم خرجنا منه، وقد نصحنا بعض الأطباء بأن علينا أن نعتزل اعتزالاً كاملاً كل شيء، فلم يعد أمامنا مفر إلا أن ننظم حياتنا على أساس من هذه العزلة.

فمرض السكري ومرض الضغط ومرض العيون، ومرض القلب وتصلب الشرايين وتورم الأقدام، ومرض الكلى وظاهرة الشلل الجزئي، كل ذلك لم يعد

(١) ذكرنا أو ذكرنا: الأولى بفتح الذال وتشديد الكاف مع فتحها، والثانية بضم الذال وكسر الكاف مع التشديد.

بالإمكان معه أن نشارك بالعمل العام ولا أن نتحمل مسئوليات، وأصبح واضحًا أنه لم يعد أمامنا إلا الاستمرار في نوعين من العمل:

أولاً: النصيحة لمن جاء زائرًا.

والثانية: متابعة التأليف ونسأل الله أن يتقبل، وبهذه العزلة الإجبارية نختم مذكراتنا، وإذا جد جديد يستأهل أن نذكره لأخذ فائدة أو للعبرة، فسنسجله إن شاء الله تعالى تحت عنوان: يوميات الغروب.

والحمد لله رب العالمين..

● مؤلفاتنا حتى عام (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)

أصدرت كتبي كلها تحت عنوان دراسات منهجية هادفة لأنني كتبت كل ما اعتقدت أنه ينبغي أن يدخل في دراسة المنهج وأصدرت حتى الان عدة سلاسل.

أولاً: سلسلة الأصول الثلاثة وتتألف من ثلاث كتب:

(أ) الله جل جلاله.

(ب) الرسول ﷺ.

(جـ) الإسلام.

ثانيًا: سلسلة الأساس في المنهج وتتألف من ثلاثة كتب:

(أ) الأساس في التفسير.

(ب) الأساس في السنة وفقهها.

(جـ) الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص.

ثالثًا: سلسلة الفقهان الكبير والأكبر وقد صدر منه أربعة كتب:

(أ) جولات في الفقهين الكبير والأكبر.

(ب) تربيتنا الروحية.

(جـ) المستخلص في تزكية الأنفس.

(د) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين.

رابعًا: سلسلة في البناء وقد صدر منها:

- جند الله ثقافة وأخلاقًا.
- جند الله تخطيطًا.
- جند الله تنظيمًا.
- من أجل خطوة إلى الإمام على طريق الجهاد المبارك.
- المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين.
- دروس في العمل الإسلامي.
- فصول في الأمرة والأمير.
- في آفاق التعاليم.
- هذه تجربتي.. وهذه شهادتي.
- رسائل «كي لا نمضي بعيدًا عن احتياجات العصر» وقد صدر منها إحدى عشرة رسالة:

١- منطلقات إسلامية جديدة لحضارة عالمية جديدة..

٢- أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر الهجري.

٣- فلنتذكر في عصرنا ثلاثًا.

٤- إحياء الربانية.

٥- الإجابات.

٦- عقد القرن الخامس عشر الهجري.

٧- السيرة بلغة الحب والشعر.

٨- الخمينية شذوذ في العقائد وشذوذ في المواقف.

٩- إجازة تخصص الدعاة.

١٠- قوانين البيت المسلم.

١١- غذاء العبودية.

ونسأل الله أن يتقبل.

خاتمة

انهى هذه المذكرات التي سجلت فيها جزءًا من ذكرياتي وأنا في سن الثانية والخمسين، وقد أخذ مني المرض كل مأخذ، لقد ولدت في ٢٧ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٥، وها أنا أنهى هذا الكتاب في أوائل عام ١٩٨٧، وهناك قسم في التجارب والذكريات التي لها علاقة في موضوعات تخص الصف الإخواني ولها علاقة في الحركة الاضطرارية للمواجهة السياسية لم أسجلها في هذا الكتاب، وإنما أخرت نشرها لتكون أكثر موضوعية إن شاء الله تعالى، ولعل القاريء يلمح من خلال هذه المذكرات رغبتنا الأصيلة في الوصول إلى نظام يرتاح فيه الجميع في سورية، وأن أخشى ما تخشاه ألا نستطيع السيطرة على المستقبل بسبب من أحداث الماضى والحاضر، وهذا يجعلني أتوجه في ختام هذه المذكرات إلى جميع أبناء الشعب السوري أن يفكروا في المستقبل، فلن يدوم سلطان لأحد، والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فلا ينبغي أن يغتر ذو سلطان بسلطانه اليوم، ولا ينبغي أن يغتر ذو سلطان بسلطانه غدًا، والله تعالى سيحاسب الجميع.

وقد انتهت الكتابة في هذه المذكرات يوم الخميس ١٧ شعبان سنة ١٤٠٧هـ - ١٦ أبريل سنة ١٩٨٧م.

وآخر دعوانا «أن الحمد لله رب العالمين».

***

محتويات الكتاب

الموضوع | **الصفحة**

الباب الخامس

من السادسة والعشرين إلى التاسعة والعشرين (١٩٦١- ١٩٦٤)

(٥٧- ٨٢)

الباب السادس

من التاسعة والعشرين إلى الثانية والثلاثين (١٩٦٤-١٩٦٦)

(٨٣- ٩٣)

الباب السابع

من الثانية والثلاثين إلى السابعة والثلاثين (١٩٦٦-١٩٧١)

(٩٥- ١٠٤)

الباب الثامن

من السابعة والثلاثين إلى التاسعة والثلاثين

(١٩٧٢-١٩٧٣) من العودة إلى سورية حتى دخول السجن

(١٠٥- ١٢٠)

الباب التاسع

من التاسعة والثلاثين إلى الثالثة والأربعين (١٩٧٣-١٩٧٨: السجن)

(١٢١- ١٣٨)

الباب العاشر

من الثالثة والأربعين إلى السابعة والأربعين

(من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٧٨ إلى أواخر نيسان (أبريل) سنة ١٩٨٢

(١٣٩- ١٥٠)

الباب الحادي عشر
من السابعة والأربعين إلى التاسعة والأربعين (١٩٨٢-١٩٨٤م)
(١٥١- ١٥٦)

الباب الثاني عشر
من التاسعة والأربعين إلى الخمسين (أهم أحداث سنة ١٩٨٥)
(١٥٧- ١٦٥)

الباب الثالث عشر
من الخمسين إلى الواحدة والخمسين
(١٦٧- ١٦٨)

الباب الرابع عشر
من الواحد والخمسين إلى الثانية والخمسين
(١٦٩- ١٧١)

كتب للمؤلف

- الله جل جلاله .
- الرسول صلي الله عليه وسلم (جزأن معاً) .
- الإسلام (أربعة أجزاء معاً) .
- جند الله ثقافة وأخلاقاً .
- جند الله تخطيطاً .
- جند الله تنظيماً .
- من أجل خطوة الي الأمام علي طريق الجهاد المبارك .
- تربيتنا الروحية .
- في أفاق التعاليم .
- جولات في الفقهين الكبير والأكبر .
- المدخل الي دعوة الإخوان المسلمين .
- هذه تجربتي وهذه شهادتي .